المعتزلة

قراءة فى

مخطوطات البحر الميت

تأليف

د. أحمد حجازى السقا

كنوز

للنشر والتوزيع

المعتزلة

قراءة في

مخطوطات البحر الميت

تأليف

د / أحمد حجازي السـقا



للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

(**وبعد**) وجدتُ عندى أوراقًا عن المعتزلة كنتُ قد كتبتُ فيها منذ زمن عن : فرقة المعتزلة ، ونشأتها ، وسبب تسمية علمائها بالمعتزلة ، وأهم أفكارهم ، والمقارنة بين آرائهم وآراء أهل الكتاب ، فأردت إطلاع الباحثين والدارسين على آرائي وبحوثي عن هذه الفرقة التى لا يزال صدى أفكارها يتردد بين المسلمين إلى وقتنا الحاضر .

وكل ما فى هذه المباحث والفصول من اجتهاد فى الرأى ، مشفوعًا بالأدلة التى تجعل الرأى مقبولا للمناقشة .

كما قمنا بالتعريف بمخطوطات البحر الميت/مخطوطات قمران ، ومدي تأثر فكر المعتزلة بآراء نساك قمران .

والله أسأل أن يوفقنا لخدمة العلم والدين .

د/أحمد حجازى السقا

القسم الأول

المعتزلة

الفصل الأول

التعريف بفرقة المعتزلة

الفصل الأول

التعريف بفرقة المعتزلة

أشهر ما قيل في سبب تسميتهم بالمعتزلة : أن رجلاً دخل على الحسن البصري، وسأل عن مرتكب الكبيرة هل هو مؤمن أو كافر ؟ فتكلم واصل بن عطاء فقال : ((**أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقًا ولا كافر مطلقا ؛ بل هو في منزلة بين المنزلتين ، لا مؤمن ولا كافر**)) . ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن . فقال الحسن : ((**اعتزلنا واصل**)) . فسمي وهو وأصحابه : المعتزلة . [الملل والنحل (٥٢/١)]. ثم انضم إليه عمرو بن عبيد فأخذا يقرران مذهب المعتزلة ، فهما نواة هذه الفرقة .

وما قيل من أن الاعتزال كان وليد عصر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حينما اعتزل سعدُ بن أبي وقاص وابنُ عمر وأسامةُ بن زيد حروبَ علي، فلا وجه له ؛ لأن ذلك الاعتزال لم يكن اعتزالاً مذهبيًا على أساس في الرأي أو شبهة في الدين ؛ ولذا لم يكن اسم الاعتزال معروفا في ذلك العهد ، ولا سُمِّيَ هؤلاء بالمعتزلة في ذلك اليوم ، ولا أن المعتزلة ينتمون إلى أولئك في المذهب .

والمعتزلة افترقت فِرَقًا كثيرة بعد أن اتفقت على الإعتزال ، وليس في يومنا الحاضر أحد معروف النسبة إليه على ما نحسب .

ولقد ساعد على ظهور وانتشار آراء فرقة المعتزلة أمور ؛ أهمها :

١- الخلاف الكبير في حكم مرتكب الكبيرة بين السلف والخوارج والمرجئة ، فظهرت المعتزلة بقولها كحل لها كما زعموا .

٢- مناصرة بعض حكام بني العباس لهم ، وبلغ ذلك أوجه في عهد المأمون والمعتصم والواثق ؛ حيث فُتح لهم المجال لنشر معتقدهم وآرائهم ؛ ومسألة خلق القرآن التي امتُحِن بسببها خلق كثير شاهد على ذلك .

٣- دفاع المعتزلة عن الإسلام ضد الفرق والحركات المناوئة للإسلام كالراوندية؛ حيث كان لهم في ذلك مناظرات ورسائل كثيرة .

٤- دراسة الفلسفة والاطلاع على كتب الفلاسفة الأقدمين ، مما جعل المأمون يشجع على ترجمة كثير من كتب اليونان ، فخلط رجال المعتزلة كلامهم بكلام الفلاسفة اليونان ، فكانوا أقدم المتكلمين في الإسلام ، وافتتن بطريقتهم كثير من الناس فراجت بضاعتهم على عوام الناس بله على بعض العلماء . [انظر : المعتزلة وأصولهم الخمسة ص ٣٠-٥٠] .

السمات العامة للفكر المعتزلي

١- التزام أصول خمسة ؛ وهي :

أ- التوحيد : وهو عندهم نفي الصفات ، فهم يثبتون لله الأسماء دون الصفات.

ب- العدل : وهو عندهم نفي أن يكون الله خالقًا لأفعال العباد ، مخالفين بذلك السلف أهل السنة والجماعة .

ج- الوعد والوعيد : وهو عندهم إنفاذ الوعيد وأن الله لا يقبل في أهل الكبائر شفاعة ولا يُخرِج منهم أحدًا من النار [انظر : فتاوى ابن تيمية (١٣/٣٥٥)] .

د- المنزلة بين المنزلتين : حيث نَزَّلوا أصحاب الكبائر في الدنيا منزلة وسطى بين الإيمان والكفر ، وحكموا بخلوده في النار في الآخرة إن لم يتب .

هـ- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : وحقيقته عندهم ومؤداه جواز الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف . وهذه هي الأصول الخمسة لمذهبهم .

٢- إنكار رؤية الله عز وجل في الآخرة .

٣- القول بخلق القرآن وأن الله لم يتكلم به .

٤- تعظيم أمر العقل وتقديمه على النقل .

أ- تأويل الآيات القرآنية التي لا توافق العقل .

ب- رد الأحاديث المخالفة للعقل ولو كانت متواترة ، ولو كانت في الصحيحين .

ج- عدم قبول خبر الآحاد لأنها ظنية .

٥- الطعن في الصحابة والتابعين ، وخصوصًا رواة الأحاديث كأبي هريرة ﷺ.

٦- إنكار كثير من الغيبيات كالملائكة والجن والسحر وغيره .

والذي يجمع عقيدة الاعتزال ما نقله عبد القادر البغدادي صاحب ((الفَرْق بين الفِـرَق)) ص ٩٤ عن الكعبي في مقالاته :

(إن المعتزلة أجمعت على أن الله ﷻ شيء لا كالأشياء ، وأنه خالق الأجسام والأعراض ، وأنه خلَق كل ما خلقه من لا شيء ، وأن العباد يفعلون أعمالهم بالقدر التي خلقهـا الله سـبحانه وتعالى فيهم ، وأجمعوا على أن الله لا يغفر لمرتكبي الكبائر بلا توبة) .

هذا ما حكاه عن الكعبي في القول الجامع في الاعتقاد لفرق المعتزلة ، ونكتفي به عن الكلام عما يعتقدون ، ولسنا بصدد التمحيص لنضع هذا الكلام في ميزان النقد ، ونتعرف صحة ما صوّبه صاحب الفرق نحو هذا الزعم كما دعانا هنا لإغفال ما ينسبه إليهم ابن حـزم والشهرسـتاني والبغدادي من الأقوال الكثيرة .

وهل القدرية هم هؤلاء المعتزلة ؟ أو هم نفس الأشاعرة ؟ ذلك موضع يحتاج إلى تمهل ؛ لأنا إن أردنا من القدرية من يقول : بأن أفعال العباد مخلوقة لهم وأنها ، من صنعهم وتقديرهم وإنما خلق الله فيهم قوة وقدرة بها يفعل العباد أعمالهم ؛ فهم المعتزلة على ما نُقل عنهم من القول الجـامع السابق ، ولا يكونون على هذا نفس الأشاعرة ؛ لأن الأشاعرة على العكس من ذلك يرون أن الأفعال كلها من صنع الله تعالى وتقديره دون العبد . وإن أردنا من القدرية من يقول : بـأن القدر خيره وشره من الله تعالى ، فيكونون حينئذٍ هم الأشاعرة يقينًا .

وقد روى الشهرستاني عن النبي صلى الله عليه وآله قوله : ((القدرية مجوس هـذه الأمـة)) [سنن أبي داود (٤٦٩١)]. وقـوله : ((القدرية خصماء الله في القدر)) . [الملل والنحـل ١/٥٠ ، ٥١] .

التأسيس وأبرز الشخصيات

اختلفت رؤية العلماء في ظهور الاعتزال ، واتجهت هذه الرؤية وجهتين :

الوجهة الأولى

ترى أن الاعتزال حصل نتيجة النقاش في مسائل عقدية دينية كالحكم على مرتكب الكبيرة ، والحديث في القدر بمعنى : هل يقدر العبد على فعله أو لا يقدر ؟ ومن رأي أصحاب هذا الاتجاه أن اسم المعتزلة أطلق عليهم لعدة أسباب :

١- أنهم اعتزلوا المسلمين بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين .

٢- أنهم عُرفوا بالمعتزلة بعد أن اعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري وشكل حلقة خاصة به لقوله بالمنزلة بين المنزلتين ، فقال الحسن : ((**اعتزلنا واصل**)) .

٣- أو أنهم قالوا بوجوب اعتزال مرتكب الكبيرة ومقاطعته .

الوجهة الثانية

ترى أن الاعتزال نشأ بسبب سياسي حيث أن المعتزلة من شيعة علي رضي الله عنه اعتزلوا الحسن عندما تنازل لمعاوية ، أو أنهم وقفوا موقف الحياد بين شيعة علي ومعاوية فاعتزلوا الفريقين .

أما القاضي عبد الجبار الهمذاني مؤرخ المعتزلة صاحب كتابهم ((المغني)) فيرى أن الاعتزال ليس مذهبا جديدا أو فرقة طارئة أو طائفة جديدة أو أمرا مستحدثا ، وإنما هو استمرار لما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته ﷺ ، وقد لحقهم هذا الاسم بسبب اعتزالهم الشر ؛ لقوله تعالى : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون ﴾ [مريم/٤٦] ، ولقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**من اعتزل الشر ، سقط في الخير**)) . علمًا بأن هذا الحديث غير موجود في الكتب التسعة ولم أره في غيرها .

والواقع أن نشأة الاعتزال كان ثمرة تطور تاريخي لمبادئ فكرية وعقدية وليدة النظر العقلي المجرد في النصوص الدينية ، وقد نتج ذلك عن التأثر بالفلسفة اليونانية والهندية والعقائد اليهودية والنصرانية .

وقبل بروز المعتزلة كفرقة فكرية على يد واصل بن عطاء ، كان هناك جدل ديني فكري بدأ بمقولات جدلية كانت هي الأسس الأولى للفكر المعتزلي ؛ وهذه المقولات نوجزها مع أصحابها بما يلي :

– مقولة : إن الإنسان حر مختار بشكل مطلق ، وهو الذي يخلق أفعاله بنفسه . قالها معبد الجهني الذي خرج على عبد الملك بن مَرْوَان مع عبد الرحمن بن الأشعث ، وقد قتله الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفي عام ٨٠ هـ بعد فشل الحركة .

– وكذلك قالها غيلان الدمشقي في عهد عمر بن عبد العزيز ، وقتله هشام بن عبد الملك في خلافة الأخير .

– ومقولة خلق القرآن ونفي الصفات ، قالها الجهم بن صفوان ، وقد قتله سَلْم بن أحوز في مَرْوَ عام ١٢٨هـ .

– وممن قال بنفي الصفات أيضا الجعد بن درهم الذي قتله خالد بن عبد الله القسري والي الكوفة .

ثم برزت المعتزلة كفرقة على يد واصل بن عطاء الغزال (٨٠ –١٣١هـ) الذي كان تلميذا للحسن البصري ، ثم اعتزل حلقة الحسن بعد قوله بأن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين ؛ أي : ليس مؤمنا ولا كافرا ، وأنه مخلد في النار إذا لم يتب قبل موته . وقد عاش واصل في أيام عبد الملك بن مَرْوَان وهشام بن عبد الملك ، والفرقة المعتزلية التي تنسب إليه تسمى : الواصلية .

ولاعتماد المعتزلة على العقل في فهم العقائد وتقصيهم لمسائل جزئية ، فقد انقسموا إلى طوائف مع اتفاقهم على المبادئ الرئيسية الخمسة التي ذكرناها . وكل طائفة من هذه الطوائف جاءت ببدع جديدة تميزها عن الطائفة الأخرى ، وسَمَّت نفسها باسم صاحبها الذي أخذت عنه .

وفي العهد العباسي برز المعتزلة في عهد المأمون ؛ حيث اعتنق الاعتزال عن طريق بشر المريسي وثمامة بن أشرس وأحمد بن أبي دؤاد وهو أحد رءوس بدعة الاعتزال في عصره ورأس فتنة خلق القرآن ، وكان قاضيا للقضاة في عهد المعتصم.

وفي فتنة خلق القرآن امتحن الإمام أحمد بن حنبل الذي رفض الرضوخ لأوامر المأمون والإقرار بهذه البدعة ، فسجن وعذب وضرب بالسياط في عهد المعتصم بعد وفاة المأمون ، وبقي في السجن لمدة عامين ونصف ثم أعيد إلى منزله ، وبقي فيه طيلة خلافة المعتصم ثم ابنه الواثق .

ولما تولى المتوكل الخلافة عام ٢٣٢هـ ، انتصر لأهل السنة وأكرم الإمام أحمد، وأنهى عهد سيطرة المعتزلة على الحكم ومحاولة فرض عقائدهم بالقوة خلال أربعة عشر عاما .

وفي عهد دولة بني بويه عام ٣٣٤هـ في بلاد فارس وكانت دولة شيعية ، توطدت العلاقة بين الشيعة والمعتزلة وارتفع شأن الاعتزال أكثر في ظل هذه الدعوة، فعين القاضي عبد الجبار رأس المعتزلة في عصره قاضيا لقضاء الري عام ٣٦٠هـ بأمر من الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة البويهي وهو من الروافض المعتزلة ، يقول عنه الذهبي : ((وكان شيعيا معتزليا مبتدعا)) .

ويقول المقريزي : ((إن مذهب الاعتزال فشا تحت ظل الدولة البويهية في العراق وخراسان وما وراء النهر)) . وممن برز في هذا العهد : الشريف المرتضى الذي قال عنه الذهبي : ((كان من الأذكياء والأولياء المتبحرين في الكلام والاعتزال والأدب والشعر ، لكنه إمامي جلد)) .

وبعد ذلك كاد أن ينتهي الاعتزال كفكر مستقل ، إلا ما تبنته منه بعض الفرق كالشيعة وغيرهم .

وعاد الفكر الاعتزالي من جديد في الوقت الحاضر ، على يد بعض الكتاب والمفكرين الذين يمثلون المدرسة العقلانية الجديدة .

ومن أبرز مفكري المعتزلة منذ تأسيسها على يد واصل بن عطاء وحتى اندثارها وتحللها في المذاهب الأخرى كالشيعة والزيدية والإباضية ما يلي :

١- أبو الهذيل حمدان بن الهذيل العلاف (١٣٥-٢٢٦ هـ) : مولى عبد القيس وشيخ المعتزلة والمناظر عنها ، أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل عن واصل بن عطاء ، وطالع كثيرا

من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة ، وقد تأثر بأرسطو وأنبا دقليس من فلاسفة اليونان ، وقال بأن الله عالم بعلم وعلمه ذاته ، وقادر بقدرة وقدرته ذاته . [انظر : الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٧٦] . وتسمى طائفته : الهذيلية .

٢- إبراهيم بن يسار بن هانئ النَّظَّام (ت ٢٣١هـ) : وكان في الأصل على دين البراهمة ، وقد تأثر أيضا بالفلسفة اليونانية مثل بقية المعتزلة . وقال : بأن المتولدات من أفعال الله تعالى . وتسمى طائفته : النَّظَّامية .

٣- بشر بن المعتمر (ت ٢٢٦هـ) : وهو من علماء المعتزلة ، وهو الذي أحدث القول بالتولد وأفرط فيه فقال : إن كل المتولدات من فعل الإنسان ، فهو يصح أن يفعل الألوان والطعوم والرؤية . وتسمى طائفته : البشرية .

٤- معمر بن عباد السلمي (ت ٢٢٠هـ) : وهو من أعظم القدرية فرية في تدقيق القول بنفي الصفات ، ونفي القدر وشره من الله تعالى . وتسمى طائفته : المعمرية .

٥- عيسى بن صبيح المكنى بأبي موسى الملقب بـ :المزدار (ت ٢٢٦هـ): وكان يقال له : راهب المعتزلة . وقد عرف عنه التوسع في التكفير حتى كفر الأمة بأسرها بما فيها المعتزلة . وتسمى طائفة : المزدارية .

٦- ثمامة بن أشرس النميري (ت ٢١٣هـ) : كان جامعا بين قلة الدين وخلاعة النفس ، مع اعتقاده بأن الفاسق يخلد في النار إذا مات على فسقه من غير توبة ، وهو في حال حياته في منزلة بين المنزلتين ، وكان زعيم القدرية في زمان المأمون والمعتصم والواثق وقيل : إنه هو الذي أغرى المأمون ودعاه إلى الاعتزال . وتسمى طائفته : الثمامية .

٧- عمرو بن بحر أبو عثمان الجاحظ (ت٢٥٦هـ) الأديب صاحب البيان والتبيين : وهو من كبار كتاب المعتزلة ، ومن المطلعين على كتب الفلاسفة ، ونظرا لبلاغته في الكتابة الأدبية ، واستطاع أن يدس أفكاره المعتزلية في كتاباته كما يدس السم في الدسم ، مثل البيان والتبيين ، وتسمى فرقته : الجاحظية .

٨- أبو الحسين بن أبي عمر الخياط (ت ٣٠٠ هـ) : من معتزلة بغداد ، وبدعته التي تفرد بها قوله بأن المعدوم جسم ، والشيء المعدوم قبل وجوده جسم ، وهو تصريح بقدم العالم ، وهو بهذا يخالف جميع المعتزلة . وتسمى فرقته : الخياطية.

٩- القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني (ت ٤١٤هـ) : فهو من متأخري المعتزلة ، قاضي قضاة الري وأعمالها ، وأعظم شيوخ المعتزلة في عصره، وقد أرخ للمعتزلة وقنن مبادئهم وأصولهم الفكرية والعقدية في كتابه المشهور ((المغني)) .

أهم مبادئ وأفكار المعتزلة

جاءت المعتزلة في بدايتها بفكرتين جديدتين :

الأولى : القول بأن الإنسان مختار بشكل مطلق في كل ما يفعل ، فهو يخلق أفعاله بنفسه ، ولذلك كان التكليف ، ومن أبرز من قال ذلك غيلان الدمشقي ، الذي أخذ يدعو إلى مقولته هذه في عهد عمر بن عبد العزيز ، حتى عهد هشام بن عبد الملك ، فكانت نهايته أن قتله هشام بسبب ذلك .

الثانية : القول بأن مرتكب الكبيرة ليس مؤمنا ولا كافرا ولكنه فاسق فهو بمنزلة بين المنزلتين ، هذه حاله في الدنيا ، أما في الآخرة فهو لا يدخل الجنة لأنه لم يعمل بعمل أهل الجنة بل هو خالد مخلد في النار ، ولا مانع عندهم من تسميته مسلما باعتباره يظهر الإسلام وينطق بالشهادتين ، ولكنه لا يسمى مؤمنا .

وقد سبق أن ذكرت أصولهم مجملة ، وسوف أفصلها فيما يلي :

حرر المعتزلة مذهبهم في خمسة أصول :

١- التوحيد .

٢- العدل .

٣- الوعد والوعيد .

٤- المنزلة والمنزلتين .

٥- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وإليك التفصيل :

١- التوحيد

ورأيهم فيه : هو أن الله تعالى منزه عن الشبيه والمماثل ، لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى/١١] . ولا ينازعه أحد في سلطانه ولا يجري عليه شيء مما يجري على الناس . وهذا حق ، ولكنهم بنوا عليه نتائج باطلة منها :

- استحالة رؤية الله تعالى لاقتضاء ذلك نفي الصفات .

- وأن الصفات ليست شيئا غير الذات ، وإلا تعدد القدماء في نظرهم ، لذلك يعدون من نفاة الصفات .

- وبنوا عليه أيضا أن القرآن مخلوق لله سبحانه وتعالى ؛ لنفيهم عنه سبحانه صفة الكلام .

٢- العدل

ومعناه برأيهم : أن الله لا يخلق أفعال العباد ، ولا يحب الفساد ، بل إن العباد يفعلون ما أمروا به وينتهون عما نهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم، وأنه لم يأمر إلا بما أراد ولم ينه إلا عما كره ، وأنه ولي كل حسنة أمر بها ، بريء من كل سيئة نهى عنها ، لم يكلفهم ما لا يطيقون ولا أراد منهم ما لا يقدرون عليه ، وذلك لخلطهم بين إرادة الله تعالى الكونية وإرادته الشرعية .

٣- الوعد والوعيد

ويعني : أن يجازي الله المحسن إحسانا ، ويجازي المسيء سوءا ، ولا يغفر لمرتكب الكبيرة إلا أن يتوب .

٤- المنزلة بين المنزلتين

وتعني : أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين الإيمان والكفر ، فليس بمؤمن ولا كافر، وقد قرر هذا واصل بن عطاء شيخ المعتزلة منذ زمن مبكرة .

٥- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

فقد قرروا وجوب ذلك على المؤمنين ؛ نشرا لدعوة الإسلام وهداية للضالين وإرشادا للغاوين كلٌّ بما يستطيع ؛ فذو البيان ببيانه ، والعالم بعلمه ، وذو السيف بسيفه وهكذا . ومن هذا الأصل يقولون بوجوب الخروج على الحاكم إذا خالف وانحرف عن الحق .

تلك هي أصول مذهب المعتزلة . ومن مبادئ هذا المذهب :

- الاعتماد على العقل كليا في الاستدلال لعقائدهم ، وكان من آثار اعتمادهم على العقل معرفة حقائق الأشياء وإدراك العقائد أنهم كانوا يحكمون بحسن الأشياء وقبحها عقلا ، فقالوا كما جاء في الملل والنحل للشهرستاني : (المعارف كلها معقولة بالفعل ، واجبة بنظر العقل ، وشكر المنعم واجب قبل ورود السمع ؛ أي : قبل إرسال الرسل ، والحسن والقبح صفتان ذاتيان للحسن والقبح) .
- ولاعتمادهم على العقل أيضا أولوا الصفات بما يلائم عقولهم ، كصفات الاستواء واليد والعين وكذلك صفات المحبة والرضى والغضب والسخط ، ومن المعلوم أن المعتزلة تنفي كل الصفات لا أكثرها .
- ولاعتمادهم على العقل أيضا طعن كبراؤهم في أكابر الصحابة وشنعوا عليهم ورموهم بالكذب ، فقد زعم واصل بن عطاء أن إحدى الطائفتين يوم الجمل فاسقة ، إما طائفة علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر والحسن والحسين وأبي أيوب الأنصاري أو طائفة عائشة والزبير ، وردوا شهادة هؤلاء الصحابة جميعا فقالوا : لا تقبل شهادتهم .

وسبب اختلاف المعتزلة فيما بينهم وتعدد طوائفهم هو اعتمادهم على العقل فقط ، وإعراضهم عن النصوص الصحيحة من الكتاب والسنة ، ورفضهم الاتباع بدون بحث واستقصاء ، وقاعدتهم التي يستندون إليها في ذلك : (كل مكلف مطالب بما يؤديه إليه اجتهاده في أصول الدين) . فيكفي وفق مذهبهم أن يختلف التلميذ مع شيخه في مسألة ؛ ليكون هذا التلميذ صاحب فرقة قائمة ، وما هذه الفِرَق التي ذكرناها لك سابقا إلا نتيجة اختلاف تلاميذ مع شيوخهم ، فأبو الهذيل العلاف له فرقة ، وخالفه تلميذه النظام فكانت له فرقة ، فخالفه تلميذه

الجاحظ فكانت له فرقة ، والجبائي له فرقة ، فخالفه ابن هاشم عبد السلام فكانت له فرقة أيضا وهكذا .

وقد فند علماء الإسلام آراء المعتزلة في عصرهم ، فمنهم أبو الحسن الأشعري الذي كان منهم، ثم خرج من فرقتهم ورد عليهم متبعا أسلوبهم في الجدال والحوار، ثم جاء الإمام أحمد بن حنبل الذي اكتوى بنار فتنتهم المتعلقة بخلق القرآن ووقف في وجه هذه الفتنة بحزم وشجاعة نادرتين .

الفصل الثاني

الأصول الخمسة للمعتزلة

الفصل الثاني

الأصول الخمسة للمعتزلة

للمعتزلة أصول خمسة هي قواعد مذهبهم وقد سبق وأن أشرنا إليها ؛ وهي :

١- التوحيد .

٢- والعدل .

٣- والوعد والوعيد .

٤- والمنزلة بين المنزلتين .

٥- والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكل من دان بالأصول الخمسة ، ثم خالف بقية المعتزلة في الفروع ؛ لم يخرج بذلك عنهم . كما نص على ذلك كل من المسعودي الأشعري والخياط .

وقال ابن حزم في الفِصَل : (إن أصولهم هي : القول بخلق القرآن ، ونفي الرؤية السعيدة ، ونفي القدر ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، ونفى الصفات) .

وفي هذا الفصل سوف نعقد مقارنة بين رأيهم في هذه الأصول الخمسة وبين رأي أهل الكتاب فيها أيضًا .

وقد ذكرنا بعض أصولهم فيما سبق ، وقارنا بينها وبين ما في أيدي أهل الكتاب كتب مقدسة ومخطوطات نُسَّاك قمران وإنجيل برنابا ، وأوضحنا أدلتهم على هذه الأصول من القرآن والسنة .

١- نفي الرؤية

في التوراة عن نفي الرؤية : (لا تقدر أن ترى وجهي ؛ لأن الأنسان لا يراني ويعيش ، وأما وجهي فلا يُرى) [خروج ٣٣ : ٢٠ ، ٢٣] .

وأيضا في سفر النبي إشعياء :(حقا أنت إله محتجب يا إله إسرائيل المخلص) [إش ٥٤ : ٥١] .

وفي الإنجيل ليوحنا : (الله لم يره أحد قط) [يو ١ : ٨١] .

وفي رسائل بولس : (وملك الدهور الذي لا يفنى ولا يُرى ، الإله الحكيم وحده) [تيموثاوس ١ : ١٧] .

وفي إنجيل بَرْنابا : (قال متى : يا معلم ، إنك لقد اعترفت أمام اليهودية كلها بأن ليس لله من شبه كالبشر ، وقلت الآن : إن الإنسان ينال من يد الله . فإذا كان لله يدان ، فله إذن شبه بالبشر ؟

أجاب يسوع : إنك لفي ضلال يا متى ، ولقد ضل كثيرون هكذا ؛ إذ الكلام البشري بمثابة ترجمان بيننا وبين الله ، ألا تعلم أنه لما أراد الله أن يكلم آباءنا على جبل سيناء صرخ آباؤنا : كلمنا أنت يا موسى ، ولا يكلمنا الله لئلا نموت [1] .

وماذا قال الله على لسان إشعياء النبي [2] : أليس كما بعدت السموات عن الأرض هكذا بعدت طرق الله عن طرق الناس وأفكار الله عن أفكار الناس ؟

إن الله لا يدركه قياس إلى حد أدنى ، أرتجفت من وصفه ، ولكن يجب أن نذكر لكم قضية ، فأقول لكم إذن : إن السموات تسع ، وإنما بعضها يبعد عن بعض كما تبعد السماء الأولى عن الأرض التي تبعد عن الأرض سفر خمسمائة سنة[3] وعليه فإن الأرض تبعد عن أعلى سماء مسيرة أربعة آلاف وخمسمائة سنة ، فبناء على ذلك أقول لكم : إنما بالنسبة إلى السماء الأولى كرأس إبرة ، ومثلها السماء الأولى بالنسبة إلى الثانية ، وعلى هذا النمط كل السموات الواحدة منها أسفل مما يليها ، ولكن كل حجم الأرض مع حجم الأرض مع حجم كل السموات بالنسبة إلى الجنة كنقطة ، بل كحبة رمل ، أليست هذه العظمة مما لا يقاس ؟

فأجاب التلاميذ : بلى بلى .

حينئذ قال يسوع : لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته ، إن الكون أمام الله لصغير كحبة رمل ، والله أعظم من ذلك بمقدار ما يلزم من حبوب الرمل لملء كل السموات والجنة بل أكثر

---

[1] خر ٢٠ : ١٩ .

[2] إش ٥٥ : ٩ .

[3] إن القول ببعد كل سماء عن الأخرى ٥٠٠ سنة موجود في التلمود .

، فانظروا الآن إذا كان هنالك نسبة بين الله والإنسان الذي ليس سوى كتلة صغيرة من طين واقفة على الأرض ، فانتبهوا إذن لتأخذوا المعنى لا مجرد الكلام إذا أردتم أن تنالوا الحياة الأبدية . فأجاب التلاميذ : إن الله وحده يقدر أن يعرف نفسه حقا لكما ، قال إشعياء النبي [٤] : هو محتجب عن الحواس البشرية ؟) [برنابا ١٠٤ : ١٠٥] .

وقال المعتزلة : إن الله لا يُرى ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

واستدل المعتزلة على مذهبهم هذا بأدلة من القرآن ؛ منها :

- قول الله ﷻ لموسى ﷺ : ﴿ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ [الأعراف/١٤٣] . قالوا : فقد علق الرؤية على أمر مستحيل وهو استقرار الجبل حال التجلي ، ولم يعلقه على أمر ممكن إذا كان المتجلي غير الله . أما والله هو المتجلي ، وإنه ذو هيبة ، فإن الجبل لن يستقر من الهيبة .

- وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام/١٠٢ ، ١٠٣] .

- وأجابوا عن قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة/٢٢ ، ٢٣] . بأنه : لا يمكن التفسير بأنها تنظر إلى الذات ؛ لأن النص المحكم ينفي الإدراك وينفي الرؤية ، وعلى ذلك يكون التفسير : بأنها تنظر إلى نعمة الله وفضله ، وهكذا في قوله : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين/١٥] . أي : عن نعمه وفضله .

---

[٤] إش ٤٥ : ١٥ .

والذي دعاهم في الإثبات هو أن الأرثوذكس والمسيحيون يثبتون رؤية الله في الدنيا والآخرة . يزعمون : أن الله هو المسيح ، والمسيح هو الله . وإذا الناس قد رأوا المسيح وأكلوا وشربوا معه ؛ فإن الله يكون مثبتًا للرؤية عيانًا جهارًا .

وأهل السنة نفوا رؤية الله في الدنيا (*) ، وأثبتوها في الآخرة لأهل الجنة .

ويعلل المعتزلة رأيهم ذلك بقولهم : لأن المرئي إن كان جسما يلزمه مكان ، والله في السموات وفي الأرض ، ومن لا مكان له لا جسم له ، ومن لا جسم له لا زوج له ولا ولد له .

وذلك واضح من قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى/١١] . فنفي المثل هو نفي الجسم .

ويستدل المعتزلة على نفي الرؤية أيضا بقوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ [الأنعام/١٠٣] . قالوا : نفي الإدراك عام في الدنيا والآخرة ، وهذا العام المنفي ليس له مخصص في القرآن ، يخصصه بالآخرة دون الدنيا ؛ ولأنه لا مخصص له من القرآن .

قال أهل السنة المثبتون للرؤية في الآخرة : إن المخصص حديث نبوي شريف .

وقد رد عليهم المعتزلة بدليلين :

الأول : إن القرآن لا يُخصص إلا بما في قوته ، والأحاديث ليست في قوة القرآن .

والآخر : إن في الأحاديث ما ينفي الرؤية ، وفي الأحاديث ما يثبتها ، وأحاديث النفي موافقة للقرآن – كما يزعمون – ، وأحاديث الإثبات مخالفة له ، والمخالف لا يخصص .

والحديث المخصص يريدون به ما تواترت الأخبار عن أبي سعيد وأبي هريرة وغيرهما عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة .

(*) اختلف أهل السنة في رؤية النبي ﷺ لله ﷻ ليلة الإسراء والمعراج ، وذلك في الدنيا .

فرد المعتزلة هذا الدليل وقالوا : قولهم هذا متناقض مع ما روي عن عائشة أنها قالت : (من زعم أن محمدًا أبصر ربه ؛ فقد كذب على الله تعالى ؛ فإن الله تعالى قال : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾) . قالوا : وإذا امتنعت الرؤية عن محمد ﷺ ، تمتنع على غيره من باب أولى .

ويقول أهل السنة : إن قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ [القيامة/٢٢] . يحتمل معنيين اثنين هما :

١- إثبات الرؤية إلى الذات .

٢- أو إثبات رؤية نعم الله وخيراته .

فقال المعتزلة : المتفق مع المحكم وهو : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ هو رؤية النعم والخيرات ؛ فيكون هو مراد الله تعالى .

ويقول أهل السنة : إن قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين/١٥] يدل على إثبات الرؤية .

قال المعتزلة : هذه الآية من المتشابه ، وتحتمل معنيين اثنين هما :

١- إثبات الرؤية إلى الذات .

٢- أو إثبات رؤية نعم الله وخيراته .

والمتفق مع المحكم وهو : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ هو الحجب عن النعم والخيرات ؛ فيكون هو مراد الله تعالى .

قالوا : وروى الإمام أحمد أن مسروقًا سأل عائشة فقال : يا أم المؤمنين ، هل رأى محمد ربه ؟ قالت : سبحان الله ، لقد قَفَّ شعري لما قلتَ ، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب . ثم قرأت : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ [الأنعام/١٠٣] ، ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى/٥١] ، ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد

فقد كذب . ثم قرأت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان/٣٤] . ومن أخبرك أن محمدا قد كتم فقد كذب . ثم قرأت : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة/٦٧] ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين .

٢- خلق القرآن

يقول اليهود في التلمود وغيره : إن الله خلق سبعة أشياء قبل خلق السموات والأرض بألفي عام ، وهي :

١- التوراة .

٢- وعرش الله .

٣- والجنة .

٤- والنار .

٥- والقدس .

٦- واسم المُنبأ الذي هو محمد رسول الله ﷺ .

٧- وصوت البوق .

وإليك النص الانجليزى للمخلوقات السبعة :

Prologue : In the Beginning:

In the beginning , two thousand years before the heaven and the earth, seven things were ceated : the Torah, written with black fire on white fire and lying in the lap of God; the Divine throne, erected in the heavens... ; paradise on the right side of God, a gewel on its altar graven with the name of the Messiha, and a voice that cries aloud, Return,oh you children of me.

This creation account form classical talmudis gudaism may come as a surprise to readers more familiar with that ceation legend of scripture which states.

In the beginning God created the heavens and the earth. The earth was without eorm and void, and darkness was upon the face of the deep.

The spirit of **God was** moving over **the** face of the waters. and God said, let there be **ligh, akd there was light**.

هذا ما في التلمود وغيره عن التوراة ، واسم المسيا ؛ أي : المسيح الآتي مثل موسى ليكلمهم بكل ما يوصيه الله به [تث ١٨ : ١٥ ٢٢] .

والغرض من هذا الكلام عندهم : **هو تعظيم** هذه الأشياء السبعة ، **لا أنها مخلوقة بآحادها .**

والدليل على أن الغرض من هذا الكلام **هو التعظيم : أن الحبر موسى بن ميمون** في كتابه " دلالة الحائرين " وهو من شارحي التلمود **يقول : (إن التوراة مخلوقة ، وإن النبي الملقب** بالمسيا سيخرج من بطن امرأة ، والمرأة التي **سيخرج منها موجودة قبله في الزمان ، وإن موسى** صاحب التوراة لم يكن من القدماء السبعة) .

وقد قال المسيح عليه السلام : إن المسيا – أي: المسيح – هو محمد رسول الله ﷺ ، وأنه قد خُلق قبلي وسيأتي بعدي . يعني بذلك : **أن الله في سابق عمله قد قدّر وجوده .**

ولكن المسيحيين يقولون : إن المسيا **– أي : المسيح – هو عيسى ، وإنه كان في البدء قبل إنشاء** العالم .

أما اليهود فيقولون : إن المسيا لم يظهر بعد .

وقد ردد المعتزلة كلام النصارى ؛ **لأن القول بقدم القرآن يستلزمه أن عيسى هو الله على رأيهم** ، فإن في الكلام المنسوب إلى بولس : **(وبالإجماع عظيم هو سر التقوى ، الله ظهر في** الجسد ، تبرر في الروح ، تراءى لملائكة ، **كُرِز به بين الأمم ، أومن به في العالم ، رُفِع في** المجد) [تيموثاوس ٣:١٦] .

فانظر إلى قوله : (الله ظهر في الجسد) . **أي أن عيسى هو الله نفسه** . وحيث إن صفات الله قديمة ، تكون كلمة قديمة ؛ **لأن الكلام قديم .**

هذا هو منشأ الخلاف في أن القرآن قديم أم محدث .

قال المعتزلة : وفي القرآن ما يدل **على أنه** محدث :

١- فالله كلم آدم ، ثم كلم نوحا ، **ثم كلم إبراهيم ، ثم كلم موسى ، ثم كلم داود ، ثم كلم** عيسى ، ثم كلم محمدا عليهم الصلاة والسلام . **ومحمد ﷺ كان قبل نزول القرآن عليه .**

٢- في القرآن أحداث قد حدثت في الزمان الأول ، ونزل بعدها قرآن .

٣- وصف الله القرآن بأنه محدث في بدء سورة الأنبياء وبدء سورة الشعراء :

أ- يقول الله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [الأنبياء/١-٣] .

ب- ويقول تعالى : ﴿ طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الشعراء/١-٦] .

٤- قالوا : والله تعالى قال : ﴿ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الأعراف/٥٤] ، وهو دائم الكلام أزلا وأبدا ، وإذا أراد أمرا فإنما يقول له : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل/٤٠] .

ويقول أهل السنة : إن القرآن قديم وغير مخلوق .

ويرد عليهم المعتزلة بقولهم : إن الله تعالى كان قبل الكلام ، وكان قادرا على الكلام من قبل أن يتكلم به ، ثم إنه ابتدأ في الكلام فقال للسموات وللأرض : ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت/١١] ، ثم كلم الملائكة ، وكلم آدم ، ثم كلم نوحا ، ثم كلم موسى ، ثم كلم محمدًا عليهم جميعا الصلاة والسلام .

ثم هو يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ [الشورى/٥١] .

فلماذا مع ذلك كله ينفرد القرآن بأنه هو القديم ؟

وفيه أنه : ﴿ مُحْدَثٍ ﴾ مكررة مرتين في سورة الأنبياء وسورة الشعراء .

وفيه كلام عن الوقائع والمناسبات مثل المرأة المجادلة ، والغزوات والسرايا .

وهل القرآن جسم حتى يقال : مخلوق أم قديم ؟ وإن الكلام من الآدميين ليس جسما ، وإنما هو شرارة من النطق ، والشرارة في الهواء تطير وتتلاشى ، ولا يكون لها أثر . وكذلك النطق إذا لم يقيد بالكتابة ، كما بينا في ذلك كتابنا حياة القبور .

وللمعتزلة أدلة من الحديث النبوي ؛ فعن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ : ((**ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم ، وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ، ونقصوا منه ، وكتابكم أحدث الكتب بالله ، تقرأونه محضا لم يشب**)) .

الخليفة المأمون وفتنة خلق القرآن

أظهر المأمون القول بخلق القرآن سنة ٢١٢هـ [٦] ، ولكنه لم يصمّم على حمل الناس عليه إلا سنة ٢١٨هـ [٧] ؛ فإنه وصل في تلك السنة دمشق وامتحن أهلها في العدل والتوحيد [٨] .

ثم تابع سيره إلى الرقة ، وكتب منها إلى إسحاق بن إبراهيم رئيس شرطة بغداد يأمره بامتحان القضاة والشهود والمحدثين في القرآن ، وهذا هو نص الكتاب :

(أما بعد ، فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم ، ومواريث النبوة التي أورثهم ، وأثر العلم الذي استودعهم ، والعمل بالحق في رعيتهم ، والتشمير لطاعة الله فيهم . والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته ، والإقساط فيما ولاّه الله من رعيته برحمته ومنته .

---

[٦] تاريخ الطبري ٢٧٩/١٠ .

[٧] طبقات الشافعية ٢١٨/١ .

[٨] تاريخ اليعقوبي ٥٧١/٢ .

(وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسِفْلة العامة ممن لا نظر له ولا روية ، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ، ولا استضاء بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق أهل جهالة بالله وعمًى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به ، ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ، لضعف آرائهم ونقص عقولهم وجفائهم عن التفكر والتذكر .

وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا مجتمعين ، واتفقوا غير متعاجمين ، على أنه قديم أول لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه .

وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء وللمؤمنين رحمة وهدى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف/٣] . فكل ما جعله الله ، فقد خلقه .

وقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام/١] .

وقال ﷻ : ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ [طه/٩٩] . فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها وتلا به متقدمها .

وقال : ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود/١] . وكل مُحكَم مُفصَّل ، فله مُحكِم مُفصِّل ، والله مُحْكِمُ كتابه ومُفصِّله، فهو خالقه ومبدعه .

ثم هُمُ الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة ، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل قولهم ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونحلتهم .

ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن مَنْ سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وغرُّوا به الجُهَّال ، حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله والتقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ومواطأتهم على سيئ آرائهم ؛ تزيُّنًا بذلك عندهم ، وتصنُّعًا للرياسة والعدالة فيهم ، فتركوا الحق إلى باطلهم ، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالتهم ، فقبلت بتزكيتهم شهادتهم ، ونفذت أحكام الكتاب بهم على دَغَل

دينهم ، ووتغل أدعهم، وفساد نياتهم ويقينهم ، وكان ذلك غايتهم التي إليها أجروا وإياها طلبوا في متابعتهم والكذب على مولاهم ، وقد أخذوا عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا ما فيه ، أولئك الذين أصمَّهم الله وأعمى أبصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟

فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورءوس الضلالة المنقوصون من التوحيد حظًا ، والمخسوسون من الإيمان نصيبا ، وأوعية الجهالة ، وأعلام الكذب ، ولسان إبليس الناطق في أوليائه والهائل على أعدائه من أهل دين ، وأحق من يُتّهم في صدقه ، وتطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله ولا عمله ، فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد ، ومن عمي عن رشده وحظه من الإيمان بالله وبتوحيده كان عمًّا سوى ذلك من عمله والقصد في شهادته أعمى وأضل سبيلا .

ولعمر أمير المؤمنين إن أحجى الناس بالكذب في قوله ، وتخرص الباطل في شهادته ، من كذب على الله ووحيه ، ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، وإن أولاهم برد شهادته في حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه ، وبَهَت حق الله بباطله .

فاجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق القرآن وإحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه .

فإذا أقروا بذلك ، ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ، فمُرْهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم في القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يقرّ أنه مخلوق محدث ولم يره ، والامتناع من توقيعها عنده .

واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين والإخلاص للتوحيد ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله .

وكتب في شهر ربيع الأول سنة ٢١٨) [٩] .
كتاب المأمون هذا إلى رئيس شرطته مؤلف - كما نرى - من ثلاثة أقسام :
فهو يتحدث في القسم الأول عن حق الخليفة في الاجتهاد في إقامة دين الله ، وذلك محاولة صريحة لتبرير عمله في امتحان الناس .
ويقول في القسم الثاني : إن جمهور الرعية والعامة لا نظر لهم ولا روية ، وإنهم أهل جهالة وعمًى عن حقيقة الدين وقواعد التوحيد والإيمان ؛ ولذلك فقد أجمعوا على أن القرآن غير مخلوق ، فساووا بينه وبين الله تعالى في القدم . وينتقل من هذا القول إلى البرهان على خطأ من قال بقدم القرآن ؛ بالاعتماد على بعض آي الكتاب الكريم .
وأما في القسم الثالث فإن المأمون يأمر رئيس شرطته أن يجمع قضاة بغداد ، ويقرأ عليهم كتابه ، ويمتحنهم في خلق القرآن . فمن امتنع عن الإقرار به أقصاه عن عمله ، ومن أقرّ به أبقاه ، وأن يطلب من القضاة الذين يقولون بخلق القرآن امتحان الشهود فيه ؛ فمن لم يقرُّ به رفضوا شهادته . وحجته في ذلك : أن من لم يكمل دينه ويصح إيمانه لا يمكن أن يوثق بقوله ولا عمله ، وأن من يرفض شهادة الله تعالى في خلقه أحق الناس برفض شهادته .
ثم إن المأمون كتب إلى إسحاق بن إبراهيم في إشخاص سبعة نفر من العلماء إلى الرقة ، فأُشخِصُوا إليه ، فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن ، فأجابوا جميعا : إنه مخلوق . فأعادهم إلى بغداد ، وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم إلى داره وشهّر - بناءً على رغبة الخليفة - أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث، فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون، فخلّى سبيلهم [١٠] .
وبعد ذلك ورد على إسحاق بن إبراهيم كتاب آخر من الخليفة يشبه في ترتيبه ومحتوياته الكتاب الأول شبهًا كبيرًا ، وهذا نصّه :
(أما بعد ، فإن من حق الله على خلفائه في أرضه وأمنائه على عباده الذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وحمّلهم رعاية خلقه ، وإمضاء حكمه وسننه ، والائتمام بعدله في بَرِيَّتِهِ ، أن يجهدوا الله

---

[٩] تاريخ الطبري ١٠/٢٨٤-٢٨٦ .
[١٠] تاريخ الطبري ١٠/٢٨٦ .

أنفسهم ، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدلوا عليه تبارك اسمه وتعالى ، بفضل العلم الذي أودعهم والمعرفة التي جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ويردوا من أدبر عن أمـره ، وينجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ، ويقفوهم على حدود إيمانهم وسبيل فـوزهم وعصـمتهم ، ويكشفوا لهم عن مغطيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم بما يدفعون الريب عنهم ويعود بالضـياء والبينة على كافتهم ، وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم ، إذ كان جامعا لفنون مصانعهم ومنتظما لحظوظ عاجلتهم وآجلهم وما توفيق أمير المؤمنين إلاّ بالله وحده،وحسبه الله وكفى به.

ومما بينه أمير المؤمنين برويته ، وطالعه بفكره فتبين عظيم خطره وجليل ما يرجع في الدين مـن وكفه وضرره ، ما ينال المسلمون بينهم من القول في القرآن الذي جعل الله إماما لهم وأثرا من رسول الله ﷺ وصفيه محمد ﷺ باقيا لهم ، واشتباهه على كثير منهم ، حتى حسن عندهم وتزين في عقولهم ألا يكون مخلوقا ، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذي بان عن خلقه وتفرّد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته ، وإنشاء بقدرته ، والتقدم عليها بأوليته التي لا يبلغ أولاها ولا يدرك مداها . وكان كل شيء دونه من خلقه وحدث هو المحدث له ، وإن كان القرآن ناطقا به ودالا عليه وقاطعا للاختلاف فيه .

وضاهوا به قول النصارى في ادعائهم في عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق إذ كان كلمـة الله ، والله عزّ وجل يقول : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف/٣] . وتأويل ذلك : إنا خلقناه . كما قال ﷻ : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف/١٨٩] . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبأ/١٠، ١١] ، وقال :﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[الأنبياء/٣٠]فسوّى ﷻ بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في شية الصنعة . وأخبر أنه جاعله وحده فقال :﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾[البروج ٢١ ، ٢٢] . فدل ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يحاط إلا بمخلوق .

وقال لنبيه ﷺ : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [القيامة/١٦] ، وقال : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء/٢] .

وقال : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ [الأنعام/٢١] . وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم ، قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء . ثم أكذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ﴾ [الأنعام/٩١] .

فسمّى الله تعالى القرآن : قرآنا ، وذكرا ، وإيمانا ، وهدى ، ومباركا ، وعربيا ، وقصصا ، فقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ [يوسف/٣] ، وقال : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ [الإسراء/٨٨] ، وقال : ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود/١٣] ، وقال : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت/٤٢] . فجعل له أولا وآخرا ، ودلّ عليه أنه محدود مخلوق .

وقد عظّم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن الثلم في دينهم والحرج في أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام ، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده ، وشبهوه به والإشباه أولى بخلقه.

وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظًا في الدين ولا نصيبا من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يُحلّ أحدًا منهم محل الثقة في أمانه ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق في قول ولا حكاية ولا تولية لشيء من أمر الرعية ، وإن ظهر قصد بعضهم وعرف بالسداد مسدد فيهم ، فإن الفروع مردودة إلى أصولها ومحمولة في الحمد والذم عليها ، ومن كان جاهلا بأمر دينه الذي أمره الله به من وحدانيته ، فهو بما سواه أعظم جهلا وعن الرشد في غيره أعمى وأضل سبيلا .

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضي كتاب المؤمنين بما كتب به إليك ، وانصصهما على علمهما في القرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمـور المسلمين إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق .

فإن قالا بقول أمير المؤمنين في ذلك ، فتقدم إليهما في امتحان من يحضر مجالسهما بالشـهادات على الحقوق ونصّهم على قولهم في القرآن ، فمن لم يقل منهم إنه مخلوق ، أبطلا شهادته ، ولم يقطعا حكما بقوله ، وإن ثبت عفافه بالقصد والسداد في أمره .

وافعل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة ، وأشرف عليهم إشرافا يزيد الله به ذا البصـيرة في بصيرته ويمنع المرتاب من إغفال دينه ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك إن شاء الله) [١١] .

أخذ إسحاق بن إبراهيم عددا من الفقهاء بينهم أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ) إمام المحدثين في عصره ، وقرأ عليهم كتاب المأمون مرتين حتى فهموه ، وامتحنهم رجلا رجلا ، فكان كل واحد منهم يقول القرآن كلام الله ويمسك ، ما عدا ابن البكاء الأكبر فإنه قال : القرآن مجعول لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف/٣] ، والقرآن محدث لقوله عز وجل : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء/٢] . فقال له إسحاق : فالمجعول مخلـوق ؟ قال : نعم. قال : فالقرآن مخلوق ؟ قال : لا أقول مخلوق ، ولكنه مجعول [١٢] .

ولما فرغ من امتحانهم ، كتب مقالة كل رجل منهم ووجهها إلى المأمون ، فجاءه الجواب بعد تسعة أيام ، وفيه يعبرُ المأمون على أن القول بقِدَم القرآن هو الكفر الصراح والشرك المحـض ، ويأمره بإعادة امتحانهم ؛ فمن تاب منهم أشهر أمره وأمسك عنه ، ومن أصر علـى شـركه حملهم موثوقين إليه في الرقة مع من يقوم بحراستهم في طريقهم ، حتى ينصهم أمير المؤمنين بنفسه

---

[١١] تاريخ الطبري ٢٨٦/١٠ ، ٢٨٧ .

[١٢] تاريخ الطبري ٢٨٧/١٠-٢٨٩ .

، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف ، إلا بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي فإنه أمره في حال امتناعهما أن يضرب عنقيهما ويرسل إليه رأسيهما [١٣] .

أحضر إسحاق الفقهاء ثانية ، وتلا عليهم كتاب الخليفة ، فأجابوا بأن القرآن مخلوق ، ما خلا أربعة نفر ؛ هم : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، والقواريري ، وسَجَّادة .

فأمر بهم فشُدُّوا في الحديد ، فلما كان من الغد دعا بهم يساقون في الحديد ، فأعاد عليهم المحنة ، فأجابه القواريري إلى أن القرآن مخلوق ، فأطلق قيده وخلّى سبيله ، وأصر الآخرون على قولهم .

فعاودهم بعد الغد ، فأجاب سَجَّادة ، وأطلق سراحه ، وأصر الاثنان الباقيان على رأيهما ولم يرجعا .

فشُدَّا في الحديد ، ووُجِّهَا إلى طَرَسُوسَ ، فوصلاها بعد وفاة المأمون [١٤] ، فردا في أقيادهما إلى الرقة ، ومنها حملا على سفينة إلى بغداد ، فمات محمد بن نوح على الطريق ، ووصل الإمام أحمد بن حنبل دار السلام ، فوضع في الحبس [١٥] .

وقد ابْتُلِيَ بالمحنة في زمن المأمون كثيرون غير هؤلاء ؛ منهم : الحارث بن مسكين الضَّبِّي الذي حُمِل إلى بغداد وامْتُحِنَ وسُجِنَ ؛ لأنه لم يُجِب إلى القول بخلق القرآن ، فلم يزل محبوسا إلى أن أطلقه المتوكل [١٦] .

ومنهم : عبد الأعلى بن مِسْهَر الغساني شيخ دمشق وعالمها ، جاءوا به إلى الرقة، فسأله المأمون عن القرآن فقال : القرآن كلام . وأبى يقول مخلوقًا . فدعا المأمون بالسيف والنِّطْع ليضرب عنقه ، فلما أبصر ذلك قال : مخلوق . فتركه من القتل ، بيد أنه قال له : أما إنك لو قلت ذلك قبل أن أدعو بالسيف ، لقبلت منك ورددتك إلى بلادك ، ولكنك تخرج الآن فتقول : قلت ذلك

---

(١) تاريخ الطبري ١٠/٢٨٩-٢٩١ .

(٢) تاريخ الطبري ١٠/٢٩٢ .

(٣) مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ٣١٥-٣١٧ ، ودول الإسلام ١/١٠٢ .

(٤) المناقب ص ٤٠٠ .

فَرَقًا من القتل . أشخصوه إلى بغداد ، فاحبسوه بها حتى يموت . فأشخص إليها وسجن ، فلم يلبث إلا قليلا حتى مات سنة ٢١٨هـ [١٧] .

٣- تكليف ما لا يُطاق

في التوراة أنه يجب على اليهود أن يعملوا بها ، وفيها حكم واحد لا يقدر اليهود على أن يعملوا به ؛ وهو أنهم إذا جاءهم نبي مثل موسى عليه السلام يؤمنون به ويعملون بكلامه [تث ١٥:١٨ ٢٢] ، فحتى مجيء هذا النبي يكون الله مكلفا لهم بشريعة فيها حكم لا يُطاق العمل بـه ، ويطـاق العمل به في حالة ظهوره ، وإذا ظهر وسمعوا لكلامه ، يكون عملهم بالتوراة كاملا . ومن قبل ظهوره ، يكون عملهم بالتوراة ناقصا .

وفي هذا المعنى يقول الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة/٣] ، ويقول الله تعـالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة/٢٨٦] .

فلماذا كلّف الله بما لا يُطاق ؟

إنه لم يكلف بما لا يطاق ، وإنما نبه على ما يطاق .

٤- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لقولـه تعـالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[آل عمران/١٠٤]، ولقوله ﷺ : ((خير الناس أقرأهم وأتقـاهم لله وآمـرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر ، وأوصلهم للرحم)) [رواه أحمد والنسائي] .

وكل المسلمين متفقون على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بلاد المسـلمين وفي بلاد الكفار .

---

[١٧] المناقب ص ٤٠١ ، ودول الإسلام ١٠٣/١ .

والخلاف بين المعتزلة وأهل السنة هو في أمر واحد ؛ وهو إذا حكم على المسلمين حاكمٌ ، وخرج هذا الحاكم على الشريعة أيأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر أم لا ؟ من المؤكد أنهم يأمرونه ، وهذا محل اتفاق .

فإن أمروه وظل على خروجه على الشريعة ، والخروج عليها فسق ، فهل يقاتلونه أم لا ؟

هذا هو محل النزاع بين المعتزلة وأهل السنة ، فرأي المعتزلة : أنه يتعزل بالفسق رغم أنفه .

ومن أدلتهم من السنة : قول النبي ﷺ : ((**إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظَهْرَانِيهم ، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه ، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة**)) [رواه أحمد] .

ومن أدلتهم من القرآن : قول الله تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة/٧٩] ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [الحج/٤١] .

وهل يعزلونه بالفسق وهم قادرون على عزله ، أم وهم عاجزون عن عزله ؟

يقولون : يعزل بالحرب في حالة القدرة على ذلك ، فإذا لم تكن من قدرة ؛ فإن الأمر والنهي باللسان يكفي .

فما هو رأى أهل السنة في عزل الإمام الفاسق في حالة العجز ؟ إنه هو رأي المعتزلة .

وما هو رأى أهل السنة في حالة القدرة ؟ إنه هو رأي المعتزلة .

فما هو الفرق بين المذهبين ؟ ليس من فرق .

الفصل الثالث

أهم فرق المعتزلة

الفصل الثالث

أهم فِرَق المعتزلة

جميع فرق المعتزلة تبلغ ١٢ فرقة كما أنهاها الأستاذ محمد أبو زهرة في كتابه " أبي حنيفة " ، والشهرستاني في " الملل والنحل " ، وأنهاها الإسفراييني إلى ٢٠ فرقة.

وإليك أهم هذه الفرق ، وأهم معتقداتها :

١- الواصلية

أتباع واصل بن عطاء الغزال تلميذ الحسن البصري ، وأول من لقب بهذا اللقب على أشهر الروايات .

كان مولده بالمدينة سنة ٨٠هـ ، وقد نشأ في أحضان مواليه الهاشميين . ويظهر مما رواه المؤرخون أنه كان واسع العلم ، قوي الحجة ، محيطًا بمذاهب العصر الذي عاش فيه ، وكان مع ذلك لا يتكلم إلا بمقدار الحاجة ، حتى أُتهم بالخَرَس من طول صمته ، كما اتهمه أخصامه بالكفر والزندقة ، وبقيت صلاته طيبة بأستاذه الحسن البصري إلى أن خالفه في حكم مرتكب الكبيرة ، فانقطع بينهما حبل المودة .

وبعد حوار طويل بينه وبين رفيقه عمرو بن عبيد ، اعتنق عمرو بن عبيد مذهبه، وقال : (ما بيني وبين الحق من عداوة) .

وشاع في عصره النزاع في مسألة الجبر والاختيار ، فذهب إلى القول بأن الإنسان هو الذي يصنع أفعاله مختارًا بدون أن يكون لله رأي في ذلك . فقال الناس فيه : (إنه مع كفره قدري) . وشاع في عصره مقولة : (كل كافر قدري) .

وقد أخذ القول بالقدر عن معبد الجهني وغيلان الدمشقي كما يرى ذلك بعض المؤلفين في الفرق والمعتقدات .

على أن واصلاً قد تفرد عن غيره من شيوخ المعتزلة بأمور ؛ منها :

أنه أحدث قولاً ثالثًا بالنسبة للفريقين المتخاصمين في الفترة الأولى من تاريخ الإسلام فقال : (إن أحدهما لا بعينه فاسق لا تقبل شهادته في شيء ، حتى ولو كان الشاهد عليًا وبنيه) .

وجاء عنه أنه قال : لو شهدوا بأجمعهم على باقة بقل ، لم أقبل شهادتهم .

ولعل الذين ألصقوا في أفكار الخوارج قد اعتمدوا على هذه المقالة وأمثالها من آرائه التي تبدو وكأنها أقرب إلى آرائهم منها إلى سائر الفرق الإسلامية ، وإن لم يلتقِ معهم التقاء كليًا في أكثر آرائه ومعتقداته ؛ لأن المسلمين الذين لم يوالوا عليًا كانوا على قولين في النزاع الذي حدث بينه وبين طلحة والزبير ومعاوية ؛ فالخوارج حكموا عليه بالكفر؛ لأنه حَكَّم الرجال في دين الله – على حد زعمهم–، وبقية المسلمين بين من يقول : إن جميع أفعاله تفرضها المصلحة وتمليها مصلحة الإسلام العليا ، وبين من يقول : إنه مجتهد في الدين ، والمجتهد معذور في كل أفعاله، حتى ولو كان مخطئًا .

أما التكفير والتفسيق ، فلم يذهب إليه إلا الخوارج والواصلية .

٢– العَمْرِية

اتباع عمرو بن عبيد ، وكما ذكرنا فقد كان قوي الجدل بارعًا فيه ؛ لأن العصر الذي وجد فيه عصر جدل ونقاش وانتصار لرأي وإبطال لآخر .

وقد تتلمذ عمرو على الحسن البصري هو وواصل بن عطاء ، ولازمه زمنًا طويلًا ، ولما انفرد واصل عن أستاذه ، واستقل في زاوية من زوايا المسجد مع جماعة كانوا يرون رأيه ، انضم إليه عمرو بن عبيد بعد محاورة جرت بينهما بالنسبة لمرتكب الكبيرة ، وقال : (ما بيني وبين الحق عداوة) .

واتفق هو وواصل على أصول الاعتزال الخمسة . ويحكى عنه أنه كان متصلبًا في اعتناق مذهب القدرية ، فقد ادعى أن لا سيطرة على الإنسان في أفعاله ، والإنسان وحده مستقل هو الذي يصنع ويفعل ، وخالف زميله في الحكم على علي وطلحة والزبير ومعاوية ﷺ ، وذهب إلى أن كل واحد منهم فاسق بعينه ظالم للآخر ، بينما كان واصل بن عطاء يدعي أن أحد الفريقين لا بعينه ظالم للآخر ، والحق في جانب أحدهما ، ولكنهما قد اتفقا على تفسيق معاوية ومن معه .

وينسب إليه أنه قال : إن الآية : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد/١] . ليست هكذا في اللوح المحفوظ .

لهذا ولأنه كان مغاليًا في القدر على مذهب معبد الجهني وغيلان الدمشقي لم يكن موثوقًا عند المحدثين ، ومتهمًا بوضع الحديث على رسول الله ﷺ .

وتؤكد المصادر التاريخية أنه لم يقبل صلة من المنصور العباسي ، ولا باشر له عملاً ، مع أنه ألح عليه بذلك ، وأهدى إليه الأموال والنفائس . وله مع ذلك مع المنصور مجالس كان يعظه بها ، ويوجه إليه الانتقادات اللاذعة .

وجاء عنه أنه مر على سارق قد أمر الحاكم بقطع يده ، فقال : لا اله الا الله ، سارق السر يقطعه سارق العلانية .

ومجمل القول : أن عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء كانا على اتفاق في أكثر المبادئ التي دعا إليها واصل ، ولم يختلفا إلا في تصلب عمرو في الحكم على علي وطلحة والزبير ، وفي مغالاته في مذهب القدرية الراجع إلى التفويض المطلق .

٣- الهذيلية

أتباع محمد بن الهذيل المعروف بـ : العَلاَّف المولود في البصرة سنة ١٣٥هـ ، ولم يرتحل عنها قبل سنة ٢٠٤هـ بعد أن استدعاه المأمون لبغداد .

وسمي بـ : العلاف ؛ لأن داره في البصرة في محلة العلافين .

وفي وسط فكري متضارب بشتى النزعات والأهواء والآراء المتباينة نشأ أبو الهذيل أحد أعلام الطبقة الثانية من طبقات المعتزلة ، واستمع إلى علماء عصره ، وعرف ما بينهم من خلافات في مختلف النواحي والجهات ، ووقف على آرائهم في مختلف المسائل ، حتى أصبح من البارعين في مختلف العلوم ، واختاره المأمون رئيسًا لمجلس مناظراته .

وحكى عنه ابن خلكان أن صالح بن عبد القدوس مات وله ولد ، فحزن عليه واشتد جزعه ، فقال له أبو الهذيل : لا أعرف لجزعك وجهًا ! إذا كان الإنسان عندك كالزرع . فقال له صالح : إني لأجزع عليه ؛ لأني قد ألفت كتابًا اسمه كتاب الشكوك ولم يقرأه ، وهو كتاب

يشك كل من قرأه فيما كان حق يتوهم أنه لم يكن وفيما لم يكن حق يتوهم أنه قد كـــان .

فقال أبو الهذيل : (فشك أنت في موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت وإن كان قد مـــات ، وشك في قراءته لكتاب الشكوك وإن كان لم يقرأه) .

ومما اختص به من بين شيوخ المعتزلة أنه كان يذهب إلى أن مقدورات الله سبحانه لا بـــد وأن تنتهي بحيث يصبح عاجزًا عن كل شيء ، وعندها لم يستطع أن يزيد في نعيم أهل الجنة ولا في عذاب أهل النار ، وينقطع عذاب أهل النار ، ولم يبق لأهل الجنة قدرة على أن يتنعموا بنعـيم الجنة .

وذهب إلى أن أهل الآخرة مضطرون إلى ما يكون منهم ، وأهل النار يتكلمـــون بـــدون إرادة واختيار ، وليس لأحد في الآخرة قدرة على اكتساب فعل أو قول ، وليس في الأرض دهـــري ولا زنديق إلا وهو مطيع لله في أشياء كثيرة ، وإن عصاه من جهة كفره .

واستدل على ذلك بأن كل أمر من أوامر الله سبحانه في مقابله نهي ، فلو كان من لا يعرفه قد فعل جميع أوامره ، وجب أن يكون تاركًا لجميع زواجره ، وأن يكون قد ترك الطاعات فعلًـــا لجميع المعاصي .

وكان قد ذهب إلى أن الله سبحانه لا يقدر أن يعطي عباده القدرة على الإحياء والإماتة وغيرهما من الأعراض التي لا يعرفون كيفيتها ؛ كالألوان والطعوم وأمثال ذلك .

واستدل على ذلك بأن ذلك يؤدي إلى عبث الإنسان في الأرض ؛ لأن الإنسان إذا قدر علـــى الإحياء والإماتة كان إلهًا ، وشريك الباري محال ، وقدرة الله كما أنها لا تتعلـــق بالمحـــال ، لا تتعلق بما يؤدي إلى المحال .

ومن آرائه : أن الله لا يقدر على ما أقدر عليه عباده ، ولا يوصف بالقدرة على الصلاة والصيام وغيرهما من موضوعات التكاليف ؛ لأنها أعمال جسمية ، وهو منزهٌ عن كل ما هو من لـــوازم الجسم .

وقد نسب إليه الراوندي في كتابه " فضائح المعتزلة " آراء أخرى ، وقد أوردها كُتّاب الفِرَق في مؤلفاتهم .

ويدعي الشهرستاني أنه انفرد عن أستاذه واصل بن عطاء بعشر قواعد . وعد منها هو وغيره ما ذكرناه .

وقد برأه ابن الخياط المعتزلي في كتابه " الانتصار " من جميع هذه المقالات المنسوبة إليه .

٤- النظّامية

اتباع إبراهيم بن سيار النظام المتوفى سنة ٢٢١هـ وله من العمر ٣٥ سنة كما جاء في ترجمته . وكان من مشاهير العلماء البارعين في علم الكلام والفلسفة بقسميهما ، وقد حفظ القرآن والإنجيل والتوراة ، بالإضافة إلى ما كان يحفظه من أشعار العرب وتاريخ الأمم وفتاوى الفقهاء المتقدمين عليه والمعاصرين له .

واختلفت آراء الكتاب والمؤرخين فيه وتناقضت ؛ فبينما نرى جماعة يصفونه بالكفر والالحاد ويذهبون إلى أنه مات وهو سكران وآخر ما تكلم به :

اشرب على طرب وقل لمهدد　　　هون عليك يكون ما هو كائن

وينسبون إليه أنه كان ينشد :

ما زلت آخذ روح الزق في لطف　　　واستبيح دمًا من غير مجروح

حتى انثنيت ولي روحان في جسدي　　　والزق مطرح جسم بلا روح

بينما نرى جماعة يصفونه بهذه الصفات وبأقبح منها ، نرى آخرين يصفونه بالإيمان والاستقامة في دينه والدفاع عن الدين ورد كيد الملاحدة .

ومهما كان فقد نسب إليه أنه كان يقول : إن القرآن لا إعجاز في نظمه . وينكر جميع المعجزات التي رواها المحدثون عن الرسول ﷺ .

وكان يتأول صفات الله سبحانه تأويلاً سلبيًا ، فعِلْم الله عنده معناه نفي الجهل عنه ، وقدرته هي علم عجزه ، وهكذا الحال في بقية الصفات .

وله آراء أخرى خالف فيها أسلافه المعتزلة ، كانت من جملة المآخذ عليه عند متأخري المعتزلة ، حتى ألف بعضهم كتابًا في تكفيره .

رفي كتاب التبصير في الدين : أنه كان يصاحب ملاحدة الفلاسفة ، وعنهم أخذ القـول بـأن أجزاء الجزء لا تتناهى . ولزمه على هذا القول قدم العالم ، كما نسب إليه أنه يذهب إلى أن الله سبحانه خلق الناس والحيوان وجميع الكائنات على اختلاف أنواعها في وقت واحد ، ولم يتقدم خلق آدم على خلق ولده ، ولا خلق الأمهات خلق أولادهن ، والتقدم والتأخر إنمـا هـو في ظهورها من أماكنها دون خلقها واختراعها .

ومحال عنده أن يزيد في الخلق شيئًا ، أو ينقص منه شيئًا .

ويدعي النظام : أن القرآن غير القراءة المتعارفة ، فهو لا يوجد في مكانين ، ولا يزال في المكان الذي خلق فيه .

٥- الأسوارية

اتباع علي الأسواري من تلامذة أبي الهذيل والنظام ، ولذا فانه يتبنى آراءهما .

وأضاف إليها : أن الأشياء التي يعلم الله بعدم وجودها ليست مقدورة لـه ، وهـي مقدورة للإنسان ؛ لان قدرة الإنسان تتعلق بالوجود والعدم ، فإذا اتصف بالقدرة على أحدهما ، لا بد وأن يتصف بالقدرة على الطرف الآخر .

٦- المعمرية

اتباع معمر بن عباد ، وقد تفرد عن شيوخ المعتزلة بأمور ؛ منها :

- أن الإنسان ليس الصورة التي نشاهدها ، وإنما هو شيء في هذه الصورة ، عالم قادر، مختار، يدبر بلا حركة ولا سكون ، ولا تدركه الحواس .

- ولم يخلق غير الأجسام ، أما الأعراض فهي من مخترعات الأجسام تقتضيها طبيعتـها كمـا تقتضي النار الإحراق .

- والله سبحانه لا يوصف بالقدم ، لأن وصفه بالقدم يدل على التقادم الزماني، وهـو لـيس زماني ، كما وأنه لا يعلم نفسه ، وإلا اتحد العالم والمعلوم .

٧- الجعفرية

أتباع جعفر بن بشير المتوفى سنة ٢٣٤هـ ، وجعفر بن حرب المتوفى سنة ٢٣٦هـ .

وقد ذهبا إلى أن الله لا يقدر على ظلم الأطفال والمجانين ، ولا يوصف بأنه متكلم .

وأضافوا إلى ذلك أن فساق المسلمين أشر من اليهود والمجوس .

وأن الإجماع الذي تم بين المسلمين على حد شارب الخمر ، ليس حجة شرعية؛ لعدم ورود النص بذلك .

٨- الإسكافية

اتباع محمد بن عبد الله الإسكاف .

وقد وافق الجعفرية فيما ذهبوا إليه .

٩- البِشْرِيَّة

اتباع بِشر بن المعتمر .

وقد ذهب إلى أن الإنسان يخلق اللون والطعم والرائحة والسمع والبصر على سبيل التولد ، وأن الله قادر على تعذيب الأطفال ، ولو عذبهم كان ظالمًا لهم . وحيث لا يستحسن منه ذلك ، يجب أن نقول : لو عذبهم ، كانوا بالغين عاقلين مستحقين العذاب والعقاب ، وأن الله إذا غفر ذنب عبد من عباده ، ثم ارتكب العبد ذنبًا استحق العقاب على الذنب الأول .

١٠- المزدارية

اتباع أبي موسى عيسى بن صبيح المزدار ، من أعاظم معتزلة بغداد وزهادهم ، وقد سمي : راهب المعتزلة .

وقد ذهب إلى أن الله يقدر على الظلم والكذب ، ولو فعل كان إلهًا ظالمًا كاذبًا.

وأن الناس قادرون على الإتيان بمثل القرآن وأحسن منه نظمًا .

وكفر من عاشر السلطان ، ومن قال : بخلق الافعال .

وحكم بعدم التوارث بينه وبين أقربائه .

١١- الهشامية

اتباع هشام بن عمر الفوطي ، من معتزلة القرن الثاني المعاصرين للمأمون العباسي .

وكان لا يجيز لأحد من المسلمين أن يقول : (حسبنا الله ونعم الوكيل) . بالرغم من وجود الآيات التي تنص على ذلك ، كما في الآية ١٧٣ من سورة آل عمران ، والآية ٩ من سورة المزمل ، مدعيًا عدم جواز إطلاق الوكيل عليه تعالى .

وذهب أيضًا إلى أن الله سبحانه لم يؤلف بين قلوب المؤمنين ، ولم يضل الكافرين .

وأن الجنة والنار ليستا بمخلوقتين ، وأن من قال بأنهما مخلوقتان كافر ؛ لعدم الفائدة من خلقهما قبل الحشر ، إلى غير ذلك من الآراء الشاذة .

١٢- الحابطية

أتباع أحمد بن حابط ، وهو من تلامذة النظام .

وقد نسب إليه الشهرستاني القول بالتناسخ ، وادّعى مؤلف المواقف أن القائلين بالتناسخ من المعتزلة هم الحدثية اتباع الفضل بن الحدثي أحد تلامذة النظام ، ونسب إلى الحابطية القول بأن للعالم إلهين : أحدهما قديم وهو الله ، والثاني محدث وهو السيد المسيح . واستدلوا على ذلك بالآية : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر/٢٢] .

وأضاف في المواقف أنهم يذهبون إلى أن الله أبدع الحيوانات عقلاء بالغين في غير هذه الدار ، وخلق فيهم معرفته ، وأسبغ عليهم نعمته ، ثم ابتلاهم وكلفهم شكر نعمته ، فمن عصاه في الجميع أخرجه إلى دار العذاب وهي النار ، ومن أطاعه في البعض دون البعض أخرجه إلى هذه الدنيا ، وكساه هذا الجسد بأشكاله المختلفة ، ولا يزال الحيوان في هذه الدنيا في صورة بعد صورة ما دامت معه ذنوبه.

١٣- الثمامية

أتباع ثمامة بن الأشرس النميري .

وقد ذهب إلى أن اليهود والنصارى والمجوس والزنادقة يصبحون في الآخرة ترابًا لا يدخلون الجنة ولا النار ، وكذا البهائم والأطفال .

وأضاف إلى ذلك : أن من لا يعلم خالقه من الكفار معذور ، وأن الأفعال المتولدة لا فاعل لها ؛ لعدم إمكان اسنادها إلى فاعلي السبب ؛ لاستلزام ذلك إسناد الفعل إلى الميت ، كما إذا رمى

إنسان سهمًا ، ومات قبل وصوله للغرض ، فيلزم من إسناده إلى الرامي إسناد الفعل إلى الميت ، وإسناده إلى الله لا يصح ؛ للزوم صدور القبيح منه .

ويبدو من الآراء التي نسبها المؤلفون في المذاهب إليه أنه كان متأثرًا بتعاليم ملاحدة الفلاسفة ومستهترًا في دينه ؛ فقد روى عنه ابن قتيبة في كتابه " مختلف الحديث " : أنه رأى يومًا جماعة يتسابقون إلى صلاة الجمعة ، فأقبل على عبد كان معه ، وقال له : انظر إلى هؤلاء الحمير ما فعل فيهم هذا العربي !

وروى عنه الجاحظ أن المأمون قد رآه سكران يتمرغ في الوحل ، فقال له : أنت ثمامة ؟ فقال : إي والله . فقال له : ألا تستحي ؟ قال : لا والله . فقال له : عليه لعنة الله . فأجابه : تَتْرَى ثم تترى .

١٤- الخياطية

أتباع عبد الرحيم بن محمد المعروف بأبي الحسين الخياط المتوفى سنة ٢٩٠هـ ، من تلامذة جعفر بن مبشر .

وهو من القائلين بالقدر ؛ بمعنى : أن الإنسان خالق لأفعاله .

وأن المعدوم جسم يتصف بالأعراض حالة العدم ، ولازم هذا القول أن تكون الأجسام قديمة ، وذلك يؤدي إلى تعدد القدم .

وله آراء اخرى يخالف بها من تقدمه من المعتزلة .

١٥- الجاحظية

أتباع عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٦هـ ، عاصر المعتصم العباسي ، والمتوكل .

وله مؤلفات كثيرة ؛ من جملتها : طبائع الحيوان ، يدعي فيه أن المعارف كلها من لوازم الطبيعة ، ومن عرف شيئًا عرفه بطبعه لا بتعليم ، ولم يخلق الله له علمًا به.

وقد ذهب إلى أن الله لا يدخل العصاة النار ، بل هي تجذبهم إليها .

وأن القرآن جسد ينقلب تارة رجلاً وأخرى امرأةً .

وله شهرة واسعة في العلم والأدب والفلسفة ، ومؤلفاته الكثيرة في مختلف المواضيع أكبر شاهد على سعة علمه وتبحره في مختلف العلوم .

١٦- الجبائية

أتباع محمد بن عبد الوهاب الجبائي المتوفى سنة ٣٠٣هـ ، وهو الزعيم الأول للطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة .

وقد عرف بالذكاء منذ كان صغيرًا ، واشتهر بالذكاء وقوة الإقناع عندما اكتملت رجولته ، ونبغ في علم الكلام حتى بلغ ما أملاه على تلامذته مائة وخمسين ألف ورقة .

ومن أشهرهم وأكثرهم اتصالاً به علي بن إسماعيل الأشعري ، فقد لازمه أربعين سنة ، وتفهم آراء المعتزلة وعقائدهم وأصبح من أعلامهم المتبحرين ، وبعد أن لمع وانتشر صيته ، انفصل عنهم وتراجع عن مذهب الاعتزال ، وألف في الرد عليهم ، وذلك عندما اتسعت آفاقه ، ولم يعد باستطاعة أستاذه أن يدفع الشبه التي كان يوردها عليه .

وقد ذكروا في ترجمته بعض المناظرات التي كانت تجري بينهما وأدت إلى انفراد الأشعري عنه .

وكان من جملتها أن رجلاً دخل على الجبائي ، وقال له : هل يجوز أن يسمَّى الله عاقلاً ؟ فقال الجبائي : لا ؛ لأن العقل مشتق من العقال ؛ وهو المانع ، والمنع في حقه سبحانه محال .

فقال له أبو الحسن الأشعري : فعلى قياسك ، لا يسمى الله حكيمًا ؛ لأن هذا الاسم مشتق من حكمة اللجام ؛ وهي الحديدة المانعة للدابة عن الخروج . فاذا كان اللفظ مشتقًا من المنع ، والمنع على الله محال ، لزمك أن تمنع إطلاق اسم حكيم عليه سبحانه وتعالى.

فقال له الجبائي : لم منعت أنتَ أن يسمى الله سبحانه عاقلاً ، وأجزت أن يسمَّى حكيمًا ؟

فقال الأشعري : لأن طريقي في مأخذ أسماء الله الإذن الشرعي دون القياس اللغوي ، فأطلقت عليه حكيمًا متابعة للشرع ، ولم أطلق عليه عاقلاً لأن الشرع قد منع من ذلك .

ويؤكد كتاب الفرق أن الاختلاف الذي كان يقع بين التلميذ وأستاذه في تلك المناظرات هو الذي أدى إلى انفراد التلميذ عن أستاذه ، بعد أن كان يؤمن بأقوال المعتزلة وآرائهم أشد الإيمان ، ويدافع عنها بإخلاص وتجرد .

ولكن المتتبع لتاريخ كبار المعتزلة الذين ترأسوا فكرة الاعتزال منذ أن ظهر واصل بن عطاء الزعيم الأول ، حتى جاء الجبائي في القرن الثالث ، يجد بينهم اختلافًا كبيرًا في أكثر المسائل الكلامية والفلسفية .

وقد جاء عن الجبائي نفسه أنه قال : (ليس بيني وبين أبي الهذيل العلاف خلاف إلا في أربعين مسألة) .

فمجرد الاختلاف في الرأي في بعض المسائل التي كان يجري بين الأستاذ وتلميذه لا يؤدي إلى محاربة الاعتزال بالشكل الذي انتهى إليه بين الأشاعرة والمعتزلة .

هذا بالإضافة إلى أن المعتزلة أنفسهم يقررون أن الخلاف مهما بلغ واشتد لا يوجب الخروج عن الاعتزال ، ما دامت أركان الاعتزال الخمسة محفوظة بين الطرفين .

لذلك فليس من المستبعد أن يكون الأشعري منذ بدأ دراسة الاعتزال ، واتصل بشيوخ المعتزلة حتى المرحلة الأخيرة ، لم يكن يؤمن بنظرياتهم ولا بمناهجهم التي سلكوها في مقام البحث والاستدلال ، وإنما اتصل بهم وتعمق في دراسة آرائهم ومناهجهم التي سلكوها في مقام البحث والاستدلال والمناظرة ؛ لغرض الرد عليها والانتصار للمحدثين الذين كانوا هدفًا لنقمة المعتزلة وأعوانهم .

نعم الشيء الذي لا يمكن تجاهله أن الأشعري قد تأثرت بأسلوبهم في مقام البحث والاستدلال ، فكان أسلوبه مزيجًا من العقل والحديث ، فلم يعتمد على العقل وحده ولا على الحديث وحده .

ومهما كان الحال ، فقد تفرد في بعض النظريات عن شيوخ المعتزلة ، وخالفهم في بعض أقوالهم في الصفات وغيرها كما يدعي كتاب الفرق والمذاهب .

وجاء ولده من بعده أبو هاشم عبد السلام بن محمد الجبائي ، فاختص ببعض الآراء والنظريات ، وخالف والده في ٢٩ مسألة ، كما جاء في التعليقة على التبصير في الدين للشيخ محمد زاهد الكوثري .

ومن آرائه : أن من تاب عن ذنب مع إصراره على ذنب آخر ، لم تقبل توبته ، حتى أن يهوديًا لو تاب عن كفره ، ولكنه منع حبة مثلاً عن مستحق ، لم تصح توبته من اليهودية .

وأن التوبة عن الذنب بعد العجز عنه لا تقبل .

فمن كذب ، ثم قطع لسانه ، وتاب بعد ذلك ، لا تقبل توبته .

وينسب إليه أبو مظفر في التبصير : أن الوقوف بعرفة والسعي والطواف ليس واجبًا .

وأنه كان يكفر المعتزلة ويكفرونه ، ويتبرأ من أبيه ، إلى غير ذلك من الآراء المنسوبة إليه .

وإليه ينسب القول بالأحوال . والتزم بذلك في مقابل المعتزلة المنكرين لصفات الله الذاتية ؛ محتجين لذلك بأن الالتزام بوجود صفات غير الذات يؤدي إلى تعدد القدم . فجاء أبو هاشم الجبائي وسماها " أحوالاً " لا معدومة ولا موجودة ، ولا معلومة ولا مجهولة ، لا تعرف إلا مع الذات ، ولا تدرك إلا معها ، ولا تتحقق إلا بتحققها ، فليس لها وجود خارجي كوجود الذات ، وليست معدومة ؛ لأن الله سبحانه أثبتها لنفسه ، فمعنى أنها لا موجودة ولا معدومة هي أنها ثابتة .

الفصل الرابع

آراء المعتزلة

الفصل الرابع

آراء المعتزلة في بعض المسائل الاعتقادية

الحساب يوم القيامة

مذهب المعتزلة في حساب الله للناس في يوم القيامة هو : أنه لا بد من الحساب؛ وذلك لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء/١٢٣] وشبهه .

ويقول أهل السنة : إن الله تعالى يحاسب من يشاء ، ولا يحاسب من يشاء ، ويدخل النار من يشاء ، وأن من يقول : لا إله إلا الله ، يدخل الجنة ، ولو لم يعمل عملا صالحا . ولو عمل عملا صالحا ، فإن العمل يُرَقّي المرء درجات في الجنة ، أي أن العمل شرط كمال في الإسلام ، وليس شرط صحة في الإسلام .

ويقول المعتزلة : إن الله يضع الموازين ، وبحسب استحقاق المرء يأخذ الجزاء ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ [الأنبياء/٤٧] .

واستدل المعتزلة على مذهبهم بأدلة منها الآية السابقة .

ومن أدلتهم من السنة :

ما رواه الإمام أحمد عن عروة عن عائشة: أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه ، فقال : يا رسول الله ، إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني ، وأضربهم وأشتمهم ، فكيف أنا منهم ؟ فقال لهم رسول الله ﷺ :((**يُحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقْتُصَّ لهم منك الفضل الذي بقي قِبلك**)) . فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف ، فقال رسول الله : ((ما له لا يقرأ كتاب الله : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ

﴿ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (١٨) [الأنبياء/٤٧] ؟))

فقال الرجل : يا رسول الله ، ما أجد شيئا خيرا من فراق هؤلاء - يعني : عبيده - ؛ إني أشهدك أنهم أحرار كلهم .

صفات الله

يصرح المعتزلة بأن الله هو الخالق للعالم وحده ، وأنه ليس جسما ؛ لقوله : ﴿ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص/١] ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى/١١] .

ويؤولون يد الله بقدرته ، ومن بعد إثبات القدرة يقولون : والله خاطبنا على قدر عقولنا عن نفسه ؛ لنقدر على تصور ذاته .

وهم قد أخذوا هذا من الحديث النبوي ؛ فعن علي كرم الله وجهه عن رسول الله ﷺ : ((حدثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟!)) [رواه البخاري] ، وقال ابن مسعود : (ما من رجل يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم ، إلا كان فتنة لبعضهم) .

ولا يؤول المعتزلة النسيان في قوله : ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة/٦٧] بالإهمال فقط ، بل به مع التصريح بأن الله يكلم الناس عن نفسه بلسان بني آدم على طريق مشاكلة فكره لفكرهم ، ولا يؤولونه بالإهمال وحده ؛ لأن الإهمال يستلزم جسما ، وهم يصرحون بنفي الجسم .

---

(١) لاحظ أنه ﷺ احتج بالقرآن في قوله ﷺ : ((ما له لا يقرأ ... إلخ)) .

قضاء الله وقدره

يقولون : إن الله قد خلق الإنسان حرا ؛ بدليل : أنه يأمره بالتوبة في حال العصيان ، وأمره بالتوبة يدل على أن الإنسان مخير لا مسير .

ويفسرون قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ [الحديد/٢٢] : بأن ذلك من الأعاصير والزوابع والبراكين وما شابه ذلك مما لا دخل للإنسان فيه .

ويقول بعض العلماء : إن الإنسان مسير في اسمه وصفاته ولغته ، مما لا دخل فيه.

وقولهم مردود بأن القوي الذي يحتفظ بصحته ولا يضيعها في العربدة والسكر ينجب أقوياء ، والضعيف ينجب ضعفاء ، وأن العلم الحديث له دخل في تكوين الأجنة ، وذلك كله من صنع الناس وباختيارهم .

ومن الأحاديث التي استدل بها المعتزلة على مذهبهم : قول النبي ﷺ : ((**والذي نفسي بيده ، لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم**)) [رواه الترمذي وابن ماجه] . قالوا : فكيف يعمهم بعذاب إن قصروا ، إذا كان قد قدر عليهم في الأزل ألا يأمروا وألا ينهوا ؟

حكم مرتكب الكبيرة

ويقول المعتزلة : إن مرتكب الكبيرة في حال ارتكابه لها ، هو كافر . ومن بعد ارتكابه لها ، إذا نوى على تكرارها فإنه يكون فاسقًا .

وفي الأحاديث : ((**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**)) . وفي الأحاديث : يقول رسول الله ﷺ : ((**ثلاث من فعلهن فقد أجرم : من عقد لواء في غير حق، أو عقّ والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾**)) [رواه ابن أبي حاتم] .

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ﴾ [السجدة/١٨] .

يقول : (يخبر تعالى عن عدله وكرمه ؛ أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمنا بآياته متبعا لرسله ، بمن كان فاسقا ؛ أي : خارجا عن طاعة ربه مكذبا لرسل الله إليه) .

ويقول المعتزلة : إن الله تعالى سيعاقب المرء على ذنوبه بوضع الميزان إذا مات على غير توبة ؛ فإن مات على توبة ؛ فإنه لن يعاقبه ؛ لأن ذنوبه قد مُحِيَت بالتوبة، ولا بد من عقابه ، كما لا بد من إثابة الطائع .

ويستدلون على ذلك بقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام/٥٤] .

أي أنه هو الذي ألزم نفسه بذلك الحكم ، ووعده لا يتخلف . ومثله وعيده ؛ لقوله : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة/٢٢] .

نبل في الأحاديث ما يدل على ذلك ؟

قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : ((**أتدري ما حق الله على العباد ؟ أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا**)) . ثم قال : ((**أتدري ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟ ألا يعذبهم**)) [رواه أحمد] .

الصلاح والأصلح

يقول المعتزلة : إنه إذا كان في العالم أمران أحدهما صلاح والآخر أصلح ، فإنه يجب على الله فعل الأصلح .

ويقول أهل السنة : إن الله لا يجب عليه شيء .

والحقيقة أنه لا أحد من المسلمين يوجب على الله من شيء ، ليس ولا واحد ؛ لأنهم يقرءون في القرآن : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج/١٦] .

والمعتزلة يقولون بالوجوب على الله ؛ لأن الله - كما يقولون - هو الذي أوجبه على نفسه ، وهم يحكون عن الله كلامه .

فقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام/٥٤] . يقولون : معناه : ألزم نفسه بها ، لا أن الناس هم الذين ألزموه بالرحمة .

وقد أخبر الله ﷻ عن نفسه أنه صنع كل شيء بإتقان ، والإتقان هو الكمال ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل/٨٨] ، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون/١٤] .

يقولون : وهل يليق بأحسن الخالقين أن يصنع الصلاح ولا يصنع الأصلح ؟ وقال تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [السجدة/٧] .

وفي اللغة : صلاح وأصلح حسن وأحسن ، فماذا يقول؟ إنه يقول :﴿ أَحْسَنَ ﴾ .

عذاب القبر

من المعتزلة من ينكر عذاب القبر ونعيمه ، والمنكرون له من المعتزلة يستدلون على الإنكار بآيات من القرآن ، وبمأثورات من السنة .

أما من القرآن :

فقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران/١٨٥] . قالوا : لم يقل : يوم القبر .

وأما من السنة :

فقد روى أحمد عن عائشة رضى الله عنها أن يهودية كانت تخدمها ؛ فلا تصنع عائشة رضى الله عنها إليها شيئا من المعروف ، إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر . قالت عائشة : فدخل رسول الله عليَّ ، فقلت : يا رسول الله ، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة ؟ فقال ﷺ : ((لا ، من زعم ذلك ؟)) قالت : هذه اليهودية لا أصنع إليها شيئا من المعروف إلا قالت :

وقاك الله عذاب القبر . قال ﷺ : ((كذبت يهود ، وهم على الله كُذُب ، لا عذاب دون يوم القيامة)) .

وأهل السنة يستدلون على عذاب القبر بما يلي :

١- بقوله تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر/٤٦] .

رد عليهم المعتزلة بقولهم :

أولا : إن كلمة ﴿ النَّارُ ﴾ كلمة متشابهة تحتمل معنيين :

أ) النار الحقيقية ذات اللهب والدخان .

ب) والنار على المجاز كناية عن الآلام والمصائب التي تلحق بآل فرعون دائما من الطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم وغير ذلك .

والمتفق مع المحكم وهو ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ ﴾ [آل عمران/١٨٥] هو المعنى المجازي .

ثانيا : إن سورة غافر مكية ، وكلام اليهودية كان في المدينة ، وعائشة عربية والنبي ﷺ عربي ؛ فلو كانت آية آل فرعون تدل على عذاب القبر ، لكانت عائشة تفهم هذه الدلالة ، ولكان النبي ﷺ يفهمها . وإذ هما قد صرحا معا بعدم الدلالة ؛ تكون آية آل فرعون ليست نصًا في الإثبات ، ويتعين على المثبتين إيراد دليل غير آية آل فرعون .

٢- ويستدل أهل السنة على الإثبات بحديث فيه أن عائشة قالت : ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك : ((وإنه أوحي إليَّ : أنكم تفتنون في قبوركم)) [رواه البخاري والنسائي وأحمد] .

رد عليهم المعتزلة بقولهم :

إن قوله ﷺ ((أوحي إليَّ)) يدل على وحي قرآني قد نزل على النبي ﷺ في الإثبات ، وعلى هذه الدلالة لا تكون آية آل فرعون هي الدالة على الإثبات ، وإنما يكون الدال على الإثبات هو

الذي أُوحي إليه في قوله ﷺ ((أوحي إليَّ)) ، فأين هو الذي أوحي إليه في الإثبات ؟ إنه يلزم أحد أمرين : إما أن القرآن ناقص ، وإما أن الحديث كاذب.

غفران الذنوب

ومن آراء المعتزلة أن اجتناب الكبائر سبب لغفران الصغائر ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [النساء/٣١] .

وقال أهل السنة : إن الحسنات هي التي تكون سببا لغفران الصغائر ؛ لقوله :﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ .

ورد المعتزلة بقولهم : إن الحسنة تذهب السيئة ، فهل السيئة سيئة كبيرة أم صغيرة ؟ فإذا عمل الإنسان حسنة هي صدقة ، فهل الصدقة تذهب ذنوب الزنى ؟ إن الزنى كبيرة وله مقدمات ؛ منها : النظر وتعاطي أسبابه ومقدماته ، فإذا اجتنب الإنسان الكبيرة والاجتناب حسنة ، فإن النظر وتعاطي الأسباب والمقدمات ، يكون ذلك كله مغفورا للإنسان ؛ لأنه لم يوصل إلى الغرض إلا منه .

وفي هذا المعنى أحاديث ؛ منها : إذا جامع الرجل امرأته يأخذ أجرا ؛ لأنه لو زنى في أجنبية أخذ وزرا ، فاجتناب المحرم سبب لكسب حسنات ، وعمل المحرم سبب لكسب سيئات .

وورد في الحديث : ((**ما من عبد يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة ، ويجتنب الكبائر السبع ؛ إلا فتحت له أبواب الجنة ، ثم قيل له : ادخل بسلام**)) [رواه النسائي والحاكم] .

حقيقة الإيمان

ومن آراء المعتزلة : أن الإيمان مجموع أمور ثلاثة هي :

١- اعتقاد بالقلب .

٢- وإقرار باللسان .

٣- والعمل بأحكام الدين .

فمن اعتقد وأقر ، ولم يجتنب الكبائر ؛ فإنه لا يكون مؤمنا عندهم .

وقال أهل السنة : إن العمل بأحكام الدين ليس من الشروط الإيمان . فعندهم أن من يقول لا إله إلا الله يدخل الجنة ، ولو لم يعمل عملا صالحا .

واستدل المعتزلة على مذهبهم هذا بأدلة ؛ منها حديث : ((**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**)) ، و : ((**بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج**)) . فجعل العبادات من الإسلام ؛ فيكون تركها كفرا في كون الاجتناب عن ترك العبادات من جملة الإيمان وترك هذه العبادات كبائر .

ومن أدلتهم من القرآن قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ [الفرقان/٦٨ ، ٦٩] . قالوا : وجه الدليل هو أنه أوجب الخلود بارتكاب الكبيرة ، كما أوجبه بالإشراك ؛ فدل هذا على أن الاجتناب عن الكبائر من جملة الإيمان .

التقليد في الإيمان

ومن آراء المعتزلة : أن المقلد ليس بمؤمن .

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة/١٧٠] . واستدلوا بسبب نزولها ؛ وهو ما روى ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أنها نزلت في طائفة من اليهود ، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، فقالوا : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ . فأنزل الله هذه الآية . قالوا : فيقاس عليهم غيرهم .

العذاب من غير جناية

ومن آراء المعتزلة : أنه لا يجوز على الله أن يؤلم من يشاء من عباده ، من غير جناية سابقة ولا جزاء لاحق .

وعند أهل السنة : يجوز .

واستدل المعتزلة من القرآن بقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء/١٥] .

ومن الأحاديث بحديث : ((يقتص للشاة الجماء من القرناء)) ، وحديث :((من قتل عبده عبثا ، عَجَّ إليَّ يوم القيامة فيقول : قتلني هذا عبثا)) . والله منزه عن العبث .

حقيقة الميزان

ومن آراء المعتزلة : أن الميزان كناية عن الحق والعدل .

وعند أهل السنة : هو ميزان حسي .

ووجه المعتزلة : هو أن وزن الأعمال مستحيل ؛ فإن الأعمال حركات يستحيل وزنها ، كما أنها لا تبقى ؛ لأنها عرض من الأعراض . وإذا كانت لا تبقى ، فإنه لا يُتصوَّر وزنها . وثواب الأعمال درجات في الجنة أو دركات في النار ، وذلك لا يوزن .

ولأن الوزن لو كان ، لكان وزن الحسنات بالسيئات ، والحسنات مع السيئات لا يتصور مقابلتها ؛ فإن الحسنات يذهبن الصغائر ، والحسنات لا تبقى مع الكبائر؛ فلا يتصور الوزن .

واختلف أهل السنة على ثلاثة آراء :

الأول : وزن الأعمال .

والثاني : مَحَالُّ الأعمال . أي : كتاب الأعمال .

والثالث : وزن صاحب العمل نفسه .

قال المعتزلة : الأحاديث الواردة في وزن الأعمال ضعيفة .

ومن هذه الأحاديث :

- حديث ((إن لله ملكا موكلا بالميزان)) . [رواه البزار] .

- ومن الأحاديث الدالة على وزن صاحب العمل : ((يؤتى يوم القيامة بالرجل الثمين ، فلا يزن عند الله جناح بعوضة)) . ثم قرأ : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف/١٠٥] .

- ومن الأحاديث الدالة على وزن كتاب الأعمال : حديث البطاقة عند الترمذي وابن ماجه وأحمد .

حقيقة الصراط

ومن آراء أهل المعتزلة : نفي الصراط الحسي ، وتأويله بالطريق المستقيم قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة/٦] . أي : وفقنا للدخول في الإسلام والعمل بالقرآن .

ويقول أهل السنة : إن الصراط حسي .

ويستدلون بحديث آحاد فيه .

فرد المعتزلة على هذا الحديث وقالوا : هو حديث آحاد لا تثبت به عقيدة .

وقال أهل السنة : إن في كتاب الله تعالى دليلا على الصراط الحسي في يوم القيامة ؛ وهو : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم/٧١] . أخبر أن كل أحد يرد النار . فإن ﴿ هَا ﴾ منصرف إلى جهنم ، والمراد من الورود الدخول ، والدخول لا يكون إلا على الصراط .

فرد المعتزلة وقالوا :

إن كلامكم غير منضبط في الصراط وفي الدخول ؛ وذلك لأن الدخول في البيت لا يلزم منه أن يكون على جسر ممدود معدٌ لذلك الدخول ، فالطريق المؤدي إليه يكفي في الدخول فيه .

ومن أدلة أهل السنة :

١- إن أهل الجنة بعدما دخلوا الجنة ، قالوا : ألم يعدنا ربنا الورود على النار ؟ قال : قد مررتم عليها وهي خامدة .

٢- في قراءة منسوبة إلى ابن عباس : (وإن منهم إلا واردها) . قال : وهم الظلمة .

٣- اختصم ابن عباس مع ابن راشد الحروري وهو نافع بن الأزرق ، فقال ابن عباس : الورود هو الدخول . وقال نافع : لا . فقرأ ابن عباس : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ وردوا أم لا ؟

مناقشة المعتزلة لأدلة أهل السنة :

قالوا : إن الورود في لغة العرب معناه : الاتجاه إلى مكان معين لفائدة ، أو لمنع ضرر . ولا يلزم من الوصول إلى المكان تحقق الفائدة أو منع الضرر .

ومثال ذلك : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص/٢٣] . أخبر أنه اتجه ناحية الماء ، ولم يخبر أنه دخل في الماء .

قالوا : وكذلك ورود جميع بني آدم ناحية جهنم قسرا ، وعندما يتجمعون أمامها ويروها ، ماذا يحدث لهم ؟ تُنحّي الملائكةُ جميع متقي الله ، وتتجه بهم نحو الجنة ، وتسوق الباقين - وهم المجرمون - إلى جهنم وتُدخِلُهم فيها . ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ . أي : متجه إلى مكانها ، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ من الدخول فيها .

قالوا : وقد أبان الله عن هذا المعنى بعد ذلك مباشرة فقال : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم/٨٥ ، ٨٦] . قالوا : المعدون للدخول هم المجرمون ، والواردون ليروا فضل الله عليهم بإبعادهم عن العذاب هم المتقون ، والكل قد ورد إلى المكان ، وبعد التجمع افترقوا إلى فرقتين فرقة دخلت الجنة وفرقة دخلت النار .

حقيقة السحر

المعتزلة ينفون السحر عن رسول الله ﷺ .

قالوا : وفي القرآن عن نفي السحر عنه ﷺ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة/٦٧] . والمراد بالناس هنا اليهود . قالوا : فإذا كان للسحر تأثير – كما يقول أهل السنة – فإن تأثيره لا يكون في الرسول ﷺ ؛ لثبوت العصمة له .

قالوا : وليس في القرآن ما يدل على أن للسحر تأثير ، حتى يؤثر في الرسول ﷺ أو في غيره .

فإما آية هروت وماروت فإن ﴿ مَا ﴾ فيها نافية وذلك كالتالي :

١- ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ ﴾ . أي : علماء اليهود ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ .

٢- ﴿ وَمَا أُنزِلَ ﴾ نفى الإنزال ﴿ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ﴾ كما يدعى اليهود .

٣- ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ ﴾ . أي : هروت وماروت ، ﴿ حَتَّى يَقُولَا ﴾ لمريد التعلم ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ . وإذ نفى تعليم الملكين ، يكون قد نفى قوليهما لمريد التعلم ، وإذ نفى التعليم وما يترتب عليه وهو القول ، ينتفي أنهما علما ما يفرقون به بين المرء وزوجه .

٤- ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ بالوهم لا بعمل سحر ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة/١٠٢] .

علامات الساعة

وأما عن نفي المعتزلة لعلامات الساعة ، فإنه وارد عليهم ؛ لأن العلامات ثابتة بأحاديث آحاد ، وهي عندهم ليست بحجة في العقائد ، فإنهم إذن من نفاة علامات الساعة .

ومن أدلة المعتزلة على ذلك :

أولا : إذا كان المراد من الساعة : ساعة يوم القيامة العامة من الأموات ، وأن العلامات هي : الدابة ، والمهدي ... إلخ ، فإن في القرآن أنها تأتي بغتة . والبغتة تنفي علامات لها ، وإذ البغتة تنفي علاماتها ، تكون الأحاديث المثبتة للعلامات ضعيفة ؛ لمعارضتها للقرآن . يقول الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف/١٨٧] .

ثانيا : وإذا كان المراد من الساعة في قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ ساعة المعركة الفاصلة بين المسلمين وبين اليهود في بدء ظهور الإسلام ؛ فإن ساعة هذه المعركة ستكون بغتة ، والعلامات التي تسبقها تكون قد حدثت من قبلها .

والقول الصحيح في الساعة المسئول عنها هو أنه في الأصحاح الرابع والعشرين من إنجيل متى ، والثالث عشر من إنجيل مرقس والحادي والعشرين من إنجيل متى أن عيسى عليه السلام وهو يبشر بمجيء محمد ﷺ سأله الحواريون من زمن هدم هيكل سليمان عليه السلام الذي في أورشليم - يعنون به : متى يجيء هذا النبي لينسخ التوراة التي الهيكل رمز لها ؟ - وقد أجاب بقوله : إنه سوف تحدث علامات في الكون ؛ منها : قيام حروب بين الأمم ، وظهور أنبياء كذبة ، واضطهاد اليهود لأتباعه ، وحدوث مجاعات ، وزلازل ، وأبئة ، وارتداد بعض المؤمنين به عن إيمانهم ، وانتشار الإنجيل في العالم شهادة لجميع الأمم ، ثم يأتي المنتهى ؛ أي : منتهى عصر الملك والشريعة في بني إسرائيل .

وقال المسيح : إنه ستحدث معركة شديدة بين المسلمين وبين اليهود في بدء ظهور الإسلام ، حتى إن الحامل من شدة الهول تضع حملها ، وأن المرضعة من شدة الهول تذهل عما أرضعت ، وترى الناس - لو قُدِّرَ لك أن تراهم - سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد لليهود في هذه المعركة .

وقال المسيح عن يوم هذه المعركة وعن ساعتها : (وأما ذلك اليوم وتلك الساعة ؛ فلا يعلم بهما أحد إلا الله وحده) . وقال : إنها ستأتي بغتة (فيصادفكم ذلك اليوم بغتة) .

وقد وقعت هذه المعركة في جبل (مَجِدُّو) المعروف بمَرْ مَجِدُّون ؛ وهي " اليارموك " في فلسطين في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ٦٣٨م ؟

وإليك موجز بأهم المسائل التي خالف فيها المعتزلة أهل السنة :

- أركان الاعتقاد عند المعتزلة خمسة : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

- الله واحد لا شريك له ، وذهبوا الى نفي الصفات عنه ﷻ ، وأنها عين ذاته .

- المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة ، استحق الثواب والعوض ، وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار ، لكن عقابه يكون أخف من عقاب الكافر .

وسموا هذا النمط : وعدًا ووعيدًا .

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان عقلًا ونقلًا ، وهما واجبان باللسان والقلب واليد .

- الفاسق من المسلمين في منزلة بين المنزلتين ، وهي أنه لا مؤمن ولا كافر .

- الله منزه عن كل قبيح ، وأن ما ثبت أنه قبيح ليس من فعله ولا يصف بالقدرة على ما يَقْبُح .

- العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها ، مستحق على ما يفعله ثوابًا وعقابًا في الدار الآخرة ، والرب منزه عن أن يضاف إليه شر أو ظلم .

- أصول المعرفة وشكر النعمة واجبة قبل ورود السمع ، والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل ، كما يجب اعتناق الحسن واجتناب القبح .

- ورود التكاليف الإلهية ألطاف من الباري تعالى ، أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء عليهم السلام ؛ امتحانًا واختبارًا .

- الأنبياء معصومون جميعًا ، ولا يجوز أن تقع منهم معصية بعمد لا صغيرة ولا كبيرة .

- الإيمان إقرار باللسان ومعرفة وعمل بالجوارح ، وإن كل من عمل فرضًا أو نفلًا فهو إيمان ، وكلما ازداد الانسان خيرًا ازداد ايمانًا ، وكلما عصى نقص إيمانه .

- مالم يأمر الله تعالى به أو ينهى عنه من أعمال العباد لم يشأ الله شيئًا منه .

- لا إمامة إلا بالنص والتعيين ظاهرًا ، وهو رأي الفرقة النظامية .

- لا تجوز الصلاة إلا خلف الفاضل .

- علي كرم الله وجهه هو الأفضل والأحق بالإمامة ، وإنه لولا ما يعلمه الله ورسوله من أن الأصلح للمكلفين تقدم المفضول عليه ، لكان من تقدم عليه هالكًا.
- لمقدورات الله تعالى ولأفعاله ومعلوماته غاية ونهاية .
- الجنة والنار تفنيان ويفنى أهلهما ، حتى يكون الله سبحانه آخرًا لا شيء معه، كما كان أول لا شيء معه .
- إنكار الشفاعة .
- وجوب الأصلح على الله تعالى ، وأوامر الله ونواهيه تابعة للمصالح والمفاسد.
- استحالة رؤية الله سبحانه وتعالى بالأبصار في الدنيا والآخرة .

الفصل الخامس

النص والعقل

الفصل الخامس

النص والعقل عند المعتزلة

يقول خصوم المعتزلة : إن المعتزلة يقدمون أحكام العقل السليم على المفهوم من النص القرآني .

ومن يقول بأن المعتزلة يقدمون العقل على النص يكون مخطئًا في قول هذا ؛ وذلك لأنهم يقدمون النص على العقل .

فقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ . هذا نص ، وإذا تصدى لتفسيره معتزلي فإنه سيقول : ألزم الله نفسه بالرحمة؛ لأن ﴿ كَتَبَ ﴾ تدل على الإلزام ، مثل قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ . اي : ألزمكم به .

فإن قلت له : كيف تلزم الله بأن يفعل الرحمة ؟ هذا لا يصح .

يقول : هو ألزم نفسه ، أما نحن فلم نلزمه ، وقد ألزمنا هو بالصيام ، ولا يجوز لنا ألا نفعله ؛ نحن نحكي عن الله ما يقول ، ولا ننشئ الكلام إنشاء ، وعند النصارى أن المسيح عيسى ﷺ قد بين أن الله كتب على نفسه الرحمة ، ونحن نحكي عنه ما كتبه هو على نفسه ، ولا لوم علينا فيما نحكيه عنه ، وإنما يكون اللوم علينا إذا نحن قلنا : إنه يجب عليه الرحمة . وهو لم يقل عن نفسه إنه كتبها على نفسه .

ففي الأصحاح الثامن والسبعين وما بعده من إنجيل برنابا :

(أجاب يسوع : إذا كان العالم حسنا بدون الشمس والإنسان بدون عينين والنفس بدون إدراك ، يكون عدم المعرفة إذن حسنا .

الحق أقول لكم : إن الخبز لا يفيد الحياة الزمنية كما يفعل العلم الحياة الأبدية ، ألا تعلمون أن الله أمر بالعلم ؟ لأنه هكذا يقول الله : اسأل شيوخك يعلموك . ويقول الله عن الشريعة : اجعل وصيتي أمام عينيك والْهَجْ بها حين تجلس وحين تمشي وفي كل حين .

فيمكنكم الآن أن تعلموا إذا كان عدم العلم حسنًا أن من يحتقر الحكمة لشقي؛ لأن لابد أن يخسر الحياة الأبدية .

فأجاب يعقوب : يا معلم ، نعلم أن أيوب لم يتعلم من معلم ولا إبراهيم ، ومع هذا فقد كانا طاهرين ونبيين .

أجاب يسوع : الحق أقول لكم : إن من كان من أهل العروس لا يدعى إلى العُرْسِ ؛ لأنه يسكن البيت الذي فيه العرس بل يدعى البعيدين عن البيت ، أفلا تعلمون أن أنبياء الله هم في بين نعمة الله ورحمته ، فشريعة الله ظاهرة فيهم كما يقول داود أبونا في هذا الموضوع : إن شريعة إلهه في قلبه ، فلا يَحْفِرْ طريقه .

الحق أقول لكم : إن إلهنا لما خلق الإنسان ، لم يخلقه بارا فقط ، بل وضع في قلبه نورا يريه أنه خليق خدمة الله ، فلئن أظلم هذا النور بعد الخطيئة ، فهو لا ينطفئ ؛ لأن لكل أمة هذه الرغبة في خدمة الله مع أنهم قد فقدوا الله وعبدوا آلهة باطلة وكاذبة ؛ لذلك وجب أن يعلم الإنسان عن أنبياء الله ؛ لأن النور الذي يعلمهم طريق الذهاب إلى الجنة وظننا بخدمة الله واضح كما يجب أن يقاد ويداوى من في عينيه رمد .

أجاب يعقوب : وكيف يعلمنا الأنبياء وهم أموات ، وكيف يعلم من لا معرفة له بالأنبياء ؟

فأجاب يسوع : إن تعليمهم مدون ، فتجب مطالعته ؛ لأن الكتابة بمثابة نبي لك . الحق الحق أقول لك : إن من يمتهن النبوة ، لا يمتهن النبي فقط ، بل يمتهن الله الذي أرسل النبي أيضا .

أما ما يختص بالأمم الذين لا يعرفون النبي ، فإني أقول لكم : إنه إذا عاش في تلك الأقطار رجل يعيش كما يوحي إليه قلبه غير فاعل للآخرين ما لا يود أن يناله من الآخرين معطيا لقريبه ما يود أخذه من الآخرين ، فلا تتخلى رحمة الله عن مثل هذا الرجل ، فلذلك يظهر له الله ويمنحه برحمته شريعته عند الموت إن لم يكن قبل ذلك ، ولعله يخطر في بالكم أن الله أعطى الشريعة حبا بالشريعة حقا أن هذا لباطل ، بل منح الله شريعته ليفعل الإنسان حسنا حبا في الله فإذا وجد الله إنسانا يفعل حسنا حبا له ، أفتظنون أنه يمتهنه ؟ كلا ثم كلا ، بل يحبه أكثر من الذين أعطاهم الشريعة .

إني أضرب لكم مثلاً : كان لرجل أملاك كثيرة ، وكان من أملاكه أرض قاحلة لم تنبت إلا أشياء لا ثمر لها ، وبينما كان سائرا ذات يوم وسط هذه الأرض القاحلة ، عثر بين الأنبتة غير

الثمرة على نبات ذي ثمار شهية ، فقال هذا الإنسان حينئذ : كيف تأتى لهذا البيت أن يحمل هذه الثمار الشهية هنا ؟ إني لا أريد أن يقطع ويوضع في النار مع البقية . ثم دعا خدمه ، وأمرهم بقلعه ووضعه في بستانه.

إني أقول لكم هذا يحفظ إلهنا من لهب الجحيم من يفعلون برا أينما كانوا) [برنابا ٨٨ +] .

البيان : إنه يقول : إن كتب الأنبياء تحل محلهم من بعد موتهم . وهذا منه دعوة إلى تقدم النص .

ثم يقول : لو قدر أن إنسانا لم يلق نبيا و لم يلق كتاب نبي ، وكان هذا الإنسان حسن النية ومحبا للخير ، فإن الله يلهمه معرفته ، ويعرفه بشريعته ، ولا يتركه سدى (فلا تتخلى رحمة الله عن مثل هذا الرجل) ؛ لأن الله كتب على نفسه الرحمة .

وعلى ذلك فإن المعتزلي إذا قال : يجب على الله إرسال الرسل . فإنه - في ظنه - لم يوجب على الله إلا ما أوجبه الله على نفسه بالنص لا بالعقل .

وإذا قال المعتزلي : إن الله يُعرف بالعقل . فليس قوله هذا لأنه يهمل النص ، بل لأن الله يقول : إذا كان إنسان يفعل الخير ؛ فإني ألهمه معرفتي ، وأعرفه شريعتي (فإذا وجد الله إنسانا يفعل حسنا حبا له ، أفتظنون أنه يمتهنه ؟ كلا ثم كلا ، بل يحبه أكثر من الذين أعطاهم الشريعة) .

وإذا وُجد نصان ظاهرهما يوهم التناقض ، فإن المعتزلي يُعْمِل عقله للتوفيق بين النصين . وفي هذه الحالة يكون مقدما للنص على العقل ؛ وذلك لأنه وضع النصين أمامه ، ثم اجتهد في التوفيق بينهما . ولولا وجود النصين ، ما أعمل عقله .

ومثال ذلك : ما جاء في التوراة ؛ وهو : (ليس مثل الله) [تث ٢٦:٣٣] . فإن هذا القول مُحْكَم ، وينفي التجسيم عن الله . وقد جاء فيها : (فإنه بيد قوية أخرجكم الرب من هنا) [خر ٣:١٣] .

فاليد لها معنيان :

١- اليد الجسمية .

٢- والكناية عن القدرة .

فيكون النص على اليد نصًا متشابهًا ، وإذا رُدَّ إلى المحكم ، فإن المتفق معه هو المعنى الكنائي ؛ فيكون هو مراد الله تعالى .

فهل قال المسيح : إن اليد كناية عن القدرة ؟ إنه لو قال بذلك ، لكان مثبتا للجسمية ؛ لأن القدرة يلزمها جسم ؛ لأنها لا تقوم بنفسها ، وإنما تقوم بذات متصف بها . ولكي يفر من الجسمية بإثبات القدرة ، قال : إن الله يكلم البشر بلسانهم على قدر عقولهم .

واستدل على قوله هذا بآيات من التوراة ، استدل بما في سفر الخروج وهو : (كلمنا أنت يا موسى ، ولا يكلمنا الله ؛ لئلا نموت) [خر ١٩:٢٠] . وبما في سفر إشعياء : (أليس كما بعدت السموات عن الأرض ؛ هكذا بعدت طرق الله عن طرق الناس ، وأفكار الله عن أفكار الناس ؟) [إش ٩:٥٥] .

وقوله هذا ينفي التجسيم من أساسه ؛ ففي الأصحاح الثالث بعد المائة وما بعده من إنجيل برنابا :

(إن بكاء الخاطئ يجب أن يكون كبكاء أب على ابن مشرف على الموت ، ما أعظم جنون الإنسان الذي يبكي على الجسد الذي فارقته النفس ، ولا يبكي على النفس التي فارقتها رحمة الله بسبب الخطيئة .

قولوا لي إذا قدر النوتي الذي كسرت العاصفة سفينته على أن يسترد بالبكاء كل ما خسر ، فماذا يفعل ؟ من المؤكد أنه يبكي بمرارة .

ولكن أقول لكم حقا : إن الإنسان يخطئ في البكاء على أي شيء إلا على خطيئته فقط ؛ لأن شقاء يحل بالإنسان إنما يحل به من الله لخلاصه حتى إنه يجب عليه أن يتهلل له ، ولكن الخطيئة إنما تأتي من الشيطان للعنة الإنسان ولا يحزن الإنسان عليها حقا ، إنكم لا تدركون أن الإنسان إنما يطلب هنا خسارة لا ربحا .

قال برتولوماوس : يا سيد ، ماذا يجب أن يفعل من لا يقدر أن يبكي ؛ لأن قلبه غريب من البكاء ؟

أجاب يسوع : ليس كل من يسكب العبرات يبارك يا برتوماوس ، لعمر الله يوجد قوم لم تسقط من عيونهم عبرة قط ، بكوا أكثر من ألف من الذين يسكبون العبرات أن بكاء الخاطئ هو احتراق هواه العالي بشدة الأسى ، وكما أن نور الشمس يقي ما هو موضوع في الأعلى من التعفن ، هكذا يقي هذا الاحتراق النفس من الخطيئة ، فلو وهب الله النادم الصادق موعا قدر ما في البحر من ماء لتمنى أكثر من ذلك بكثير ، ويفنى هذا التمني تلك القطرة الصغيرة التي يود أن يسكبها كما يفني الأتون الملتهب قطرة من ماء ، أما الذين يفيضون بكاء بسهولة فكالفرس الذي تزيد سرعة عدوه كلما خف حمله .

إنه ليوجد قوم يجمعون بين الهوى الداخلي والعبرات الخارجية ، ولكن من على هذه الشاكلة يكون كإرميا ففي البكاء ، يزن الله الحزن أكثر مما يزن العبرات .

فقال حينئذ يوحنا : يا معلم ، كيف يخسر الإنسان في البكاء على غير الخطيئة؟

أجاب يسوع : إذا أعطاك هيرودوس رداءً لتحفظه له ، ثم أخذه بعد ذلك منك، أيكون لك باعث على البكاء ؟

فقال يوحنا : لا .

فقال يسوع : إذن يكون باعث الإنسان على البكاء أقل من هذا إذا خسر شيئا أو فاته ما يريد ؛ لأن كل شيء يأتي من يد الله أليس لله إذا قدرة على التصرف بأشيائه حسبما يريد أيها الغبي .

أما أنت فليس لك من مِلْكٍ سوى الخطيئة فقط ، فعليها يجب أن تبكي لا على شيء آخر .

قال متى : يا معلم ، إنك لقد اعترفت أمام اليهودية كلها بأن ليس لله من شبه كالبشر ، وقلت الآن : إن الإنسان ينال من يد الله . فإذا كان لله يدان ، فله إذن شبه بالبشر .

أجاب يسوع : إنك لفي ضلال يا متى ، ولقد ضل كثيرون هكذا إذ لم يفقهوا معنى الكلام ؛ لأنه لا يجب على الإنسان أن يلاحظ ظاهر الكلام ، بل معناه ؛ إذ الكلام البشري بمثابة ترجمان بيننا وبين الله ، ألا تعلم أنه لما أراد الله أن يكلم آباءنا على جبل سيناء صرخ آباؤنا : كلمنا أنت يا موسى ، ولا يكلمنا الله لئلا نموت .

وماذا قال الله على لسان أشعيا النبي أليس كما بعدت السموات عن الأرض هكذا بعدت طرق الله عن طرق الناس وأفكار الله عن أفكار الناس ؟

إن الله لا يدركه قياس إلى حد ، إني أرتجف من وصفه ، ولكن يجب أن أذكر لكم قضية فأقول لكم : إذن أن السموات تسع ، وأنها بعضها يبعد عن بعض كما تبعد السماء الأولى عن الأرض التي تبعد عن الأرض سفر خمسمائة سنة ، وعليه فإن الأرض تبعد عن أعلى سماء مسيرة أربعة آلاف وخمسمائة سنة ، فبناء على ذلك أقول لكم : إنها بالنسبة إلى السماء الأولى كرأس إبرة ، ومثلها السماء الأولى بالنسبة إلى الثانية ، وعلى هذا النمط كل السموات الواحدة منها أسفل مما يليها ، ولكن كل حجم الأرض مع حجم كل السموات بالنسبة إلى الجنة كنقطة بل كحبة رمل ، أليست هذه العظمة مما لا يقاس ؟

فأجاب التلاميذ : بلى بلى .

حينئذ قال يسوع : لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته ، إن الكون أمام الله لصغير كحبة رمل والله أعظم من ذلك بمقدار ما يلزم من حبوب الرمل لملء لك السموات والجنة بل أكثر ، فانظروا الآن إذا كان هناك نسبة بين الله والإنسان الذي ليس سوى كتلة صغيرة من طين واقفة على الأرض ، فانتبهوا إذن لتأخذوا المعنى لا مجرد الكلام إذا أردتم أن تنالوا الحياة الأبدية .

فأجاب التلاميذ : إن الله وحده يقدر أن يعرف نفسه وأنه حقا لكما قال أشعيا النبي : هو محتجب عن الحواس البشرية ؟

أجاب يسوع : إن هذا لهو لذلك سنعرف الله متى صرنا في الجنة كما يعرف هنا البحر من قطرة ماء مالح .

وإني أعود إلى حديثي فأقول لكم : إنه يجب على الإنسان أن يبكي على الخطيئة فقط ؛ لأنه بالخطيئة يترك الإنسان خالقه ، ولكن كيف يبكي من يحضر مجالس الطرب والولائم ؟ أنه كما يعطى الثلج نارا .

فعليكم أن تحولوا مجالس الطرب إلى صوم إذا أحببتم أن يكون لكم سلطة على حواسكم ؛ لأن سلطة إلهنا هكذا .

ويقول أهل السنة : إن الصفات زائدة عن الذات ، وهي غير الذات .

ويستدلون على قولهم بقوله تعالى : ﴿ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء/١٦٦] . ولم يقل: بذاته ؛ ليبين أن صفة العلم هي المنزلة ، لا أن الذات هي المنزلة .

أما المعتزلة فإنهم قدموا نصين هما :

١- ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ .

٢- ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

وبعدما وضعوا النصين في أول الكلام ، أعملوا العقل في بيان المعنى ، وقالوا : إن الله هو المنزل بذاته ، وصفة العلم بدون الذات لم تنزل شيئًا ؛ لأنه لا صفة تستقل بنفسها ، إذن كل صفة لا بد لها من ذات ، وفعل الذات هو الذي يدل على الصفة . فإننا لا نصف إنسانا بالكلام إلا إذا سمعناه يتكلم ، ولا نصفه بالقوة إلا إذا رأيناه قد حمل حملاً ثقيلاً ، ولا نصفه بالعلم إلا إذا أظهر علما ، وهكذا .

وأوّلوا الإنزال بالصفة على معنى أنه بعلم ما صدر منه كما يقال عن أمر ما : إنه فُعل بعلم الملك لا من ورائه .

ومن المحتمل أن يكون المعنى هكذا : ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾ جبريل ﴿ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ به مني ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

ويدل على هذا : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ومثل هذا يقال في أفعال العباد ، فإن أهل السنة استدلوا عليها بآية هي :﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . وقالوا : إن الله هو الخالق لأفعال عباده ، وليس لعبد في عمله حرية ولا اختيار .

أما المعتزلة فقد استدلوا بقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ ﴾ [الإسراء/١٣] . الذي يبين بوضوح تامٍّ أن للعبد في عمله حرية واختيار .

إذ هما في الظاهر موهمان للتضاد في المعنى ، فلا بد من إعمال العقل لإزالة موهم هذا التضـــاد .

وقد أزال المعتزلة موهم التناقض هنا بقولهم : لماذا ختم على قلوب هؤلاء ، ولم يختم على قلوب غيرهم ؟ أليس لأنهم استحبوا الكفر على الإيمان ؟ وإذا استحبوا الكفر على الإيمـــان ؛ فـإنهم يكونون الذين اختاروا الكفر بإرادتهم ، ولما اختاروه وعاندوا الله به ، ختم على قلوبهم . فالختم منه ليس هو المرحلة الأولى، وإنما هو المرحلة الثانية .

ويفهم من هذا أنهم لم يقدموا العقل على النص ، وإنما قدموا النص ، وأعلموا عقولهم في فهمه ، وإن اختلفنا معهم في فهمهم هذا .

وأهل السنة وهم يردون على المعتزلة في هذا الموضع يسمونهم بـــ : القدرية . ومعنى التسمية : أنهم يقولون إن العبد يقدر على خلق أفعاله . ويصفونهم بأنهم غير عقلاء .

يقول القرطبي رحمة الله وفي تفسيره : (تعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلـق إيمانهم وهداهم) . وبعدما وصفهم بقلة العقل . قال :

(ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم ؛ كما قال تعالى : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾) .

ومن أدلة المعتزلة على مذهبهم هذا أيضًا قولهم : إن الله خالق كل شـيء كمـا يقـول : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ .

ولكنه لما خلق ، ترك للإنسان حرية أن يتصرف في خلقه، فالشجر من خلق الله ، والإنسان قد يأخذ فرعا من شجرة ليتوكأ عليه ، وقد يأخذ الفرع نفسه ليقتل به غيره . ولا يقال في حالـة قتله : إن الله هو الذي كتب عليه أن يقتل . فكل من في الكون من خلق الله ، ولكن الله سخر للإنسان ما في السموات وما في الأرض ، فإذا خلق الإنسان صنمًا من خشب ليعبده ، فـإن الخشب من شجر قد خلق الله ، والصنعة للصانع ، والعنب من خلق الله ، والخمر للصـانع ،

وطين الأرض من خلق الله ، وقد يخلق الإنسان منه إناء . ولا يقال على الإناء : إنه مادةً وصُنْعًا من خَلْق الصانع .

وهذا المعنى في التوراة ؛ ففي سفر إشعياء : (أنا الرب وليس آخر ، لا إله سواي ، نَطَّقتك وأنت لم تعرفني ؛ لكي يعلموا من مشرق الشمس ومن مغربها أن ليس غيري . أنا الرب وليس آخر ، مصور النور ، وخالق الظلمة ، صانع السلام ، وخالق الشر ، أنا الرب صانع كل هذه) [إش ٤٥:٥ ٧] .

ومع هذا يقول الله في التوراة لبني إسرائيل : أنتم أحرار في أعمالكم . ذلك قوله: (إن هذه الوصية التي أوصيك بها اليوم ، ليست عسرة عليك ، ولا بعيدة منك ، لست هي في السماء حتى تقول : من يصعد لأجلنا إلى السماء ويأخذها لنا، ويُسْمِعُنَا إياها ؛ لنعمل بها . ولا هي في عبر البحر حتى تقول : من يعبر لأجلنا البحر ويأخذها لنا ، ويُسْمِعُنَا إياها ؛ لنعمل بها ، بل الكلمة قريبة منك جدًّا في فمك ، وفي قلبك لتعمل بها) [تثنية ٣٠:١١ ١٤] .

لو كانت التوراة مصرحة بالجبر ، لما كان لليهود أن يعترفوا بثوابٍ لهم في الجنة على أعمالهم ، ولما كان لهم أن يعترفوا بعقاب في النار .

ففي كتاب التلمود :

أ- يرى بعض الحاخامات : أن الجنة لا أكل فيها ولا شرب ، ولا زواج ، ولا تناسل ، ولا تجارة ، ولا حقد ، ولا ضغينة ، ولا حسد بين النفوس ، بل لصالح سوف يجلس ، وعلى رأسه تاج السكنة والوقار . وأما الجحيم فلسلطانها على غير اليهود ، ولا سلطان لها عليهم ولا على الحاخامات .

ب- غير أن بعضهم قالوا : إن الإسرائيليين الذين اقترفوا الذنوب سيذهبون مع الأجانب إلى نار جهنم ، وسيمكثون فيها اثني عشر شهرًا .

يقول الإمام القرطبي رحمه الله :

(في هذه الآية أدل دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال ، والكفر والإيمان ؛ فاعتبروا أيها السامعون ، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق

إيمانهم وهداهم ؛ فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جهدوا ؛ وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة فمن يهتدون ، أو من يهديهم من بعد الله إذ أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر/٢٣] .

وكان فعل الله ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ، وإذا لم يمنعه حقا ، وجب له فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم .

فإن قالوا : إن معنى الختم والطبع والغشاوة التسمية والحكم والإخبار بأنهم لا يؤمنون لا الفعل .

قلنا : هذا فاسد ؛ لأن حقيقة الختم والطبع إنما فعل ما يصير به القلب مطبوعا مختوما ؛ لا يجوز حقيقته التسمية والحكم ؛ ألا ترى أنه قيل : فلان طبع الكتاب وختمه . كان حقيقة أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعا ومختوما ، لا التسمية والحكم ، هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة .

ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه الختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم ؛ كما قال تعالى : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء/١٥٥] .

وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي والملائكة والمؤمنين ممتنع ؛ فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنين ؛ لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهم مختوم عليها وأنهم في ضلال لا يؤمنون ، ويحكمون عليهم بذلك .

فثبت أن الختم والطبع هو معنى غير التسمية والحكم ؛ وإنما هو معنى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الحجر/١٢] .

وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ [الإسراء/٤٦] . أي : لئلا يفقهوه ، وما كان مثله) .

وأهل السنة يعرفون أي صفة لله بقولهم : (**صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ، زائدة على ذاته ، و غير منفكة على ذاته**) . فالعلم قديم وقائم بالذات وزائد عليها ، فهو قديم ، والقدرة قديمة ، والإرادة قديمة ... إلى آخر الصفات .

والذي دفع أهل السنة إلى القول بزيادة الصفات وتعددها هو : أن المسيحيين يقولون : إن الله إله . وصفته وهي صفة الكلام إله ؛ لأن المسيح هو كلمة الله القديمة في مذهبهم ، وصفته وهي صفة الحياة في مذهبهم إله ؛ ويطلقون عليها(الروح القدس) . ويقول الكاثوليك بتعدد الأقانيم ، وانفصال كل أقنوم عن غيره .

ونشير هنا إلى أن اليهود الفريسيين من بعد الإسلام تسمّوا بـ : الربانيين . وتبنوا التجسيم ، وأوّلوا الآيات التي في التوراة التي تثبت أن الله جسم بنفس تأويل المسيح عيسى لها ، وذلك واضح في كتاب (دلالة الحائرين) للحَبْر موسى بن ميمون .

والمسيحيون يزعمون أن المسيح ابن مريم (كلمة الله) على ظاهر اللفظ ، فإنها على التأويل الصحيح (قدرته) ؛ لأنه قال : ﴿ كن ﴾ . فكان .

وزعموا أن المسيح لما خرج من القبر وهو الكلمة ، ارتفع إلى السماء ؛ أي : أن المرتفع في زعمهم هو الكلمة ، وبعدما دخل في السماء ، وصل إلى الله وجلس بجواره . أي : أن الكلمة جلست بجوار المتكلم ، أي : أنهما اثنان لا واحد ، اثنان هما الله القديم وصفته القديمة التي هي الكلمة .

إعمال العقل عند أهل السنة

لأن اللغة العربية يأتي اللفظ فيها أحيانا على الحقيقة وأحيانا على المجاز ، مثل اليد تدل على يد الإنسان ، وتدل على قدرته ؛ يُعْمِل العلماء عقولهم في معرفة المعنى المراد من النصوص .

فالاستهزاء – مثلاً – يكون من شخص لشخص . فإذا جاء منسوبا إلى الله ، وهو الخالق للبشر وليس مثلهم ولا من جنسهم ؛ يضطر العلماء إلى تأويل الاستهزاء المنسوب إليه بمعنى غير المعنى الذي يكون من بشر إلى بشر ، وإذ لا يكون التأويل إلا بأعمال العقل ، فإنهم إذ يؤولون يقدمون النص ثم يفكرون فيه .

فقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ . هو قول محكم بنفي التجسيم ، وقوله: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ . هو قول يدل على شَبَه الله بالبشر في صفة من صفاتهم ؛ فيكون بشرا مثلهم .

ولذلك قال القرطبي رحمة الله ما نصه :

(قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة/١٥] .

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ . أي : ينتقم منهم ويعاقبهم ، ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم ؛ فسمى العقوبة باسم الذنب . هذا قول الجمهور من العلماء ؛ والعرب تستعمل ذلك كثيرًا في كلامهم ؛ من ذلك قول عمرو بن كُلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهيل الجاهلينا

فسمى انتصاره جهلاً ، والجهل لا يفتخر به ذو عقل ، وإنما قاله ليزدوج الكلام فيكون أخف على اللسان من المخالفة بينهما .

وكانت العرب إذا وضعوا لفظا بإزاء لفظ جوابًا له وجزاء ، ذكروه لفظه وإن كان مخلفا له في معناه .

وعلى ذلك جاء القرآن والسنة ، وقال الله ﷻ : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى/٤٠] . وقال : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة/١٩٤] والجزاء لا يكون سيئة ، والقصاص لا يكون اعتداء ؛ لأنه حق وجب ؛ ومثله : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ [آل عمران/٥٤] ، و ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق/١٥ ، ١٦] ، و ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة/١٤ ، ١٥] . وليس منه سبحانه مَكْرٌ ولا هُزْءٌ ولا كَيْدٌ ، إنما هو جزاء لمكرهم واستهزائهم وجزاء كيدهم ؛ وكذلك : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء/١٤٢] ، ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [التوبة/٧٩] .

وقال رسول الله : ((إن الله لا يمل حتى تملوا ، ولا يسأم حتى تسأموا)) . قيل : " حتى بمعنى الواو ؛ أي : وتملوا . وقيل المعنى : وأنتم تملون . وقيل : المعنى: لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل .

وقال قوم : إن الله تعالى يفعل بهم أفعالاً هي في تأمل البشر هُزء وخدع ومكر حسب ما روي : إن النار تجمد كما تجمد الإهالة ، فيمشون عليها ويظنونها منجاة فتخسف به .

وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ . وهم منافقو أهل الكتاب ، فذكرهم وذكر استهزاءهم ، وأنهم خلوا إلى شيطانهم يعني : رؤساءهم في الكفر على ما تقدم قالوا : إنا معكم على دينكم ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ بأصحاب محمد ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ في الآخرة ، يفتح لهم باب جهنم من الجنة ، ثم يقال لهم : تعالوا . فيقبلون يَسْبَحُون في النار ، والمؤمنون على الأرائك وهي السُّرُر في الحجال ينظرون إليهم ، فإذا انتهوا إلى الباب سُدَّ عنهم ، فيضحك المؤمنون ؛ فلذلك قول الله ﷻ : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ . أي : في الآخرة ، ويضحك المؤمنون منهم حين غلقت دونهم الأبواب ؛ فلذلك قوله تعالى : ﴿ فاليوم الذين آمنو من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون ﴾ إلى أهل النار ﴿ هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ .

وقال قوم : الخداع من الله والاستهزاء هو استدراجهم بدرور النعم الدنيوية عليهم ؛ فالله سبحانه وتعالى يُظْهِر لهم من الإحسان في الدنيا خلاف ما يغيب عنهم ، ويستر عنهم من عذاب الآخرة ، فيظنون أنه راضٍ عنهم ، وهو تعالى قد حتَّم عذابهم .

فهذا على تأمل البشر كأنه استهزاء وخداع ؛ ودل على هذا التأويل قوله ﷺ : ((إذا رأيتم الله ﷻ يعطي العبد ما يحب وهو مقيم على معاصيه ، فإنما ذلك منه استدراج)) .

ثم نزع بهذه الآية : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام/٤٤ ، ٤٥] .

وقال بعض العلماء في قوله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف/١٨٢] : كلما أحدثوا ذنبا ، أحدث لهم نعمة .

الفصل السادس

أصول المعتزلة بين اليهودية والنصرانية

الفصل السادس

أصول المعتزلة بين اليهودية والنصرانية

الأصل الأول : الوعد الوعيد

يقول المعتزلة : إن الله إذا وعد وفّى ، وإذا أوعد بالنار فإنه سيخلد فيها من لا يسمع لكلامه . وقولهم هذا هو قول المسيح عيسى ﷺ ، أما اليهود فإنهم يقولون : إن العقاب سيكون ، ولكنه غير دائم . ويقول المسيحيون : إن المسيح سيشفع لنا عند الله ، وليس من عقاب مؤبد أو مؤقت . ففي الرسالة الأولى ليوحنا : (يا أولادي أكتب إليكم هذا لكي لا تخطئوا ، وإن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الأب ؛ يسوع المسيح البار ، وهو كفارة لخطايانا ، ليس لخطايانا فقط ، بل لخطايا كل العالم أيضا) [١ يو ١ : ١ ٢] .

والمسيح يقول بتحقيق الوعد مع التأبيد . ذلك قوله : (ولكن أقول لكن : إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس ، سوف يعطون عنها حسابا يوم الدين ؛ لأنك بكلامك تتبرر ، وبكلامك تدان) [متى ١٢ : ٣٦ ، ٣٧] .

وفي سفر الحكمة : (أن آدم تاب ، وتاب الله عليه ، والحكمة هي التي حمت الإنسان الأول أب العالم ، الذي خُلق وحده لما سقط في الخطيئة ؛ رفعته من سقوط ، ومنحته سلطة على كل شيء) [حك ١٠ : ١ ٢] .

وقال المسيح : (إن الله أعطى لكل إنسان ملاكين مسجّلين ؛ أحدهما لتدوين الخير والذي يعمله الإنسان ، والآخر لتدوين الشر ، فإذا أحب الإنسان أن ينال رحمة ؛ فليزن كلامه بأدق مما يوزن به الذهب) [بر ٢١ : ٤ ٥] .

وقال المسيح في العذاب الأبدي في جهنم : (الجحيم واحدة هي ضد الجنة كما أن الشتاء هو ضد الصيف والبرد ضد الحر يجب على من يصف شقاء الجحيم أن يكون قد رأى الجنة نعيم الله يا له من مكان يعدل الله لأجل لعنة الكافرين والمنبوذين الذين قال عنهم أيوب خليل الله : ليس هناك بل خوف أبدي . ويقول أشعيا النبي في المنبوذين : (أن لهيبهم لا ينطفئ ودودهم لا يموت) . داود أبونا باكيا : (حينئذ يمطر عليهم برقا وصواعق وكبريتا وعاصفة شديدة تبا لهم

من خطأة ، تعسا ما أشد كراهتهم حينئذ للحوم الطيبة والثياب الثمينة الوثيرة وألحـان الغنـاء الرخيمة ، ما أشد ما يسقمهم الجوع واللهيب اللذاعة والجمر المحرق والعذاب الأليم مع البكاء المر الشديد) .

ثم إن يسوع أنه أسف قائلا : (حقا خير لهم لم لم يكونوا من أن يعانوا هذا العـذاب الأليـم تصوروا رجلا يعاني في كل جارحة من جسده وليس ثم من يرثي له، بل الجميع يستهزئون بـه أخبروني ألا يكون هذا ألما مبرحا ؟ فأجاب التلاميذ : أشد تبريح . فقال يسوع : إن هذا لنعيم الجحيم ؛ لأني أقول لكم بالحق إنه لو وضع الله في كفة كل الآلام التي عاناها النـاس في هـذا العالم والتي سيعانوها حتى الدين ،وفي الكفة الأخرى ساعة واحدة مـن ألم الجحيم لاختـار المنبوذين بدون ريب المحن العالمية ؛ لأن العالمية تأتي على يد الإنسان ، أما الأخرى فعلـى يـد الشياطين الذين لا شفقة لهم على الإطلاق ، فما أشد الذي سيصلونه الخطاة الأشقياء ، ما أشد البرد القارس الذي لا يخفف لهيبهم ، ما أشد صرير الأسنان والبكاء والعويل ؛ لأن مـاء الأردن أقل من الدموع التي ستجري كل دقيقة من عيونهم ، وستلعن هنا ألسنتهم كل المخلوقات مـع أبيهم وأمهم خالقهم المبارك إلى الأبد) [برنابا ٦٠] .

ويقول اليهود : إن الوعيد بالنار محقق ولا بد منه ، ولكنه لن يكون على التأبيد. وقد حكى الله قولهم هذا فقال : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة/ ٨٠، ٨١] .

وعلى ذلك يكون رأى المعتزلة في الوعد والوعيد هو رأى النصارى الذي أخذه مـن المسيح عليه السلام .

الأصل الثاني : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

هما على الحقيقة للجهاد في سبيل الله ، وهما على المجاز للوعظ والإرشاد .

وبيان ذلك :

أن الأمم الوثنية يجب أن تُحارب من المؤمنين ؛ لإبعادهم عن الشيطان ، ولذلك قام إبراهيم عليه السلام بتجهيز الجيوش لمحاربة الوثنيين ، وقد حاربهم وفتح بلادهم وملك عليها وألزمهم بعبادة الله تعالى على شريعة نوح عليه السلام ؛ لأنه وأتباعه كانوا شيعة من ملته . أي : طائفة ؛ ذلك قوله تعالى : ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ [الصافات/٨٣] وإذا الشيعة قد حاربت ، تكون الملة كلها قد حاربت .

وقد حارب موسى وفتح بلادا وملك عليها ، وحارب داود وفتح وملك ، وحارب سليمان وفتح وملك .

فإذا فتحت بلد من البلاد ، وصار أهلها مسلمين ، وملك عليهم ملك مسلم ، ثم ظهر تهاون من أهلها بالشريعة ؛ سواء أكان المتهاونون هم الحكام ، أم كانوا هم المحاكمون ، فإنه يجب على علماء الشريعة وعلى كل ذي غَيْرَة عليها أن يأمر بعدم التهاون فيها ، وهذا الأمر يعرف بـ : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مجازا .

ولكن لا تحل به الحرب بين الآمرين والناهين وبين المتهاونين ؛ لأن المتهاون عاصٍ ، والله قد أمر العلماء بمخالطة العصاة ليحملوهم على التوبة بالوعظ والإرشاد ، فإذا أصر العاصي على عصيانه ؛ فإن الله سيهلكه ؛ فلماذا الخروج على الحكام ؟ وفي الخروج فتنة وبلاء .

ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [الأعراف/١٦٣ : ١٦٦] .

أ- فالقرية التي اعتدى منها جماعة على حرمة السبت .

ب- وجدت جماعة تسخر من اعتدائها من نفس القرية .

ج- وقام علماء الشريعة بواجبهم معذرة إلى الله .

د- وقد تحقق هلاك المعتدين ، ليس من قيام بعضهم على بعض ، وإنما من الله نفسه .

والحرب في التوراة مفروضة على اليهود إذا حكم عليهم وثني عابد صنم ملتزم بشريعة موسى ، ذلك قوله : (لا يحل أن تجعل عليك رجلا أجنبيا ليس هو أخاك) [تثنية ١٧ : ١٥] .

وأما المسيحيون فإنهم لا يقاومون الحاكم الأجنبي الذي يأتي ليملك على أرضهم وديارهم ؛ لأن بولس يقول لهم : (ذكرهم أن يخضعوا للرياسات والسلاطين ، ويطيعوا ويكونوا مستعدين لكل عمل صالح ، ولا يطعنون في أحد ، ويكونوا غير مخاصمين ، حكماء مظهرين كل وداعة لجميع الناس) [يتطس ٣ : ١ +] .

ومكتوب في الأناجيل أنهم سألوا المسيح عن إصلاء الحرب ضد الرومان ؛ لأنهم ليسوا على شريعة موسى وعباد أوثان ، فأجاب بقوله : (أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله) [مرقس ١٢:١٧] .

وهذا المكتوب لا يوافق ما في التوراة ؛ وهو وجوب قتال الوثني . وما في برنابا هو الصحيح ؛ لأنه يوافق ما في التوراة ؛ لأن الوثني إذا ملك على عباد الله ؛ فإنه سيفسد في الأرض . ففي الأصحاح الثاني والخمسين بعد المائة من إنجيل برنابا :(فلما جاء يسوع إلى أورشليم ، ودخل الهيكل يوم السبت ، اقترب الجنود ؛ ليجربوه وقالوا : يا معلم أيجوز إصلاء الحرب ؟ أجاب يسوع : إن ديننا يخبرنا أن حياتنا حرب عوان على الأرض) . يريد بـ : ديننا . قول أيوب : (الإنسان لاجئ على الأرض ، وكأيام الأجير أيامه) . وفي ترجمة : (أليس جهاد للإنسان على الأرض ، وكأيام الأجير أيامه) [أى ٧ : ١] .

فالمسيح يرى وجوب حرب الوثنين ، ولكنه يمنع من حرب اليهود بعضهم لبعض حتى ولو كانوا عصاة ، ولا يمنع مخالطة العلماء للعصاة لحملهم على التوبة بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

أما علماء اليهود فإنهم لا يخالطون العصاة لحملهم على التوبة ، ففي إنجيل متى : (وفيما يسوع مجتاز من هناك رأى إنسانا جالسا عند مكان الجباية اسمه : متى ، فقال له : اتبعني . فقام وتبعه .

وبينما هو متكئ في البيت إذا عشارون وخطاة كثيرون قد جاءوا واتكأوا مع يسوع وتلاميذه ، فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه: لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة ؟ فلما سمع يسوع قال لهم : لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب ، بل المرضى ، فاذهبوا وتعلموا ما هو ؟ إني أريد رحمة لا ذبيحة ؛ لأني لم آتِ لأدعو أبرارًا بل خطاة إلى التوبة) [متى ٩ : ٩ ١٣] .

وخلاصة ما تقدم :

١- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان فرضا لازما في محاربة الوثنين ، عند اليهود وعند النصارى .

٢- أن المسيحيين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، ويجوزون حكم الأجنبي على المؤمن .

٣- أما في البلدة الواحدة المؤمنة ، فإنه لا يحل الخروج على الحاكم عند اليهود والنصارى المسيحيين ، ولا الخروج على المتهاونين في العمل بالشريعة .

٤- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في البلدة الواحدة للمتهاونين واجب عند النصارى المسيحيين ، وغير واجب عند اليهود .

٥- أن بلاد المسلمين كلها بلدة واحدة .

٦- أن تأثر المعتزلة بالنصارى الأمناء واضح .

مساوئ اليهود والمسيحيين في ديار المسلمين

اتحدوا معا على أن يضرب المسلمون بعضهم بعضا ، وبذلك يخربون بيوتهم بأيديهم ، ولهذا الغرض حاولوا توسيع دائرة الخلافات بين المسلمين ، وأوعزوا إلى كل طائفة أن الطائفة الأخرى تاركة لدينها ومفارقة للجماعة ، ودارت الحروب على ترك الدين ومفارقة الجماعة ، مع أنهم جميعا يؤمنون بالقرآن الكريم .

وهل في كتب المعتزلة أنفسهم جواز الخروج على الحكام ؟ أو على المتهاونين في العمل بالشريعة من أبناء القرية الواحدة ؟ فما فائدة تطبيق الحدود الشرعية على المخالفين إذا اعتبرنا العاصي كافرا ؟ فإن الخروج على العاصي لقتله يضيع حد السرقة وهو قطع اليد ، وحد شارب

الخمر ... وهكذا سائر الحدود . كأننا نقول لله : أنت شرعت بشرع خفيف ، وأحسن منه القتل . ولا يقول بهذا مسلم عاقل.

الأصل الثالث : الصلاح والأصلح

جميع علماء المسلمين متفقون على أن أفعال الله صالحة ، وعلى أن الفساد في العالم ليس من فعله ، بل من فعل البشر ، وأن الله إذا رأى صلاحًا وأصلح منه ، فإنه يفعل الأصلح .

وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل/٨٨].

والخلاف بينهم في أنه : هل يجب عليه فعل الصلاح أم لا يجب ؟ وهل يجب عليه ترك الفساد أم لا يجب ؟ وهل يجب عليه فعل الأصلح أم لا يجب ؟

ويرى المعتزلة أنه ما كان يجب عليهم أن يختلفوا في هذا الوجوب ؛ لأن الله هو الذي أوجبه على نفسه في قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام/٥٤] . ويفسرون ذلك بأنه : ألزم نفسه ؛ فمن قال : إنه يجب عليه شيء؛ فإنما هو يحكي عنه ما ألزم نفسه به ، لا أنه يفرض على الله أن يفعل أو أن لا يفعل. وهم يعلمون أن الله صالح ، والصالح لا يصدر عنه إلا الصلاح ؛ فسواء أقالوا يجب عليه أو لم يقولوا ؛ فإن الصلاح سيصدر منه حتما ؛ لأنه هو اللائق به.

وقضية الصلاح والأصلح بين المعتزلة وأهل السنة موجودة في كتب أهل الكتاب ؛ ففي سفر ميخا : (أيها المسمَّى بيت يعقوب ، هل قصرت روح الرب ؟ أهذه أفعاله ؟ أليست أقوالي صالحة نحو من يسلك بالاستقامة ؟) [مي ٢ : ٧] .

وهذا هو معنى الصلاح والأصلح عندهم :

١- شريعة التوراة ؛ صلاح .

٢- وشريعة النبي الأمي الآتي على مثاله أصلح .

والله قد أنزل الصلاح ، وسوف ينزل الأصلح حسبما وعد ، فهل يجب على الله إنزال الأصلح أم لا يجب ؟

هذا هو معنى الصلاح والأصلح عندهم ؛ معناه : أنه لا يجب على الله إرسال محمد ﷺ حسبما وعد ؛ وذلك لأن شريعة التوراة صالحة ، وإن هو أصر على إنزال شريعة غيرها ؛ فلتكن على

واحد من بني إسرائيل ؛ إما من قرية السامريين وإما من قرية العبرانيين ؛ وذلك لأننا أهل الكتاب الأول ، ونحن نعرف أن نسوس الناس بها.

ولماذا يصر وهو لا يجب عليه شيء ؟ يعنون بالوجوب إنزال القرآن .

والمعتزلة يعرفون هذا المعنى ، ولذلك قالوا : يجب على الله إرسال الرسل وإنزال الكتب . ويردون به على اليهود قولهم ليس بواجب ، فإن شريعة التوراة تصلح لذلك إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين .

وقد تكلم الله عن هذا الوعد في القرآن فقال : ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام/٣٤].

وأوجب على نفسه ووفى بالوجوب وقال : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام/١١٤ : ١١٧] .

وفي الرسالة إلى العبرانيين عن عهد الشريعة الأولى ، ويصفها بأنها معيبة ، ولو لم تكن معيبة لما طُلب موضع لثان ؛ أي : لشريعة النبي الأمي الآتي وهو محمد ﷺ المكتوب عنه في الأصحاح الثامن عشر من سفر التثنية .

ويُستدل على مجيء الشريعة الثانية بكلام إرمياء عن العهد الجديد ، ويقول : (إنه ليس كالعهد الذي عمله مع آبائهم) . ثم يقول : (فإذا قال جديدًا عتّق الأول ، وأما ما عتق وشاخ ؛ فهو قريب من الاضمحلال) . أي : أن عهد التوراة اقترب وقت زواله ؛ لأن ملكوت السموات قد اقترب زمانه . وقال : (إن فرائض التوراة موضوعة إلى وقت الإصلاح ، الذي هو رمز للوقت الحاضر الذي فيه تقدم قرابين وذبائح لا يمكن من جهة الضمير أن تكمل

الذي يخدم ، وهي قائمة بأطعمة وأشربة وغلات مختلفة وفرائض جسدية فقط موضوعة إلى وقت الإصلاح) .

وانظر هنا إلى قوله : (وقت الإصلاح) . والمراد به : وقت العهد الجديد ؛ وهو وقت نزول الشريعة الجديدة على يد النبي الأمي الآتي .

وفي ترجمة أخرى : (فهي أحكام تخص الجسد ، وتقتصر على المأكل والمشرب ومختلف أساليب الغسل ، وكانت مفروضة إلى الوقت الذي يُصلح الله فيه كل شيء) .

لكن كاتب الرسالة إلى العبرانيين يقول : (إن وقت الإصلاح هو وقت ظهور المسيح عيسى بشريعته في زمن مجيئه الثاني المتزامن مع يوم القيامة) . ويُكذِّب قولَه قولُ المسيح في إنجيل يوحنا : (ولستُ أنا بعد في العالم) [يو ١١:١٧] . وأيضا : لما كان يبشر بملكوت السموات من قبل موته كان يقول : (ما جئت لأنقض الناموس) . وهو ناموس موسى .

هذا وقد جاء وصف الصلاح لله في أكثر من موضع :

- (احمدوا الرب ؛ لأنه صالح) . [٢ أى ٣:٧ مز ١:١٠٦ و١:١٠٧ و١:١٠٨و٢٩و١:١٣٦] .

- وجاء وصف الصلاح للنبي الآتي : (فاض قلبي بكلام صالح). [مز ١:٤٥].

وإليك نصين من كلام عيسى يبينان أنه كان يفسر آيات من التوراة تفسيرًا حسنًا ، ويبين معنى أن الله صالح :

النص الأول

(قرأ الكتبة في ذلك اليوم مزمور داود حيث يقول داود : متى وجدت وقتا أقضي بالعدل . وبعد قراءة الأنبياء انتصب يسوع ، وأومأ بإيماء السكوت بيديه وفتح فاه وتكلم هكذا : أيها الإخوة ، لقد سمعتم الكلام الذي تكلم به النبي داود أبونا أنه متى وجد وقتا قضى بالعدل ، إني أقول لكم حقا إن كثيرين يقضون فيخطئون ، وإنما يخطئون فيما لا يوافق أهواءهم ، وأما ما يوافقها فيقضون به قبل وقته ، كذلك يناديبا إله آبائنا على لسان نبيه داود قائلا : اقضوا بالعدل يا أبناء الناس ، فما أشقى أولئك الذين يجلسون على منعطفات الشوارع ولا عمل لهم إلا الحكم

على المارة ، قائلين : ذلك جميل وهذا قبيح ، ذلك حسن وهذا رديء . ويل لهم ؛ لأنهم يرفعون قضيب الدينونة من يد الله الذي يقول : إني شاهدٌ وقاضٍ، ولا أعطي مجدي لأحد . الحق أقول لكم إن هؤلاء يشهدون بما لم يروا ولم يسمعوا قط ، ويقضون دون أن يُنَصَّبوا قضاةً ، وأنهم لذلك مكروهون على الأرض ، أما عيني الله الذي سيدينهم دينونة رهيبة في اليوم الآخر ، ويل لكم ويل لكم أنتم الذين تمدحون الشر ، وتدعون الشر خيراً ؛ لأنكم تحكمون على الله بأنه أثيم وهو منشئ الصلاح ، وتبررون الشيطان كأنه صالح وهو مُنْشِئٌ كل شر ، فتأملوا أي قصاص يحل بكم وأن الوقوع في دينونة الله مخوف ، وستحل حينئذ على أولئك الذين يبررون الأثيم لأجل النقود ، ولا يقضون في دعوى اليتامى والأرامل . الحق أقول لكم إن الشياطين سيقشعرون من دينونة هؤلاء ؛ لأنها ستكون رهيبة جدا . أيها الإنسان المنصوب قاضيا ، لا تنظر إلى شيء آخر ، لا إلى الأقرباء ولا إلى الأصدقاء ولا إلى الشرف ولا إلى الربح ، بل انظر فقط بخوف الله إلى الحق الذي يجب عليك أن تطلبه باجتهاد أعظم ؛ لأنه يقيك دينونة الله ، ولكني أنذرك أنَّ مَنْ يُدين بدون رحمة يُدان بدون رحمة .

قل لي أيها الإنسان الذي تدين غيرك ، ألا تعلم أن منشأ كل البشر من طينة واحدة ، ألا تعلم أنه لا يوجد أحد صالح إلا الله وحده ؛ لذلك كان كل إنسان كاذبا وخاطئا ، صدقني أيها الإنسان إذا كنت تدين غيرك على ذنب فإن في قلبك منه ما تدان عليه ، ما أشد القضاء خطرا ، ما أكثر الذين هلكوا بقضائهم الجائر ، فالشيطان حكم على الإنسان بأن أنجس منه ؛ لذلك عصى الله خالقه ، تلك المعصية التي لم يتب عنها ، فإن لي علما بذلك من محادثتي إياه .

وقد حكم أبوانا الأولان بحسن حديث الشيطان ، فَطُرِدَا لذلك من الجنة . وقضيا على كل نسلهما . الحق أقول لكم لعمر الله الذي أقف في حضرته إن الحكم الباطل هو أبو كل الخطايا ؛ لأنه لا أحد يخطئ بدون إرادة ، ولا أحد يريد ما لا يعرف ، ويل إذن للخاطئ الذي يحكم في قضائه بأن الخطيئة صالحة والصلاح فساد ، الذي يرفض لذلك السبب الصلاح ويختار الخطيئة ، إنه سيحل به قصاص لا يطاق متى جاء الله ليدين العالم ، ما أكثر الذين هلكوا بسبب القضاء الجائر ، وما أكثر الذين أوشكوا أن يهلكوا ! قضى فرعون على موسى وشعب إسرائيل بالكفر

، وقضى شاول على داود بأنه مستحق الموت ، وقضى أحاب على إيليا ، ونَبُوخَذْنَصَّرَ على الثلاثة الغلمان الذين لم يعبدوا آلهتهم الكاذبة ، وقضى الشيخان على سوسنة ، وقضى كل الرؤساء عبدة الأصنام على الأنبياء ، ما أرهب قضاء الله يهلك القاضي وينجو المقضي عليه . ولماذا هذا أيها الإنسان من لم يكن ؛ لأنهم يحكمون على البريء ظلما بالطيش . ما كان أشد قرب الصالحين من الهلاك ؛ لأنهم حكموا باطلا . يتبين ذلك من قصة إخوة يوسف الذين باعوه من المصريين ، ومن هرون ومريم أخت موسى اللذين حكما على أخيهما ، وثلاثة من أصدقاء أيوب حكموا على خليل الله البريء أيوب . وداود قضى على مفيبوشت رأوريا ، وقضى كورش بأن يكون دانيال طعاما للأسود ، وكثيرون أشرفوا على الهلاك بسبب هذا . لذلك أقول لكم لا تدينوا فلا تدانوا .

فلما أنجز يسوع كلامه تاب كثيرون نائحين على خطاياهم ، وودوا لو يتركون كل شيء ويتبعونه ، ولكن يسوع قال : ابقوا في بيوتكم ، واتركوا الخطيئة ، واعبدوا الله بخوف ، فبهذا تخلصون ؛ لأني لم آتِ لأُخْدَمَ بل لأَخْدِمَ . ولما قال هذا ، خرج من المجمع والمدينة ، وانفرد في الصحراء ليصلي ؛ لأنه كان يحب العزلة كثيرًا . [برنابا ٤٩ +] .

النص الثاني:

(فدنا حينئذ أحد العلماء من يسوع : أيها المعلم الصالح قل لي لماذا لم يهب الله أبوينا حنطة وثمرا، فإنه إذا كان يعلم أنه لا بد من سقوطهما فمن المؤكد أنه كان يجب أن يسمح لهما بالحنطة أو ألا يرياها .

أجاب يسوع : إنك أيها الرجل تدعوني صالحًا، ولكنك تخطئ ؛ لأن الله وحده هو الصالح ، وإنك لأكثر خطأ في سؤالك لماذا لا يفعل الله حسب دماغك ، ولكن أجيبك عن كل شيء، فأفيدك إذن أن الله خالقنا لا يوفق في عدله نفسه لنا ، لذلك لا يجوز للخلوق أن يطلب طريقه وراحته، بل بالحري مجد الله خالقا ليعتمد المخلوق على الخالق لا الخالق على المخلوق، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته لو وهب الله كل شيء لما عرف الإنسان أنه عبد الله، ولكان حسب نفسه سيد الفردوس ، لذلك لحماه الله المبارك إلى الأبد .

الحق أقول لكم إن كل من كان نور عينيه جليًا يرى كل شيء جليًا ، ويستخرج من الظلمة نورًا ، ولكن الأعمى لا يفعل هكذا ؛ لذلك أقول لو لم يخطئ الإنسان لما علمتُ أنا ولا أنتَ رحمةَ الله وبِرَّهُ ، ولو خلق الله الإنسان غير قادر على الخطيئة لكان نِدًّا لله في ذلك الأمر ؛ لذلك خلق اللهُ المباركُ الإنسانَ صالحًا وبارًّا، ولكنه حر أن يفعل ما يريد من حيث حياته وخلاصه لنفسه أو لعنته.

فلما سمع العالم هذا اندهش وانصرف مرتبكا ، حينئذ دعا رئيس الكهنة سرا كاهنين شيخين وأرسلهم إلى يسوع الذي كان قد خرج من الهيكل وكان جالسا في رواق سليمان منتظرا ليصلي صلاة الظهر، وكان بجانبه تلاميذه مع جَمٍّ غَفيرٍ من الشعب .

فاقترب الكاهنان من يسوع وقالا : لماذا أكل الإنسان حنطة وثمرا ؟ هل أراد الله أن يأكلهما أم لا ؟ وإنما قالا هذا ليجرباه ؛ لأنه لو قال : إن الله أراد ذلك . لأجابا : لماذا نهى عنها ؟ وإذا قال : إن الله لم يرد ذلك . يقولان : إن للإنسان قوةً أعظم من الله ؛ لأنه يعمل ضد إرادة الله .

أجاب يسوع : إن سؤالكما كطريق في جبل ذي حرف عن اليمين وعن اليسار ولكن أسير في الوسط.

فلما سمع الكاهنان ذلك تحيَّرَا ؛ لأنهما أدركا أن يسوع قد فهم قلبيهما . ثم قال يسوع : لما كان كل إنسان محتاجا كان يعمل كل شيء لأجل منفعته ، ولكن الله الذي لا يحتاج إلى شيء عمل بحسب مشيئته ؛ لذلك لما خلق الإنسان خلقه حُرًّا ، ليعلم أن ليس لله حاجةٌ إليه ، كما يفعل الملك الذي يعطي حرية لعبده ليظهر ثروته وليكون عبيده أشد حبًّا له .

إذن قد خلق الله الإنسان حرا لكي يكون أشد حبا لخالقه وليعرف جوده ؛ لأن الله هو قادر على كل محتاج إلى الإنسان ، فإنه إذ خلقه بقدرته على كل شيء تركه حرا بجوده على طريقة يمكنه معها مقاومة الشر وفعل الخير ، وأن الله على قدرته على منع الخطيئة لم يرد أن يضاد جوده ؛ إذ ليس عند الله تضاد .

فلما عملت قدرته على كل شيء وجوده عملهما في الإنسان لم يقاوم الخطيئة في الإنسان ، لكي تعمل في الإنسان رحمة الله وبره ، وآية صدقي هي أن أقول لكما : إن رئيس الكهنة قد أرسلكما لتجرباني ، وهذا هو ثمر كهنوته .

فانصرف الشيخان وقصّا كل شيء على رئيس الكهنة ، الذي قال : إن وراء ظهر هذا الشخص الشيطان الذي يلقنه كل شيء ؛ لأنه يطمح إلى ملكية إسرائيل، ولكن الأمر في ذلك لله) [برنابا ١٥٤ +] .

الفصل السابع

أصول المعتزلة بين اليهودية والنصرانية

الفصل السابع
تأثر المعتزلة باليهودية والنصرانية

اقرأ أولاً :

في التوراة : (أنـا أنـا هـو ، ولـيس إلـه معـي) [تـث ٣٢:٣٩] ، وفي القـرآن : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص/١] .

وفي التوراة : (ليس مثل الله) [تـث ٣٣:٢٦] ، وفي القـرآن : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى/١١] .

وفي التوراة : (فتنسَّم الرب رائحة الرضا) [تك ٨:٢١] ، (فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسـف في قلبـه) [تـك ٦:٦] ، وفي القـرآن : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف/٥٥] .

وفي التوراة : (الرب يستهزئ بهـم) [مـز ٢:٤] ، وفي القـرآن : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة/١٥] .

وفي التوراة : (إليك رفعتُ عينيَّ يا ساكنًا في السموات) [مز ١٢٣:١] ، وفي القـرآن : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه/٥] ، ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ ﴾ [الملك/١٦] .

وفي التوراة : (تفتح يدك ؛ فتُشبع كل حي رضى) [مز ١٤٥:١٦] ، وفي القرآن : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة/٦٤] .

وفي التوراة : (ألعليَّ إله من قريب ؟ - يقول الرب - ولست إلهًا من بعيد ، إذا اختبأ إنسان في أماكن مستترة ، أفما أراه أنا ؟ يقول الرب . أما أملأ أنا السموات والأرض ؟ يقول الرب) [إر

٢٣:٢٤ ٢٥] ، وفي القرآن : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الملك/١٦] .

وبعد ذلك نقول :

١- اليهود هم أهل التوراة .

٢- والنصارى أتباع المسيح الأمناء الذين التزموا بتفسيره لها .

٣- والمسيحيون الذين يقولون : إنا نصارى . قد انفصلوا عن اليهود بسبب محمد ﷺ ، وكونوا لهم عقائد خاصة تضاد عقائد اليهود ، والتمسوا لكل عقيدة أدلة من التوراة .

وقد قرأتُ آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، وقرأت :

١- آراء اليهود .

٢- وآراء النصارى .

٣- وآراء المسيحيين .

ووجدتُ أن آراء المعتزلة هي آراء النصارى ، وآراء أهل السنة هي آراء المسيحيين .

ولأن العقائد في التوراة وفي القرآن محل اتفاق ؛ وضعوا بدل نص التوراة الذي يثبت عقيدة ما نص قرآن . ويكفي هاهنا إثبات المماثلة بأمثلة ، أما التأثير والتأثر وأزمنة الخداع وما أشبه ذلك ؛ فليس هاهنا محل بحثه .

١- يقول المعتزلة والنصارى الأمناء بالمجاز في القرآن وفي التوراة ، وينفيه أهل السنة والمسيحيون .

٢- صفة العلم لله غير ذات الله ، والذات هي الأصل ، والصفة زائدة على الذات ، وهكذا في سائر الصفات . والمعتزلة والنصارى ينفون الصفات على أنها زائدة ، ويثبتونها على أنها غير زائدة . وأهل السنة والمسيحيون يقولون بأن الصفات غير الذات ، وزائدة على الذات وغير منفكة عنها .

٣- يقول المعتزلة بأن القرآن مخلوق ، ويقول اليهود والنصارى والمسيحيون : إن التوراة مخلوقة . ويقول أهل السنة بأن القرآن قديم .

٤- يقول المعتزلة بأن دخول الجنة بالإيمان والعمل معًا ، وهذا هو قول النصارى ، ولذلك دخلوا في الإسلام في البدء . ويقول أهل السنة بأنّ الأعمال ليست شرط صحة في دخول الجنة . وهذا هو قول المسيحيين ، ويقولون أيضًا بأن الإنسان مسير لا مخير .

٥- وقالت المعتزلة والنصارى : لا بد من عقاب العاصي . واختلفوا في التأبيد. وقال أهل السنة : لا حرج على فضل الله . وقال المسيحيون : (سيُغفر لنا) .

٦- وأنكرت المعتزلة الشفاعة للنبي في عصاة المسلمين ، ولم ينكروا الشفاعة في فصل القضاء ، وهذا هو قول النصارى تبعًا لأقوال المسيح المدونة في إنجيل بَرْنابا . وأثبت أهل السنة الشفاعة في الأمرين معًا ، وبقولهم يقول المسيحيون .

٧- وأوجب المعتزلة والنصارى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على القادرين على ذلك ، ولم يُوجِبْهما أهل السنة .

٨- قالت المعتزلة : إن المسلم المرتكب للمعاصي ليس مسلمًا ، وفي الوقت نفسه ليس كافرًا وإنما هو فاسق ، والفسق منزلة وسط بين الإيمان والإسلام . وهذا هو قول النصارى . ويخالطون الفسقة لهدايتهم إلى التوبة . وقال أهل الحديث : هو مؤمن إن شاء الله .

والفرق بين المذهبين : أن المعتزلة يخالطون الفاسق لهدايته ، فإذا لم يهتدِ لا يصلون عليه من بعد موته ، وأهل السنة يخالطونه ويصلون عليه .

وتأثر الطائفتين المعتزلة وأهل السنة بالنصارى والمسيحيين ، ولم تظهر فيه كتب ، وهو موضوع يحتاج إلى مجلدات ، وأكتفي هاهنا بإيراد أمثلة تبين كيفية التأثر :

١- إثبات المجاز ونفيه أمثلته معروفة ؛ ومنها : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح/١٠] . فمن يثبت المجاز يقول : إن اليد كناية عن القدرة . وهذا هو قول المعتزلة والنصارى .

ومن ينفي المجاز يقول : يد لا نعلم لها مثلاً . وهذا هو قول اليهود الفَرِّيسيِّين ؛ ففي الأصحاح الرابع بعد المائة من إنجيل برنابا : (يا معلم ، إنك لقد اعترفت أمام اليهودية كلها بأن ليس لله

من شبَهٍ كالبشر ، وقلتَ الآن : إن الإنسان ينال من يد الله . فإذا كان لله يدان ؛ فله إذن شبَه بالبشر ؟ أجاب يسوع : إنك لفي ضلال يا متى ... إلخ) .

٢- زيادة الصفات عن الذات يقول بها المسيحيون ؛ لأن المسيح عندهم (كلمة الله) ، وقد قالوا : إن الكلمة غير الله ، والكلمة هو المسيح . فيكون المسيح غير الله ؛ فيكونان إلهان .

٣- ينفي المعتزلة التجسيم من قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى/١١]. وفي التوراة : (ليس مثل الله) . وإذا انتفى التجسيم ، تنتفي رؤية الله – على رأي المعتزلة – . وبقولهم يقول النصارى كما في الإنجيل في الأصحاح الرابع بعد المائة والخامس بعد المائة من إنجيل برنابا ، واستدل فيه على نفي الرؤية بقول إشعياء :(هو محتجب عن الحواس البشرية) [إش ٤٥ : ١٥] .

أما المسيحيون فلقولهم (الله ظهر في الجسد) . أي : أن الله ظهر في الجسد ؛ فإنهم بهذا القول يُثبتون الرؤية . وهم مضطرون لإثباتها ؛ لأن المسيح عندهم هو الله وقد رأوه وتحدثوا معه .

٤- يثبت المسيحيون أن صفة الكلام لله قديمة ؛ ليتوصلوا بها إلى قدم المسيح قدم الله . وإذا ثبت القدم لله وهو إله ، وعندهم أن المسيح إله يثبت قدمه .

٥- النصارى كانوا يشددون على العمل بالتوراة إلى أن يظهر محمد رسول الله ﷺ ، والمعتزلة يشددون على العمل بالقرآن ، والمسيحيون لا يعملون بالتوراة ويقولون : إن الإيمان بالمسيح ربًا مصلوبًا يكفي في دخول الجنة . ففي رسالة بولس إلى أهل رومية :

(أيها الإخوة ، إن مسرة قلبي وطلبتي إلى الله لأجل إسرائيل هي للخلاص ؛ لأني أشهد لهم أن لهم غيرة لله ولكن ليس حسب المعرفة ؛ لأنهم إذا كانوا يجهلون بر الله ويطلبون أن يثبتوا بر أنفسهم لم يخضعوا لبر الله ؛ لأن غاية الناموس هي المسيح للبر لكل من يؤمن ؛ لأن موسى يكتب في البر الذي بالناموس إن الإنسان الذي يفعلها سيحيا بها . وأما البر الذي بالإيمان فيقول هكذا : لا تقل في قلبك من يصعد إلى السماء – أي : ليحدر المسيح – أو من يهبط إلى الهاوية – أي : ليصعد المسيح من الأموات – ، لكن ماذا يقول : الكلمة قريبة منك في فمك وفي قلبك – أي : كلمة الإيمان التي نكرز بها – ؛ لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع

وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت ؛ لأن القلب يؤمن به للبر والفم يعترف به الخلاص .

لأن الكتاب يقول : كل من يؤمن به لا يخزى ؛ لأنه لا فرق بين اليهودي واليوناني ؛ لأن ربا واحد للجميع غنيا لجميع الذين يدعون به ؛ لأن كل من يدعو باسم الرب يخلص . فكيف يدعون بمن لم يؤمنوا به ، وكيف يؤمنون بمن لم يسمعوا به ، وكيف يسمعون بلا كارز ، وكيف يكرزون إن لم يرسلوا ؟ كما هو مكتوب : ما أجمل أقدام المبشرين بالسلام المبشرين الخيرات .

لكن ليس الجميع قد أطاعوا الإنجيل ؛ لأن إشعياء يقول : يا رب من صدق خبرنا ، إذا الإيمان بالخبر والخبر بكلمة الله . لكنني أقول : ألعلهم لم يسمعوا . بلى إلى جميع الأرض صوتهم ، وإلى صوتهم وإلى أقاصي المسكونة أقوالهم . لكني أقول : ألعل إسرائيل لم يعلم . أولا موسى يقول : أنا أغيركم بما ليس أمة ؛ بأمة غبية أغيظكم . ثم إشعياء يتجاسر ويقول : وجدت من الذين لم يطلبوني ، وصرت ظاهرًا للذين لم يسألوا عني . أما من جهة إسرائيل فيقول طول النهار : بسطتُ يدي إلى شعب معاند ومقاوم) [رومية ٩] .

٦- من الأصول المقررة في التوراة ويقر بها اليهود والنصارى أنه لا بد من عقاب العاصي .

والمعتزلة يقولون بوجوب العقاب للعاصي حسبما جاء في القرآن عن الوعيد .

أما المسيحيون فإنهم يقولون : إن المسيح قد رفع الخطايا عمن آمنوا به ، حتى ولو لم يعملوا عملاً صالحًا ، أو عملوا عملاً سيئًا ؛ ففي سفر حزقيال :

(وكان إلي كلام الرب قائلاً : ما لكم أنتم تضربون هذا المثل على أرض إسرائيل قائلين : الآباء أكلوا الحصرم ، وأسنان الأبناء ضرست . حي أنا يقول السيد الرب : لا يكون لكم من بعد أن تضربوا هذا المثل في إسرائيل . ها كل النفوس هي لي ، نفس الأب كنفس الابن كلاهما لي ، النفس التي تخطئ هي تموت، والإنسان الذي كان بارًا وفعل حقًا وعدلاً لم يأكل على الجبال ، ولم يرفع عينيه إلى أصنام بيت إسرائيل ، ولم ينجس امرأة قريبه ، ولم يقرب امرأة طامثا ، لم يظلم إنسانًا بل رد للمديون رهنه ، ولم يغتصب اغتصابا بل بذل خبزه للجوعان وكسا العريان

توابا ، ولم يعط بالربا ، ولم يأخذ مرابحة ، وكف يده عن الجور ، وأجرى العدل الحق بين الإنسان والإنسان ، وسلك في فرائضي وحفظ أحكامي ليعمل بالحق فهو بار ، حياة يحيا يقول السيد الرب .

فإن ولد ابنا معتنفا سفاكَ دمٍ ففعل شيئاً من هذه ، ولم يفعل كل تلك بل أكل على الجبال ونجس امرأة قريبة وظلم الفقير والمسكين واغتصب اغتصابا ، ولم يرد الرهن وقد رفع عينيه إلى الأصنام ، وفعل الرجس ، وأعطى بالربا ، وأخذ المرابحة أفيحيا ؟! لا يحيا . قد عمل كل هذه الرجاسات ، فموتا يموت ، دمه يكون على نفسه .

وإن ولد ابنا ، رأى جميع خطايا أبيه التي فعلها فرآها ولم يفعل مثلها ، لم يأكل على الجبال ولم يرفع عينيه إلى أصنام بيت إسرائيل ، ولا نجس امرأة قريبة ، ولا ظلم إنسانا ، ولا ارتهن رهنا ، ولا اغتصب اغتصابا بل بذل خبزه للجوعان ، وكسا العريان ثوبا ، ووفع يده عن الفقير ، ولم يأخذ ربا ، ولا مرابحة ، بل أجرى أحكامي وسلك في فرائضي فإنه لا يموت بإثم أبيه . حياة يحيا .

أما أبوه فلأنه ظلم ظلمًا ، واغتصب أخاه اغتصابا ، وعمل غير الصالح بين شعبه ، فهو ذا موت بإثمه .

وأنتم تقولون لماذا لا يحمل الابن من إثم الأب ؟ أما الابن فقد فعل حقا وعدلا حفظ جميع فرائضي وعمل بها فحياة يحيا ، النفس التي تخطئ تموت ، الابن لا يحمل من إثم الأب والأب لا يحمل من إثم الابن ، بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون . فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها ، وحفظ كل فرائضي وفعل حقا وعدلا ، فحياة يحيا لا يموت ، كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه في بره الذي عمل يحيا . هل مسرة أسر بموت الشرير يقول السيد الرب . ألا بر جرعه عن طرقه فيحيا .

وإذا رجع البار عن بره وعمل إثما وفعل مثل كل الرجاسات التي يفعلها الشرير أفيحيا . كل بره الذي عمله لا يذكر . في خيانته التي خانها وفي خطيئته التي أخطأ بها يموت .

وأنتم تقولون ليست طريق الرب مستوية ، فاسمعوا الآن يا بيت إسرائيل ، أطرقي هي غير مستوية ؟ أليست طرقكم غير مستوية ؟ إذا رجع البار عن بره وعمل إثما ومات ، فبإثمه الذي عمله يموت .

وإذا رجع الشرير عن شره الذي فعل وعمل حقا وعدلا فهو يحيي نفسه ، رأى فرجع عن كل معاصيه التي عملها فحياة يحيا لا يموت .

وبيت إسرائيل يقول ليست طريق الرب مستوية ، أطرقي غير مستقيمة يا بيت إسرائيل ؟ أليست طرقكم غير مستقيمة ؟ من أجل ذلك أقضي عليكم يا بيت إسرائيل كل واحد كطرقه يقول السيد الرب . توبوا وارجعوا عن كل معاصيكم ولا يكون لكم الإثم مهلكة ، اطرحوا عنكم كل معاصيكم التي عصيتم بها واعلموا لأنفسكم قلبًا جديدًا وروحًا جديدةً ، فلماذا تموتون يا بيت إسرائيل ؟ لأني لا أُسَرُّ بموت من يموت يقول السيد الرب . فارجعوا واحيوا) [حزقيال ١٨] .

وفي الإنجيل عن غفران الخطايا :

(يا أولادي ، أكتب إليكم هذا ؛ لكي لا تخطئوا . وإن أخطأ أحد ، فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار وهو كفارة لخطايانا ، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضا ، وبهذا نعرف أننا قد عرفناه إن حفظنا وصاياه .

من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه ، فهو كاذب وليس الحق فيه . وأما من حفظ كلمته ، فحقا في هذا قد تكملت محبة الله ، بهذا نعرف أننا فيه . من قال : إنه ثابت فيه ينبغي أنه كما سلك ذاك ، هكذا يسلك هو أيضا .

أيها الإخوة ، لست أكتب إليكم وصية جديدة ، بل وصية قديمة كانت عندكم من البدء . الوصية القديمة هي الكلمة التي سمعتموها من البدء ، أيضا وصية جديدة أكتب إليكم ما هو حق فيه وفيكم أن الظلمة قد مضت ، والنور الحقيقي الآن يضيء .

من قال : إنه في النور وهو يبغض أخاه ، فهو إلى الآن في الظلمة . من حب أخاه يثبت في النور ، وليس فيه عثرة . وأما من يبغض أخاه ، فهو في الظلمة وفي الظلمة يسلك ، ولا يعلم أين يمضي ؛ لأن الظلمة أعمت عينيه .

أكتب إليكم أيها الأولاد ؛ لأنه قد غفرت لكم الخطايا من أجل اسمه ، أكتب إليكم أيها الآباء ؛ لأنكم قد عرفتم الذي من البدء) [يوحنا الأولى ١:٢] .

٧- أنكرت المعتزلة الشفاعة للعصاة ، وأثبتوها لمحمد رسول الله ﷺ في فصل القضاء كما في إنجيل بَرْنابا في الأصحاح الرابع والخمسين وما بعده ، وهم مثل النصارى في الإنكار وفي الإثبات .

واليهود يثبتونها للعبد المتألم ؛ وهو النبي المنتظر محمد ﷺ ، ويزعمون أن النبي المنتظر سيظهر منهم ، وإذ هو في زعمهم ليس محمدا رسول الله ﷺ ؛ ولن يشفع فيهم محمد أنكروا الشفاعة .

أما المسيحيون فإنهم سرقوا نبوءة العبد المتألم ووضعوها على عيسى ، وقالوا : إنه هو الشفيع .

لذلك يثبت أهل السنة الشفاعة على هذا المعنى ؛ معنى الشفاعة للعصاة حتى ولو لم يعملوا عملاً صالحًا ، وينفيها المعتزلة على هذا المعنى ، وهم يعلمون أن العبد المتألم من إعراض الناس عن دعوته هو محمد .

وهذه هي النبوءة :

(هو ذا عبدي ، يعقل يتعالى ويرتقي ويتسامي جدًا كما اندهش منك كثيرون. كان منظره كذا مفسدًا أكثر من الرجل وصورته أكثر من بني آدم . هكذا ينضح أمما كثيرين ، من أجله يسد ملوك أفواههم ؛ لأنهم قد أبصروا ما لم يخبروا به وما لم يسمعوه فهموه .

من صدق خبرنا ولمن استعلنت ذراع الرب ، نبت قدامه كفرخ وكعرق من أرض يابسة لا صورة ولا جمال فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه ، محتقر ومخذول من الناس .

لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ، ونحن حسبناه مصابا مضروبا من الله ومذلولا ، وهو مجروح لأجل معاصينا ، مسحوق لأجل آثامنا تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا . كلنا كغنم

ضللنا ، ملنا كل واحد إلى طريقه ، والرب وضع عليه إثم جميعنا ظلم أما هو فتذلل و لم يفتح فاه ، كشاة تساق إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه .

من الضغطة ومن الدينونة أخذ ، وفي جيله من كان يظن أنه قطع من أرض الأحياء أنه ضرب من أجل ذنب شعبي . وجعل مع الأشرار قبره ومع غنى عند موته . على أنه لم يعمل ظلمًا و لم يكن في فمه غش .

أما الرب فسر بأن يسحقه الحزن . إن جعل نفسه ذبيحة إثم يرى نسلا تطول أيامه ومسرة الرب بيده تنجح . من تعب نفسه يرى ويشبع ، وعبدي البار بمعرفته يبرر كثيرين وآثامهم هو يحملها . لذلك أقسم له بين الأعزاء ومع العظماء يقسم غنيمة من أجل أنه سكب للموت نفسه وأحصي مع أثمه وهو حمل خطية كثيرين وشفع في المذنبين) .

ثم تكلم عن مجد الكعبة فقال :

(ترنمي أيتها العاقر ، التي لم تلد أشيدي بالترنم ، أيتها التي لم تمخض ؛ لأن بنى المستوحشة أكثر من بنى البعل قال الرب . أوسعي مكان خيمتك ، ولتبسط شقق مساكنك ، لا تمسكي ، أطيلي أطنابك ، وشددي أوتادك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار ويرث نسلك أممًا ، ويعمر مدنا خربة .

لا تخافي ؛ لأنك لا تخزين ، ولا تبخلي ؛ لأنك لا تستحين ، فإنك تنسين خزي صباك وعار ترملك لا تذكرينه بعد ؛ لأن بعلك هو صانعك رب الجنود اسمه ووليك قدوس إسرائيل إله كل الأرض يدعى ؛ لأنه كامرأة مهجورة ومحزونة الروح دعاك الرب وكزوجة الصبا إذا رذلت قال إلهك .

لحيظة تركتك وبمراحم عظيمة سأجمعك ، بفيضان الغضب حجبت وجهي عنك لحظة وبإحسان أبدي أرحمك قال وليك الرب ؛ لأنه كمياه نوح هذه لي كما حلفت أن لا تعبر مياه نوح على الأرض هكذا حلفت ألا أغضب عليك ولا أزجرك . فإن الجبال تزول والآكام تتزعزع ، أما إحساني فلا يزول عنك وعهد سلامي لا يتزعزع قال راحمك الرب .

أيتها الذليلة المضطربة غير المتعزية هأنذا أبني بالإثمد حجارتك ، وبالياقوت الأزرق أؤسسك وأجعل شرفك ياقوت وأبوابك حجارة بهرمانية ، وكل تخومك حجارة كريمة ، وكل بنيك تلاميذ الرب وسلام بنيك كثيرا .

بالبر تثبتين بعيدة عن الظلم فلا تخافين ، وعن الارتعاب فلا يدنو منك . ها إنهم يجتمعون اجتماعًا ليس من عندي . من اجتمع عليك فإليك يسقط ، هأنذا قد خلقت الحداد الذي ينفخ الفحم في النار ، ويخرج آلة لعلمه وأنا خلقت المهلك ليخرب .

كل آلة صورت ضدك لا تنجح ، وكل لسان يقوم عليك في القضاء تحكمين عليه ، هذا هو ميراث عبيد الرب وبرهم من عندي يقول الرب) .

وعاد إلى الكلام عن النبي الآتي فقال :

(أيها العطاش جميعا ، هلموا إلى المياه والذي ليس له فضة تعالوا اشتروا وكلوا هلموا اشتروا بلا فضة ولا ثمن خمرا ولبنا . لماذا تزِنُونَ فضةً لغير خبز وتعبكم لغير شبع .

استمعوا لي استماعا وكلوا الطيب ولتتلذذ بالدسم أنفسكم ؛ أميلوا آذانكم وهلموا إليَّ ، اسمعوا فتحيا أنفسكم وأقطع لكم عهدا أبديا مراحم داود الصادقة . هو ذا قد جعلته شارعا للشعوب ، رئيسا وموصيا للشعوب ، ها أمة لا تعرفها تدعوها وأمة لم تعرفك ، تركض إليك من أجل الرب إلهك وقدوس إسرائيل ؛ لأنه قد مجدك .

اطلبوا الرب ما دام يوجد فادعوه وهو قريب ، ليترك الشرير طريقه ورجل الإثم أفكاره ، وليتب إلى الرب فيرحمه وإلى إلهنا ؛ لأنه يكثر الغفران ؛ لأن أفكاري ليست أفكاركم ، ولا طرقكم طرقي يقول الرب ؛ لأنه كما علت السموات عن الأرض هكذا علت طرقي عن طرقكم وأفكاري عن أفكاركم ؛ لأنه كما ينزل المطر والثلج من السماء ولا يرجعان إلى هناك بل يرويان الأرض ويجعلانها تلد وتنبت وتعطي زرعا للزراع وخبزا للآكل هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي، لا ترجع إلي فارغة ، بل تعمل ما سررت به وتنجح في ما أرسلتها له ؛ لأنكم بفرح تخرجون وبسلام تحضرون . الجبال والآكام تشيد أمامكم ترنما وكل شجر الحقل

تصفق بالأيادي عوضا عن الشوك ينبت سرو وعوضا عن القريس يطلع آس، ويكون للرب اسمًا علامة أبدية لا تنقطع) .

٨- في التوراة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب ، وبذلك يقول النصارى و المعتزلة . وفي الإنجيل الأمر بالخضوع للسلاطين ، وخضوع النساء للرجال ، وبذلك يقول أهل السنة بأنه غير واجب ولا يجوز الخروج على السلطان .

ففي التوراة :

(فجاء إلى رجال من شيوخ إسرائيل وجلسوا أمامي ، فصارت إلى كلمة الرب قائلة : يابن آدم ، هؤلاء الرجال قد أصعدوا أصنامهم إلى قلوبهم ، ووضعوا معثرة إثمهم تلقاء أوجههم ، فهل أسأل منهم سؤالاً ؟

لأجل ذلك كلمهم وقل لهم : هكذا قال السيد الرب ؛ كل إنسان من بيت إسرائيل الذي يصعد أصنامه إلى قلبه ، ويضع معثرة إثمه تلقاء وجهه ، ثم يأتي إلى النبي ، فإني أنا الرب أجيبه حسب كثرة أصنامه ؛ لكي آخذ بيت إسرائيل بقلوبهم؛ لأنهم كلهم قد ارتدوا عني بأصنامهم .

لذلك قل لبيت إسرائيل : هكذا قال السيد الرب ؛ توبوا وارجعوا عن أصنامكم وعن كل رجاساتكم اصرفوا وجوهكم ؛ لأن كل إنسان من بيت إسرائيل أو من الغرباء المتغربين في إسرائيل إذا ارتد عني وأصعد أصنامه إلى قلبه ووضع معثرة إثمه تلقاء وجهه ، ثم جاء إلى النبي ليسأله عني فإني أنا الرب أجيبه بنفسي ، وأجعل وجهي ضد ذلك الإنسان ، وأجعله آية ومَثَلاً ، وأستأصله من وسط شعبي ، فتعلمون أني أنا الرب . فإذا ضل النبي وتكلم كلاما ، فأنا الرب)[برنابا ١٥٤] .

وفي الإنجيل :

(أيها الأحباء أطلب إليكم كغرباء ونزلاء أن تمتنعوا عن الشهوات الجسدية التي تحارب النفس . وأن تكون سيرتكم بين الأمم حسنة لكي يكونوا في ما يفترون عليكم كفاعلي شر يمجدون الله في يوم الافتقاد من أجل أعمالكم الحسنة التي يلاحظونها ، فاخضعوا لكل ترتيب بشرى من أجل الرب ، إن كان للملك فكمن هو فوق الكل أو للولاة فكمرسلين منه للانتقام من فاعلي

الشر ، وللمدح لفاعلي الخير ؛ لأن هكذا هي مشيئة الله أن تفعلوا الخير فتسكتوا جهالة الناس الأغبياء . كأحرار وليس كالذين الحرية عندهم سترة للشر بل كعبيد الله ، أكرموا الجميع أحبوا الإخوة ، خافوا الله ، أكرموا الملك .

أيها الخدام كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة ليس الصالحين المترفقين فقط بل للعنفاء أيضًا ؛ لأن هذا فضل إن كان أحد من أجل ضمير نحو الله يحتمل أحزانا متألما بالظلم ؛ لأنه أي مجد هو إن كنتم تلطمون مخطئين فتصبرون . بل كنتم تتألمون عاملين الخير فتصبرون فهذا فضل عند الله ؛ لأنكم لهذا دعيتم ، فإن المسيح أيضا تألم لأجلنا تاركا لنا مثالا لكي تتبعوا خطواته . الذي لم يفعل خطية ولا وجد في فمه مكر . الذي إذ شتم لم يكن عوضا وإذ تألم لم يكن يهدد بل كان يسلم لمن يقضي بعدل . الذي حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الخشبة لكي نموت عن الخطايا فنحيا للبر . الذي بجلدته شفيتم ؛ لأنكم كنتم كخراف ضالة لكنكم رجعتم الآن راعي نفوسكم وأسقفها .

كذلكن أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن حتى وإن كان البعض لا يطيعون الكلمة يربحون بسيرة النساء بدون كلمة ملاحظين سيرتكن الطاهرة بخوف . ولا تكن زينتكن الزينة الخارجية من ضفر الشعر والتحلي بالذهب ولبس الثياب بل إنسان القلب الخفي في العديمة الفساد زينة الروح الوديع الهادئ هو قدام الله كثير الثمن . فإنه هكذا كانت قديمًا النساء القديسات أيضا المتوكلات على الله يزين أنفسهن خاضعات لرجالهن . كما كانت سارة تطيع إبراهيم داعية إياه سيدها . التي صرتن أولادها صانعات خيرا وغير خائفات خوفا البتة . كذلكم أيها الرجال كونوا ساكنين بحسب الفطنة مع الإناء النسائي كالأضعف معطين إياهن كرامة كاوارثات أيضا معكم نعمة الحياة لكي لا تعاق صلواتكم . والنهاية كونوا جميعا متحدى الرأى بحس واحد ذوى محبة أخوية مشفقين لطفاء غير مجازين عن شر بشر أو عن شتيمة بل العكس مباركين عالمين أنكم لهذا عيتم لكي ترثوا بركة ؛ لأن من أراد أن يحب الحياة ويرى أياما صالحة ، فليكفف لسانه عن الشر وشفتيه أن تتكلما بالمكر ليعرض عن الشر ويصنع الخير ليطلب السلام

ويجد في أثره ؛ لأن عيني الرب على الأبرار وأذنيه إلى طلبتهم . ولكن وجه الرب ضد فاعلي الشر ، فمن يؤذيكم إن كنتم متمثلين بالخير ؟ [بطرس الأولى] .

٩- مخالطة الفاسق ممنوعة عند اليهود ، ولا يمنعها المعتزلة ، ولا يمنعها المسيحيون ؛ ففي الأصحاح الخامس من إنجيل لوقا :

(وبعد هذا خرج فنظر عشارا اسمه لاوى جالسا عند مكان الجباية ، فقال له : اتبعني . فترك كل شيء وقام وتبعه . وصنع له لاوى ضيافة كبيرة في بيته ، والذين كانوا متكئين معهم كانوا جمعا كثيرا من عشارين وآخرين . فتذمر كتبتهم والفريسيون على تلاميذه قائلين : لماذا تأكلون وتشربون مع عشارين وخطاة ؟ فأجاب يسوع وقال لهم : لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى ، لم آتِ لأدعوَ أبرارًا بل خطاةً إلى التوبة) .

فاليهود كانوا يملكون على العالم . ليهدوا العالم إلى الله بشريعة موسى إلى أن يظهر محمد رسول . فلما اقترب وقت ظهوره ، استعدوا لأنكاره .

ومن الحيل التي علموها لأنكاره أنهم أجبروا المسيحيين بقوة أهل الروم على أن يقولوا : إن النبي المنتظر هو عيسى . وبذلك صار اليهود والمسيحيون ملوكا على العالم . وهما طائفتان من دين واحد .

ومن بعد ظهور الإسلام ، صار مَثَلُهم جميعا كمَثَلِ الشيطان الذي كان يعبد الله من قبل آدم ، فلما خلق الله آدم وأمره بالسجود له ، حسده واستكبر عن السجود له ؛ ولذلك طُرِد من الجنة .

ولما طرد من الجنة أراد أن يُطرَد منها آدم ، فيكونان معا متساويان في اللعنة . لكن آدم تاب وتاب الله عليه ، وظل الشيطان على العصيان .

وهذا هو حال اليهود فإنهم كانوا من قبل الإسلام ملوكًا ، ومن بعد الإسلام ليس لهم ملك . فكيف يتركون المسلمين في مرضاة الله ؟ لذلك يتعاونون مع الشيطان على إفساد المسلمين ، ولا يفسدونهم إلا إذا ملكوا على العالم .

وكيف يملكون وقد نسخ الله التوراة ونزع منهم الملك ؟ وإنهم من حين تأسيسهم المسيحية في زمن قسطنطين الرومانى سنة ٣٢٥م حاكمون على العالم عن طريق المسيحيين ، فإنهم يهود ، سموا أنفسهم مسيحيين ؛ لأنكار محمد ﷺ من قبل ظهوره .

ولما ظهر الإسلام بين أنهم : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [الجاثية/١٩] .

١٠- يؤمن اليهود بتأثير السحر في أجساد الناس ، والمسيحيون مثلهم .

وأما النصارى فإنهم لا يثبتون له تأثيرا ، وبقولهم يقول المعتزلة .

وكلام المسيح في هذا الشأن موجود في إنجيل الدِّيداكي .

وفي كتاب التوراة :

أ- أن الله تعالى نهى اليهود عن الاعتقاد في السحر وعن تعلمه وعن الاشتغال به، وقال لهم : لا تسمعوا كلام السحرة والمنجمين والعرافين .

ب- واسمعوا من نبي سوف أرسله إليكم ليقيم لكم الدين .

ولما جاء محمد ﷺ ولم يسمعوا منه ، وسمعوا من قبل بزمان طويل للسحرة والمنجمين والعرافين .

وهذا هو النص بتمامه من الأصحاح الثامن عشر من سفر تثنية الاشتراع :

(متى دخلت الأرض التي يعطيك الرب إلهك ؛ لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم ، لا يُوجد فيك من يُجيز ابنه أو ابنته في النار ، ولا من يَعرُف عِرافة ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر ، ولا من يرقي رقية ، ولا من يسأل جانًا أو تابعة ولا من يستشير الموتى ؛ لأن من فعل ذلك مكروه عند الرب .

وبسبب هذه الأرجاس الرب إلهك طاردهم من أمامك ، تكون كاملا لدى الرب إلهك .

إن هؤلاء الأمم الذين تخلفهم يسمعون للعائفين والعرافين ، وأما أنت فلم يسمح لك الرب إلهك هكذا .

يُقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك ، مثلى ، له تسمعون . حسب كل ما طلبت من الرب إلهك في حوريب ، يوم الاجتماع قائلا : لا أعود أسمع صوت الرب إلهي ، ولا أرى هذه النار العظيمة أيضًا ؛ لئلا أموت .

قال لي الرب : قد أحسنوا فيما تكلموا ، أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيته به ، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه .

وأما النبي الذي يطغى ؛ فيتكلم باسمي كلاما لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى ، فيموت ذلك النبي .

وإن قلتَ في قلبك : كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب ؟ فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر ؛ فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب ، بل بطغيانٍ تكلم به النبي ؛ فلا تخف منه) [تثنية ١٨ : ٩ ٢٢] .

وقد جاء هذا الموضع في سورة البقرة هكذا :

١- أنهم علَّموا السحر .

٢- أمرهم بقوله : ﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ . أي : لا تسمعوا من السحرة ، واسمعوا من النبي الأمي الذي جاء ليقيم لكم الدين .

٣- أزال اعتراضهم في نسخ القرآن للتوراة .

٤- أمرهم بألا يقولوا : ﴿ رَاعِنَا ﴾ ؛ لأن من نبوءات التوراة عن محمد : أنه إذا جاء يرعاهم بشريعته ، وإذ هي جاءت ، فأي فائدة من قولهم لله :﴿ رَاعِنَا ﴾ ؟!

٥- أمرهم بأن يقولوا : ﴿ انظُرْنَا ﴾ . وقد تحنن الله عليهم بإرسال النبي ؛ وفي النبوءات عنه أنهم قالوا لله : تحنن علينا ببعثته .

فلما ظهر الإسلام ، أنكر المعتزلة السحر ، وقالوا : إنه تخييل وإيهام ولا حقيقة له ولا تأثير . وهم في ذلك مرافقون للنصارى الذين تأثروا بآراء المسيح ؛ لأنه نهى عن السحر في إنجيل الدِّيداكي . وأثبت أهل السنة السحر وأن له تأثيرًا .

والمسيحيون يستعملونه إلى هذا اليوم هم واليهود ، ويعزِّمون على الشياطين أن تخرج من أجساد الناس باسم يسوع .

وفي كتاب الإنجيل :

(ثم دخل المجمع وكان يجاهر مدة ثلاثة أشهر محاجا ومقنعا فيما يختص ملكوت الله ، ولما كان قوم يتقسون ولا يقنعون شاتمين الطريق أمام الجمهور ؛ اعتزل عنهم، وأفرز التلاميذ محاجا كل يوم مدرسة إنسان اسمه تيرانس .

وكان ذلك مدة س، نتين حتى سمع كلمة الرب يسوع جميع الساكنين في آسيا من يهود ويونانيين .

وكان الله يصنع على يدى بولس قوات غير المعتادة ، حتى كان يؤتى عن جسده بمناديل أو مآزر إلى المرضى فتزول عنهم الأمراض وتخرج الأرواح الشريرة منهم .

فشرع قوم من اليهود الطوافين المعزمين أن يسموا على الذين بهم الأرواح الشريرة باسم الرب يسوع قائلين : نقسم عليك بيسوع الذي يكرز به بولس . وكان سبعة بنين لسكاوا رجل يهودي رئيس كهنة الذين فعلوا هذا .

فأجاب الروح الشرير وقال : أما يسوع فأنا أعرفه ، وبولس أنا أعلمه ، وأما أنتم فمن أنتم ؟ فوثب عليهم الإنسان الذي كان فيه الروح الشرير وغلبهم وقوي عليهم ، حتى هربوا من ذلك البيت عراة ومجروحين .

وصار هذا معلومًا عند جميع اليهود واليونانيين الساكنين في أفَسُس ، فوقع خوف على جميعهم . وكان اسم الرب يسوع تعظم ، وكان كثيرون من الذين آمنوا يأتون مقرين ومخبرين بأفعالهم ، وكان كثيرون من الذين يستعملون السحر يجمعون الكتب ويحرقونها أمام الجميع . وحسبوا أثمانها ، فوجدوها خمسين ألفا من الفضة ، هكذا كانت كلمة الرب تنمو بشدة) [أعمال ١٩ : ٨ - ٢٠] .

لاحظ : ١- أنه كان يبشر بملكوت الله ؛ وهو ملكوت محمد ، ويُقلّب التبشير على المسيح .

٢- (اعتزل عنهم ، وأفرز التلاميذ ، محاجا كل يوم في مدرسة إنسان اسمه تيرانُس) . والاعتزال هنا معناها : الانفصال عن اليهود .

وفي القرآن الكريم أن المصريين لما ألقوا حبالهم وعصيهم : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ . ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف/١١١-١١٦] .

١١- ويؤمن اليهود بمذهب الجبر ، والمسيحيون مثلهم [ينظر : رومية ٩] .

أما النصارى فإنهم يؤمنون بمذهب الحرية ، ويقولهم بقول المعتزلة .

ففي إنجيل برنابا :(يزعم الفريسيون أن كل شيء قُدِّر على طريقة لا يمكن معها لمن كان مختارا أن يصير منبوذا ، ومن كان منبوذا لا يتسنّى له بأية وسيلة كانت أن يصير مختارا ، وأنه كما أن الله قدر أن يكون عمل الصلاح هو الصراط الذي يسير في المختارون إلى الخلاص ، هكذا قدر أن تكون الخطيئة هي الطريق الذي يسير فيه للمنبوذين إلى الهلاك ، لعن اللسان الذي نطق بهذا ، واليد التي سطرته ؛ لأن هذا إنما هو اعتقاد الشيطان ... إلخ) [برنابا ١٦٤] .

١٢- خلق التوراة : جاء في كتاب ظهر على الإنترنت عنوانه بالإنجليزية (الطريق إلى التوراة) تأليف : (نويستر) عام ١٩٧٠م بأمريكا :

(إن الله خلق سبعة أشياء قبل خلق العالم بألفين من السنين :

١- التوراة .

٢- والعرش .

٣- والجنة .

٤- والنار .

٥- وصورة القدس .

٦- واسم المسيح .

٧- وصوت يصرخ : عودوا إليّ أيها الجهال) .

وهو يعني بذلك أن الله وحده هو الخالق بقدرته ، ثم نبه على هذه المخلوقات السبعة لأهميتها .

والمسيح هو لقب للنبي المنتظر ؛ وهو محمد رسول الله ﷺ ، وأنه مكتوب على باب الجنة .

وقد قال بذلك المسيح عيسى في إنجيل برنابا من قبل ولادة هذا المؤلف بنحو ألفي سنة ؛ وهذا هو نص الترجمة العربية :(في البدء قبل وجود السماء والأرض بألفي سنة ؛ خُلقت سبعة أشياء هي : التوراة التي كُتبت بنار سوداء على نار بيضاء ووضعت في حاشية (حِضْن مهد) الله ، والعرش الإلهي الذي نُصِب في السماء ، والجنة على يمين الله ، وجهنم على يسار الله ، والقدس السماوي أمام الله مباشرة ، وبه جوهرة (درّة) على محرابه منقوش عليها اسم المسيح ، وصوت يصرخ (يصيح) عاليًا ويقول : هلموا ، وعودوا يا أطفال الرجال .

ربما جاءت هذه البيانات الخاصة بالخلق في اليهودية التلمودية مفاجئة للقراء الذين اعتادوا قصة الخلق التي ذُكرت في الكتاب المقدس ونصها :

(في البدء خلق الله السموات والأرض ، وكانت خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمة ، وروح الله يرف على وجه المياه ، وقال الله : ليكن نور . فكان نور) [تكوين ١ : ١ ٤] .

ولا يقول سفر التكوين شيئًا عما حدث قبل الخلق ، فالله وحده هو المسئول عن أعمال الخلق ، والذي صنعه هو السماء والأرض ، لكن قصة الخلق تبدأ وفقًا للتلمود بخلق التوراة ، وتنتهي بالصوت القوي الذي يصيح .

وإذا قال شخص ما ليهودي : أخبرني بالقصة اليهودية للخلق ؟ فقد يجيبه بالقول : (في البدء خلق الله ...) . وإذا كان هذا اليهودي قد نال حظًا متقدمًا من التعليم الديني ؛ فسيقول: (لكن ماذا عن الأشياء السبعة التي خُلقت قبل الخلق؟) ولا يعرف الشخص اليهودي العادي شيئًا عن المقصود من هذا السؤال .

الفصل الثامن

فقه المعتزلة

الفصل الثامن

فقه المعتزلة

وَقَرَ في أذهان الناس أن مذهب المعتزلة مذهب عقائدي لا فقهي ، والحق أنهم كانوا فقهاء أصحاب مذهب :

- فالإمام أبو الحسين البصري رحمه الله له كتابه (المعتمد) في أصول الفقه .
- والإمام النَّظَّام له آراء فقهية مبنية على القرآن وحده .
- وأُثِرَ عن ابن الراوندي أنه ردّ السنة النبوية كلها ، ولم يأخذ بها لا في العقائد ولا في الفقه ، كما هو مبين في كتاب (المحصول) للإمام فخر الدين الرازي رحمه الله .

وأُمَثِّل لك بعدة أمثلة من آراء المعتزلة الفقهية لترى كيفية إعماله المعتزلة العقل في استخراج الحكم من نصوص القرآن ؛ ليظهر لنا منهجهم في استنباط الأحكام الشرعية .

١- يقول النظام : إن الأمَة إذا تزوجت وزنت ؛ فإنها تأخذ نصف حد الحرة ؛ ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . والذي يقبل التصنيف هو الجلد لا الرجم ؛ ذلك قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور/٢] .

٢- وردّ ابن الرواندي ما رواه مسلم في صحيحه بسنده عن أبي عبد الرحمن قال : خطب علي فقال : يأيها الناس ، أقيموا على أرقائكم الحدّ ، من أحصن منهم ومن لم يحصن ؛ فإن أمة

الرسول زنت ؛ فأمرني أن أجلدها ، فإذا هي حديث عهد بنفاس ؛ فخشيتُ إن أنا جلدتُها أن أقتلها . فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال :((أحسنتَ)) .

مع أن هذا الحديث موافق للقرآن في الجلد لقوله : ((فأمرني أن أجلدها)) . وأنا أردّه ؛ لأنه قال : ((من أحصن منهم ، ومن لم يحصن)) . وفي القرآن أن الجلد لمن أحصنت لقوله : ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ ﴾ [النساء/٢٥] .

٣- ومن آراء النظام :

- أنه كان يزعم أن من نام مضطجعًا لا تجب عليه الطهارة .

- وأن من ترك الصلاة عامدًا لا تجب عليه إعادة .

يقول الخياط معلقا على ذلك : إن هذا كذب على إبراهيم ؛ فأما القول الأول فهو حكاية الجاحظ وليس بالمحفوظ عنه ؛ وأما الثاني فكذب غلط في حكايته عنه أبو عبد الرحمن الشافعي .

٤- وكان النظام يقول : إذا نام الإنسان على طهارة كيفما كان نومه ، لم ينتقض وضوؤه ؛ وإنما أجمع الناس على الوضوء من نوم الضجعة ؛ لأنهم كانوا يرون أوائلهم إذا قاموا من نوم الضجعة تطهروا ؛ لأن عادات الناس الغائط والبول مع الصبح ، ولأن الرجل يستيقظ وبعينه رمص وبفيه خلوف ، وهو متهيج الوجه، فيتطهر للحدث والنشرة لا للنوم ، وكما أوجب كثير من الناس يوم الجمعة ؛ لأن الناس كانوا يعملون بالغداة في حيطانهم - أي : بساتينهم - فإذا أرادوا الرواح اغتسلوا .

وحكى المقريزي عنه أنه كان يقول : من نام مضطجعا ، لم ينتقض وضوؤه ، ما لم يخرج منه الحدث .

٥- وقال النظام : لا يلزم قضاء الصلاة إذا فاتت .

٦- وكان يقول : لا تجوز صلاة التراويح . ونهى عن متعة الحج ؛ وزاد البغدادي أن النظام : زعم أن عمر هو الذي أبدع التراويح .

٧- وذكر ابن قتيبة والبغدادي والمقريزي أن النظام كان يزعم أن طلاق الكناية؛ كقول الإنسان : الخلية والبرية والبتة ، وحبلك على غاربك ، لا يقع ، سواء نوى الطلاق أم لم ينوه .

٨- اختلف المعتزلة في المقدار الذي يجب به تفسيق الخائن ، ففسقه جعفر بن مبشر ، إن كان متعمدا ، سواء أكان المسروق درهما أم أقل أم أكثر ؛ وأما أبو الهذيل والجبائي فالنصاب الأدنى لتفسيقه عندهما : خمسة دراهم . وقال النظام : لا يفسق إلا من مائتي درهم . وحكى ابن شاكر عنه أنه قال : من سرق مائة درهم وتسعة وتسعين درهما أو ظلمها ، لم يفسق ، حتى يبلغ النصاب في الزكاة ، وهو مائتان .

ويذكر البغدادي قول النظام في أمر السارق فلا يعرف على أي شيء بناه ، ويتساءل : هل على ما تقطع فيه اليد ؟ يجب بأنه لم يجعل نصاب القطع مائتي درهم .

فالشافعي وأصحابه قالوا : يقطع في ربع دينار أو قيمته . وقال مالك : بربع دينار أو ثلاثة دراهم . وأوجب أبو حنيفة القطع في عشرة دراهم فصاعدًا ، واعتبر قوم القطع بأربعين درهما .

ثم يقول : (وإن كان إنما بنى تحديد المائتين في الفسق على أن المائتين نصاب ازكاة ، لزمه تفسيق من سرق أربعين شاة بوجوب الزكاة فيها ، وإن كانت قيمتها مائتي درهم ؛ وإذا لم يكن للقياس في تحديده مجال ، ولم يدل عليه نص من القرآن والسنة الصحيحة ، لم يكن مأخوذًا إلا من وسوسة شيطانية الذي دعاه إلى ضلالته) .

ويزيل الخياط هذا الغموض الذي يشكو منه البغدادي ، ويقول : (إن النظام كان يفسق خائن مائتي درهم ؛ لقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء/١٠] . والمال عنده لا يكون أقل من مائتي ، والوعيد عنده لا يُعلم بالقياس ، وإنما يُعلم بالسمع ، وكذلك الأسماء بالسمع تعلم بالسمع ؛ فلما نطق القرآن بالوعيد لخائن مائتي درهم ، حكم به عليه ، ووقف دون ذلك) .

الفصل التاسع

بين المعتزلة والإمامية

الفصل التاسع

بين المعتزلة والإمامية

يحلو لبعض الكتاب المحدثين – مقلدين لبعض مؤرخي الفرق الكلامية – أن يجعلوا الإمامية في آرائهم وأفكارهم عالة على مدرسة الاعتزال .

وتبدو سخافة ذلك إذا استعرضنا جانبا من آراء الإمامية في بعض أصول المعتزلة الخمسة ، التي جعلوها أساسا لاتصاف أي إنسان بصفة الاعتزال .

١- رأي الإمامية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ذهب الإمامية إلى القول بوجوبهما كفائيا ، بالشرع لا بالعقل ، وذلك بما ورد في الأمر بهما من الآيات والروايات .

فمن الآيات قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران/١٠٤] .

ومن الروايات : ما رواه الكليني في فروع الكافي عن محمد بن يحيى ، عن الإمام الصادق قال : (ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) .

ومنها : ما رواه الكليني أيضا بإسناده عن أبي الحسن الرضا : (لتأمرن بالمعروف ، ولتنهن عن المنكر ، أو ليستعملن عليكم شراركم ، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم) .

في حين ذهب المعتزلة إلى وجوبهما بالعقل لا بالشرع ، بل ذهب بعض شيوخهم ، إلى القول بأنهما إنما يجبان على الآمر والناهي في صورة ما إذا استلزما دفع ضرر واقع عليهما فقط .

وقد فند الإمامية رأي المعتزلة في منشأ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول العلامة الحلي : (إنهما لو وجبا عقلاً ، لوجبا على الله تعالى ، فإن كل واجب عقلي يجب على كل من حصل في حقه وجه الوجوب .

ولو وجبا عليه تعالى ، لكان إما فاعلا لهما ، فكان يلزم وقوع المعروف قطعا ؛ لأنه تعالى يحمل المكلفين عليه ، وانتفاء المنكر قطعا لأنه تعالى يمنع المكلفين عنه . وهذا خلاف ما هو الواقع في الخارج .

وإما غير فاعل لهما ، فيكون مخلا بالواجب ، وذلك محال ؛ لما ثبت من حكمته تعالى) [شرح التجريد للعلامة الحلي ص ٣٠٤] .

٢- التوحيد بين الإمامية والمعتزلة

والإمامية وإن كانوا يلتقون في أصل القول بالتوحيد مع المعتزلة ، إلا أنهم يفترقون عنهم في أمور التزم بها المعتزلة ، وأنكرها الإمامية ؛ لأنهم رأوها منافية للتوحيد .

منها مثلا : أن المعتزلة التزموا بأن الأشياء كانت قبل وجودها أشياء ، والجواهر والأعراض كانت في حال عدمها جواهر وأعراضا .

فما هي وظيفة الله عندهم إذن ؟

وظيفته عندهم أنه قد جعل لها صفة الوجود ليس إلا.

وجاء الإمامية إلى هذه المقالة ليثبتوا بأن الالتزام بها مناف للتوحيد ، ومستلزم للإلحاد ، فقالوا : بأننا إذا التزمنا بأن هذه الأعراض والجواهر والأشياء ، لها نوع من التحصل والتحقق ، بقطع النظر عنه سبحانه ، وأن كل ما صدر عنه هو جعل صفة الوجود لها ، فنحن نقول وتوافقوننا على أن تلك الصفة المجعولة لا تخلو عن أن تكون إما جوهرا ، أو عرضا ، أو شيئا ، ولا رابع لها .

فإن قلتم : بأن هذه الصفة جوهر أو عرض ، بطل ما التزمتم به من أن الجوهر والعرض كان لهما تحقق بقطع النظر عنه سبحانه .

وكذا إذا قلتم : بأن هذه الصفة ليست جوهرا ولا عرضا ، وإنما هي شيء ، فقد بطل ما التزمتم به من أن الأشياء كان لها تحقق بقطع النظر عنه سبحانه.

وإن قلتم : بأن هذه الصفة ليست بشيء ، فقد التزمتم بأن الله لم يفعل شيئا ، وهذا هو عين العجز ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

٣- المنزلة بين المنزلتين بين الإمامية والمعتزلة

حكم المعتزلة على مرتكب الكبيرة بأنه في منزلة وسط بين الكفر والإيمان ، في حين ذهب الإمامية إلى الحكم بفسقه فقط ، مع بقاء صفة الإيمان له .

كما حكم المعتزلة بخلوده في نار جهنم ، في حين ذهب الإمامية إلى عدم ذلك ، بل قالوا : بأنه يعاقب بمقدار جُرْمه . واستدلوا لذلك بوجهين:

الأول : أنه يستحق الثواب الدائم بإيمانه لقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة/٧] . والإيمان أعظم أفعال الخير ، فإذا استحق العقاب بالمعصية ، فإما أن يقدم الثواب على العقاب ، وهو باطل بالإجماع ؛ لأن الثواب المستحق بالإيمان دائم على ما تقدم أو بالعكس وهو المراد ، والجمع محال.

الثاني : يلزم أن يكون من عبد الله تعالى مدة عمره بأنواع القربات إليه ، ثم عصى في آخر عمره معصية واحدة مع بقاء إيمانه مخلدا في النار ، كمن أشرك بالله تعالى مدة عمره ، وذلك محال لقبحه عند العقلاء .

٤- رأي الإمامية في الجزء الذي لا يتجزأ

النظّام وهو من أكبر شيوخ المعتزلة ذهب إلى إنكار الجزء الذي لا يتجزأ ؛ حيث جره ذلك إلى القول بالطفرة .

وقد ذهب متكلمو الإمامية وفلاسفتهم إلى عكس مقالته ، حيث أثبتوا الجزء الذي لا يتجزأ عندما اعتبروا أن الجسم مركب من أجزاء متناهية بالفعل .

وقد استدلوا لمذهبهم هذا بوجهين :

الأول : لو كان في الجسم أقسام بالفعل غير متناهية ، لما كان مقداره متناهيا ، واللازم باطل ، فالملزوم مثله .

الثاني : لو كانت الأجزاء في الجسم بالفعل غير متناهية ؛ لاستحال قطع مقداره إلا في زمان غير متناه ، لأنه يستحيل قطعه إلا بعد قطع نصفه ، وقطع نصفه إلا بعد قطع ربعه وهكذا ؛ لكن اللازم ظاهر البطلان فالملزوم مثله .

وأما ما ذهب إليه المعتزلة على يدي النظّام من القول بإمكان الطفرة ، فقد فنّده الإمامية مع شناعته ، وحكموا بأنه غير نافع لهم أبدا ؛ فإن النملة لو طفرت من الجسم بعضه ، فالذي قطعت بحركتها منه إن كان متناهيا ، كانت نسبته إلى ما طفرته نسبة متناهي العدد إلى متناهي العدد ، وهو المطلوب وإن لم يكن متناهيا عاد الإلزام بعينه فيه .

٥- رأي الإمامية في الصرفة

وقد ردَّ علماء الإمامية قول النظّام بـ " الصَّرْفَة " ، وذلك بعدة وجوه أهمها :

أولا : أن معنى الصرفة المدعاة إن كان : أن الله قادر على أن يقدر البشرُ على أن يأتوا بمثل القرآن ، ولكنه تعالى صرف هذه القدرة عن جميع البشر . فهو معنى صحيح ، ولكنه لا يختص بالقرآن ، بل هو جارٍ في جميع المعجزات . وإن كان معناها أن الناس قادرون على أن يأتوا بمثل القرآن ، ولكن الله صرفهم عن معارضته ، فهو واضح البطلان ؛ لأن كثيرا منهم تصدوا لمعارضته فلم يستطيعوا .

ثانيا : لأن إعجاز القرآن لو كان بالصرفة ، لوجد في كلام العرب السابقين مثله قبل أن يتحدى النبي ﷺ البشر ويطالبهم بالإتيان بمثل القرآن . ولو وجد ذلك لنقل بالتواتر ، لتكثر الدواعي إلى نقله . وإذ لم يوجد ولم ينقل ، كشف ذلك عن كون القرآن بنفسه إعجازا إلهيا ، خارجا عن طاقة البشر .

الفصل العاشر

الصلة بين المعتزلة والصابئة

الفصل العاشر

الصلة بين المعتزلة والصابئة

الصابئة هم أتباع نبي الله يحيى عليه السلام ، وقد كان هو وعيسى عليهما السلام يبشران بمحمد ﷺ .

وأتباع عيسى عليه السلام يعرفون بـ : النصارى ، وأتباع يحيى عليه السلام يعرفون بـ : الصابئين .

وأتباع هذين النبيين الكريمين من اليهود ، وقد انفصلوا عن اليهود ؛ لإيمانهم بأن النبي الأمي الآتي على مثال موسى لن يأتي من اليهود ، وإنه هو محمد رسول الله ﷺ .

وكتاب التوراة الذي مع اليهود هو نفسه بنصه الذي مع النصارى والصابئين ، والفرق بين اليهود وبين النصارى والصابئين هو في أمر واحد ؛ وهو أن اليهود يفسرون النبوءات عن النبي الأمي الآتي [تث ١٨ : ١٥-٢٢] على نبي سيظهر إما من العبرانيين وإما من السامريين ، إما من أورشليم وإما من نابُلُس التي هي شكيم. والنصارى والصابئون يفسرون النبوءات عنه على محمد رسول الله ﷺ ويصرحون بهذا التفسير .

وسوف نبين أن النصارى لما انفصلوا عن اليهود ؛ جعلوا كهوف قُمْران عاصمة لهم ، وتمسكوا بالتوراة إلى أن يظهر محمد رسول الله ﷺ فيتركوها ويسمعوا لكلامه .

وإذ الصابئون مثلهم في التمسك بالتوراة وتركها إذا ظهر محمد رسول الله ﷺ؛ فإن كل ما عند النصارى يكون هو نفسه كل ما عند الصابئين ، ويكون كل شيء بينهم مشتركا .

وعلى هذا إذا ذكرنا من كتب الصابئين ما يدل على مشابهتهم للنصارى في كل شيء أو لم نذكر ، فإن ما يدل على المشابهة بينهما بأدنى تأمل : هو أن الأناجيل قد صرحت بأن يحيى وعيسى عليهما السلام كانا يعمدان ، وكانا يقولان : (قد اقترب ملكوت السموات) .

سبب تسميتهم بالصابئين

وهم قد سُمُّوا بـ :الصابئين ؛ لأن الكلمة العبرانية (صَبَغَ) بالغين المعجمة ، تُنطق (صَبَعَ) بالعين المهملة ؛ لأن في العبرانية تنطق عين . وقد تنطق همزة فيقال(صبأ) في (صبغ) بدل (صبع) .

وقد كان اليهود يزعمون أن النبي الأمي الآتي سيكون من اليهود ، وكان يحيى عليه السلام يقول : إنه

سيأتي من العرب بني إسماعيل عليه السلام . فإذا تاب عالم يهودي عن زعمه ، يأخذه يحيى عليه السلام ويصبغه في الماء في نهر الأردن . فيخرج من الماء طاهرا من ذنوبه ، ويستقبل حياة جديدة مخالفة لحياته القديمة .

فالصبغ كان علامة لانفصاله عن اليهود وابتعاده عنهم ، والسير مع نبي الله يحيى عليه السلام للدعوة إلى مجيء نبي الله من العرب .

ففي كتاب " صابئة حران " للأستاذ محمد عبد الحميد الحمد : " وفي الآرامية جاء اشتقاق كلمة صابئة من الفعل صبأ أو صبغ ، الذي يعني : الاغتسال أو الارتماس بالماء الجاري . ولا زالت كلمة صابئة تطلق على المغتسلة في جنوب العراق وغرب إيران) .

ولكن اليهود نسبوا إليهم عبادة الكواكب والنجوم ؛ تحقيرا لشأنهم ، ولكلا يفطن الناس إلى حقيقة أمرهم وهي الدعوة إلى أن النبي الأمي الآتي من العرب .

وفي كتبهم ما يدل على أنهم يهود منفصلون عن اليهود :

١- جاء في كتاب " أدراشا أديهيا " أي : تعاليم يحيى عليه السلام:

(يكمن سر السعادة في ألا تكون كاذبا أو منافقا ، من يعمل خيرا ير خيرا ، الويل لعالم لم يعلم شيئا من علمه لآخرين) .

٢- وجاء في كتاب " الكنز ربا " :

(ولا تسجدوا للشياطين والأصنام وآلهة الكذب) .

٣- بعد الخروج من الماء يقول الصابئي :

(بسم الله المتعالي ، إني خرجت من الماء الجاري والطاهر بروح طاهرة ، وأديت مناسك التعميد ، نحمد الله ونعبده عبادة خالية من الأجرام السماوية ، وأن الشمس نور مسخر لنا ، وهي فاقدة لأية قدرة وعبادتها باطلة) .

٤- الحروف الأبجدية عند الصابئة هي نفسها الحروف الأبجدية عند اليهود ؛ وهي تكتب هكذا :

أ – با – جا – دا – ها – وا – زا – حا – طا – يا – كا – لا – ما – نا – سا – عا –

فا-صا- قا – را – شا- تا .

وعند اليهود هكذا :

أ - ب – ج – د – هـ – و – ز- ح – ط -.ى – ك- ل – م – ن- س – ع- ف –

ص – ق – ر – ش- ت .

د- في التوراة أن الكاهن لا يتزوج امرأة أرملة أو مطلقة ، وهذا الحكم في [سفر اللاولـين / أصحاح ٢١] وعند الصابئة ما زال موجودا هذا الحكم .

٦- ويقول الصابئون : إن لغتهم الأولى سريانية ، ويقولون : إنها تشبه لغة التلمـود البـابلي المكتوب في القرن الخامس الميلادي .

٧- ويقول الدكتور عبد الرزاق الحسيني عن الصابئة المندائية :

(إنهم قوم يؤمنون بالخالق جل شأنه ، وأنه واحد أزلي لا أول لوجوده ولا نهاية، منزهٌ عن المادة ، لا تناله الحواس ولا يفضي إليه مخلوق ، وأنه لم يلد و لم يولد، وهو علـة وجـود الأشياء ومكونها) .

٨- وفي دوائر المعارف تحت كلمة المندائية (**Mandaeans**) :

(إنهم موحدون ، والخالق عندهم اسمه : الله بصيغته في العربية ، وهو نور السموات والأرض ، وفاضت منه المخلوقات ، والمندائية يقولون : إنا نصارى . وينكرون أن يكون المسيح ابن الله .

وكتابهم السفر الكبير أو الجيزا Ginza يطرح نظرية الخلق على مثال ما في سـفر التكـوين ، ويذكر أسماء موسى ويوحنا وآدم وحواء وغيرهم بنطق يقرب من العربية.

وفي كتب المندائية المتأخرة يذكرون النبي محمد ، ولكنه ذكر لا يدل علـى معرفـة بتعـاليم الإسلام .

وهم يتوهون بيوحنا المعمدان ويسمونه يحيى ؛ لأنه من الزاهدين المغتسـلين . والمندائيـة مـن المغتسلين ، وتشبه شعائرهم في الصلاة شعائر اليهود) .

ولأن نبيهم شتم اليهود بقوله : (يا أولاد الأفاعي) . حاربهم اليهود كما حاربوا النصـارى ،

وأطلقوا عليهم لقب : " ثنوية " .

٩- يقول الصابئة : إن يحيى عليه السلام لما دنت ساعة وفاته ؛ أرسل الله إليه ملكا ، فتراءى له على هيئة طفل ، وطلب منه أن يصبغه ؛ فاصطحبه إلى نهر الأردن إلى المكان الذي يعمد فيه ولما هم بالدخول في الماء ، وضع يحيى يده في يد الطفل ؛ خر ميتا على شاطئ النهر .

فنقل تلاميذه إلى مكان التعميد ودفنوه ، ويعتقد الصابئون المندائيون أن جسده ورأسه مدفونان معا في مدينة " ششتر " في إيران ، ويقال : إنه مدفون في المسجد الأموي بمدينة دمشق .

١٠- والصابئون طائفتان هما : الحرانيون ، والمندائيون . ومما يدل على أن الحرانيين مؤمنون بالله : أن المندائي يسمي المسجد مندى . وهو عبارة عن كوخ من قصب منصوب على شاطئ نهر جار ، أو نبع ماء جار حي . وباب المندى متجه نحو الجنوب ومحرابه نحو الشمال ، بينما يبنى الحرانية معابدهم الحجرية على الطراز المعمارية للمعابد الوثنية الرومانية .

والمساجد بحسب نصوص التوراة تبنى من طوب لبن وتسقف بخشب شجر ، ولا تكون مزخرفة ولا مشيدة ، وإنما تكون متواضعة ففى سفر [الخروج ٢٠] :

(فقال الرب لموسى : هكذا تقول لبنى إسرائيل : أنتم رأيتم أنني من السماء تكلمت معكم ، لا تصنعوا معي آلهة فضة ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب ، مذبحا من تراب تصنع لي وتذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك غنمك وبقرك في كل الأماكن التي فيها أصنع لاسمى ذكرا آتي إليك وأباركك .

وإن صنعت لي مذبحا من حجارة فلا تبنه منها منحوتة ، إذا رفعت عليها إزميلك تدنسها ، ولا تصعد بدرج إلى مذبحي كيلا تنكشف عورتك عليه) .

١١- يصلي المندائي ست صلوات ؛ ثلاث في النهار وثلاث في الليل ، ويصلي الحراني ثلاث صلوات . وصلواتهم النافلة هي بمنزلة الوتر عندنا نحن المسلمين . وصلوات اليهود المفروضة ثلاثة .

١٢- يعتقد الصابئون بيوم القيامة ، وببقاء الروح من بعد الموت ، وتظل تنتظر يوم الحساب لتنعم برؤية الباري سبحانه .

١٣- قال الأستاذ عبد الرزاق الحسيني عن المندائيين :(إنهم قوم يؤمنون بالخالق جل شـأنه ، واحد أزلي ، لا أول لوجوده ولا نهاية، منزه عن المادة لا تناله الحواس ، ولا يفضي إليه مخلوق ، وأنه لم يلد و لم يولد ن وهو علة وجود الاشياء ومكونها ، ولا يختلف اعتقادهم في الخالق عـن اعتقاد المؤمنين ، وأن الله يفصل بينهم يوم القيامة) .

١٤- في الكتب التي أرخت للصابئة أنهم دفعوا الجزية للمسلمين على أنهم أهل كتاب في القرن الثالث .

١٥- يقول الأستاذ عزيز سباهي :

(إن أتباع يوحنا المعمدان – الذي هو نبي الله يحيى – كانوا يرفضون نسبة المسيح إلى يسوع ، ويعتبرون الدعوة لذلك دعوة باطلة) .

ومعنى هذا : أن النبي الأمي الذي نبه موسى في التوراة على مجيئه من بعده ، لقبه اليهود بلقب " المسيح " أي : المصطفى من الله ، ويحيى عليه السلام يقول هو وأتباعه: إن هذا المسيح الآتي ليس هو عيسى بن مريم ، وإنما هو نبي سيأتي من بعده.

١٦- وفي كتاب الصابئون ماضيهم وحاضرهم :

(إن الصابئين يقولون : إن فاعل الخير والشر هو الإنسان ، وإن الله جل شأنه مكون الأشـياء كلها ، والعبد يملك إرادة جزئية واختيارا مطلقا) .

ملاحظة : رأي المسيح عيسى عليه السلام والنصارى هو أن فاعل الخير والشر هو الإنسان.

١٧- يصوم الصابئون ثلاثين يوما ، واليهود يصومون كذلك .

١٨- تبدأ السنة عند الصابئين من شهر إبريل ، وتبدأ عند اليهود من شهر أبيب .

١٩- ومما يدل على أن أصل الصابئين من اليهود : أنهم هاجروا من أرض كنعان – وهي أرض فلسطين – إلى شمال سوريا ، وعلى إثر حروب بينهم وبين اليهود ، هاجروا إلى حران جنوب تركيا ، واستقروا مدة من الزمن ، ثم هاجروا إلى بطائح البصرة ، وهذا مكـتـوب في كتـابهم المسمى " حران كويثا " .

فيكون أتباع المعمدان بعد اضطهاد اليهود لهم في شأن النبي المنتظر قد جعلوا مقر تجمعهـم في

"البصرة" ، ويكون النصارى أتباع عيسى عليه السلام قد جعلوا مقر تجمعهم في "قُمْران" .

وقفة : اليهود يعبدون الأصنام ويئدون أبناءهم

من مخازي اليهود أنهم قاموا بعبادة الأصنام . ومما يدل على ذلك : أن التوراة تصرح بأن اليهود عبدوا الأصنام ، وقتلوا أولادهم سفها بغير علم ، ووأدوا البنين والبنات إرضاء للأصنام .

وهذه هي أدلة من التوراة على ما ذكرنا :

- (وذبحوا بنيهم وبناتهم للأوثان ، وأهرقوا دما ذكيا ، دم بنيهم وبناتهم الذين ذبحوهم لأصنام كنعان) [مزمور ١٠٦ : ٣٧ ، ٣٨] .

- (أخذت بنيك وبناتك الذين ولدتهم لي ، وذبحتهم لها طعاما ، أهو قليل من زناك أنك ذبحت بني وجعلتهم يجوزون في النار لها ؟) [حزقيال ١٦ : ٢٠- ٢١].

- (أما أنتم أولاد المعصية ، نسل الكذب ، المتوقدون إلى الأصنام تحت كل شجرة خضراء ، القاتلون الأولاد في الأودية تحت شقوق المعاقل) [إشعياء ٥٧ : ٤ -٦] .

- (بل سار في طريق ملوك إسرائيل حتى إنه عبَّر ابنه في النار ، حسب أرجاس الأمم ، الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل وذبح وأوقد على المرتفعات وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء) [٢ ملوك : ١٦ : ٣ ، ٤] .

- (والآباء يوقدون النار ، والنساء يعجن العجين ، ليصنعن كعكا لملكة السموات، ولسكب سكائب لآلهة أخرى ؛ لكي يغيظوني أفاياي يغيظون ؟ يقول الرب) [إرميا ٧] .

- (فأجاب إرمياء : كل الرجال الذين عرفوا أن نساءهم يُبخرن لآلهة أخرى وكلُّ النساء الواقفات محفل كبير ، وكل الشعب الساكن في أرض مصر ، في فتروس قائلين : إننا لا نسمع لك الكلمة التي كلمتنا بها باسم الرب ، بل سنعمل كل أمر خرج من فمنا لنبخر لملكة السموات ، ونسكب لها سكائب كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا في أرض يهوذا وفي شوارع أورشليم ، فشبعنا خبزا، وكنا بخير ولم نر شرا، ولكن من حين كففنا عن التبخير لملكة السموات ، وسكب سكائب لها ، احتجنا إلى كل ، وفنينا بالسيف والجوع) [إرميا ٤٤] .

المشابهة بين يحيى وعيسى في الدعوة

في الأصحاح السابع من سفر دانيال يتنبأ عن مملكة إلهية تظهر عقب أربعة ممالك ؛ هي : بابل ، وفارس ، واليونان ، والروم .

وقد ولد المسيح عيسى عليه السلام في بدء مملكة الروم ؛ إذ إنها تأسست سنة ٦٣ق.م. ، ونادى عليه السلام باقتراب المملكة الإلهية المعروفة بـ : ملكوت الله ، أو ملكوت السموات . ونادى يحيى عليه السلام أيضا باقتراب هذا الملكوت .

وكان يحيى عليه السلام يصبغ في الماء – أي : يُعمِّد – اليهودي الذي يسمع لكلامه عن هذا الملكوت ؛ وهو أن المؤسس له سيكون من العرب لا من اليهود ، وأتباعه كانوا يصبغون ، ومثلهم كان عيسى عليه السلام وأتباعه .

وقال يحيى عليه السلام : لستُ أنا المسيح المنتظر . والصابئون يقولون : إنه ليس هو . وأيضا ليس هو عيسى عليه السلام .

وهذه هو نصوص من الأناجيل تدل على ذلك :

١- في الأصحاح الأول من إنجيل مرقس :

(كما هو مكتوب في الأنبياء : ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك قدامك) .

(الصوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب اصنعوا سبله مستقيمة) .

(كان يوحنا يعمد في البرية ويكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا ، وخرج إليه جميع كُورة اليهودية وأهل أورشليم ، واعتمدوا جميعهم منه في نهر الأردن معترفين بخطاياهم، وكان يوحنا يلبس وبر الإبل ومنطقة من جلد على حقويه ويأكل جرادا وعسلا بريا ، وكان يكرز قائلا : يأتي بعدي من هو أقوى مني ، الذي لست أهلا أن أنحني وأحل سيور حذائه ، أنا عمدتكم بالماء ، وأما هو فسيعمدكم بالروح القدس .

وفي تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل ، واعتمد من يوحنا في الأردن ، وللوقت وهو صاعد من الماء رأى السموات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلا عليه .

وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ، ويقول : قد كمل الزمان ، واقترب ملكوت الله ، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل) [مرقس ١] .

٢- في الأصحاح الثالث من إنجيل متى :

(وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية قائلا : توبوا ؛ لأنه قد اقترب ملكوت السموات . فإن هذا هو الذي قيل عنه بإشعياء النبي القائل : صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب ، اصنعوا سبله مستقيمة .

ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الإبل وعلى حقويه مِنطقة من جلد وكان طعامه جرادا وعسلا بريا حينئذ خرج إليه أورشليم وكل اليهودية وجميع الكُورة المحيطة بالأردن واعتمدوا منه في الأردن معترفين بخطاياهم .

فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته ، قال لهم : يا أولاد الأفاعي ، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي ، فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم : لنا إبراهيم أبا . لأني أقول لكم : إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم .

والآن قد وضعتُ الفأس على أصل الشجر فكل شجرة لا تصنع ثمرا جدا تقطع وتلقى في النار ، أنا أعمدكم بماء للتوبة ، ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوي مني الذي لست أهلا أن أحمل حذاءه هو سيعمدكم بالروح القدس ونار الذي رفشه في يده ، وسينقي بيدره ويجمع قمحه إلى المخزن ، وأما التبن فتحرقه بنار لا تطفأ) [متى ٣] .

٣- وفي الأصحاح الثالث من إنجيل يوحنا :

(وبعد هذا جاء يسوع وتلاميذه إلى أرض اليهودية ، ومكث معهم هناك ، وكان يعمد ، وكان يوحنا أيضا يعمد في عين نون بقرب ساليم ؛ لأنه كان هناك مياه كثيرة وكانوا يأتون ويعتمدون ؛ لأنه لم يكن يوحنا قد ألقي بعدُ في السجن .

وحدثت مباحثة من تلاميذ يوحنا مع يهود من جهة التطهير ، فجاءوا إلى يوحنا وقالوا له : يا معلم ، هو ذا الذي كان معك في عبر الأردن الذي أنت قد شهدت له هو يعمد والجميع يأتون

إليه . أجاب يوحنا وقال : لا يقدر إنسان أن يأخذ شيئا إن لم يكن قد أعطي من السماء ، أنتم أنفسكم تشهدون لي أني قلت : لست أنا المسيح ، بل إني مرسل أمامه . من له العروس فهو العريس ، وأما صديق العريس الذي يقف ويسمعه فيفرح فرحا من أجل صوت العريس إذا فرحي هذا قد كمل ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص ، الذي يأتي من فوق الجميع ، والذي من الأرض هو أرضي ومن الأرض يتكلم ، الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع، وما رآه وسمعه به يشهد وشهادته ليس أحد يقبلها ، ومن قبل شهادته فقد ختم أن الله صادق ؛ لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله ؛ لأنه ليس بكيل يعطي الله الروح .

الآب يحب الابن ، وقد دفع كل شيء في يده ، الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية، والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة ، بل يمكث عليه غضب الله) [يوحنا ٣] .

وقال الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء/١٧١-١٧٣] .

لاحظ :

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ ﴾ . ولم يقل : ما استنكف المسيح . وهذا يدل على أنه بعدما فرغ من الكلام عن عيسى عليه السلام ، وفي كلامه عنه كلمة (المسيح) قال عن (المسيح) الآتي الذي كان

يبشر به عيسى عليه السلام بحسب لسان قومه : إنه متواضع لله تعالى هو وأصحابه المقربون منه ، الشبيهون بالملائكة النورانيين في الطهر والصلاح .

وقال عن اليهود : ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ .

والعبادة تأتي بمعنى الدخول في الشريعة كما في القرآن الكريم : ﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ [المؤمنون/٤٧] ، وتأتي بمعنى الخضوع للغالب : ﴿ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء/٢٢] ، وتأتي بمعنى العبادة لله رب العالمين : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة/٥] .

والحشر قد يأتي بمعنى أن الملك يحشر جنوده للقتال : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ ﴾ [النمل/١٧] ، ويأتي بمعنى يوم القيامة . وحشر الملك على نوعين ؛ هما :

١- حشر لجنوده .

٢- أو يتسبب في أن يحشر عدوه جنوده له .

وذلك إذا أرسل إليهم يهددهم بالحرب ، فإنهم سيحشرون له الجنود . ورسالته لما تسببت في هذا الحشر ، عُدَّ كأنه هو الذي حشر .

وفي التوراة عن تواضع محمد رسول الله ﷺ :

(هو ذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرت به نفسي وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم ، لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته ، قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يُطفئ ، إلى الأمان يخرج الحق ، لا يَكِلُّ ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته .

هكذا يقول الله الرب خالق السموات وناشرها باسط الأرض ونتائجها معطي الشعب عليها نسمة والساكنين فيها روحا : أنا الرب قد دعوتك بالبر ، فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدا للشعب ونورا للأمم ؛ لتفتح عيون العمي ؛ لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة .

أنا الرب هذا اسمي ومجدي ، لا أعطيه لآخر ولا تسبيحي للمنحوتات . هو ذا الأوليات قد أتت والحديثات أنا مخبر بها قبل أن تنبت أعلمكم بها .

غنوا للرب أغنية جديدة ، تسبيحه من أقصى الأرض أيها المنحدرون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها : لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنتها قيدار ، لتترنم سكان سالع من رءوس الجبال ، ليهتفوا ليعطوا الرب مجدا ، ويخبروا بتسبيحه في الجزائر.

الرب كالجبار يخرج كرجل حروب ينهض غيرته ، يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه) [إشعياء ٤٢] .

المسيح في القرآن الكريم

وقد جاء في القرآن الكريم : أن عيسى بن مريم عليه السلام مسيح ، ولكن ليس هو "المسيح" الذي ينتظره اليهود .

واستدلوا على انتظارهم له من قول التوراة عن المسيح : (يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك ، مثلي ، له تسمعون) [تثنية ١٨: ١٥-٢٢] .

ففي القرآن الكريم :

أ- ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ ما شأنه ؟ وأجاب :

ب- ﴿ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ ، ولم يقل : المسيح هو عيسى ، وإنما قال :

١- المسيح .

٢- عيسى .

٣- ابن مريم .

أي لا يعرف إلا بمجموع الثلاثة اللقب والاسم والكنية . وهذا المعروف بمجموع الثلاثة : ﴿ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ [النساء/١٧١] .

وفي الإنجيل يقول المسيح عيسى عليه السلام لليهود وللحواريين ولأتباعه جميعا : اعملوا بشريعة موسى

إلى أن يأتي " المسيح " . وقال للحواريين وأتباعه : لا تنشئوا لكم ديانة مستقلة عن دين اليهود ، فإن الذي سينشئ ديانة مستقلة هو " المسيح " الآتي .

ذلك قوله :(حينئذ خاطب يسوع الجموع وتلاميذه قائلا : على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون ، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه ، فاحفظوه وافعلوه ، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا ؛ لأنهم يقولون ولا يفعلون ، فإنهم يحزمون أحمالا ثقيلة عسرة الحمل، ويضعونها على أكتاف الناس ، وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم ، وكل أعمالهم يعملونها لكي تنظرهم الناس ، فيُعَرِّضُون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم ، ويحبون المتكأ الأول في الولائم والمجالس الأولى في المجامع، والتحيات في الأسواق ، وأن يدعوهم الناس : سيدي سيدي .

وأما أنتم فلا تدعوا : سيدي ؛ لأن معلمكم واحد المسيح ، وأنتم جميعا إخوة . ولا تدعوا لكم أبا على الأرض ؛ لأن أباكم واحد الذي في السموات . ولا تدعوا معلمين ، لأن معلمكم واحد المسيح ، وأكبركم يكون خادما لكم ، فمن يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرتفع) [متى ٢٣] .

وأما عن الملائكة الذين هم صحابة رسول الله ﷺ فإن المسيح عيسى عليه السلام وهو يتكلم عن أشراط الساعة قال : وإذا تمت هذه الأشراط ، فسوف يبصرون ابن الإنسان آتيا ، ومعه ملائكته القديسيون الطاهرون .

وقال المسيح : إن ظهور ابن الإنسان – وهو النبي ﷺ – سينهي دهر الملك والنبوة في بني إسرائيل ؛ وذلك لأن لشريعة موسى دهرا .

وقد سأله الحواريون عن انقضاء دهر شريعة موسى ، وأجاب : بأنه ستحدث علامات في الكون ومن بعدها يظهر النبي ، وظهوره بدء دهره وانقضاء دهر شريعة موسى .

ووصف المسيح عيسى عليه السلام محمدًا ﷺ بأنه (ربهم) أي: سيدهم. أي أن محمدًا ﷺ بحسب كلام المسيح رب اليهودي أي سيده .

ذلك قوله :(اسهروا إذن ؛ لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم) .

وقوله عن ملائكته :(ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه) .

وهذا هو النص بتمامه من إنجيل متى :(ثم خرج يسوع ومضى من الهيكل ، فتقدم تلاميذه ؛ لكي يروه أبنية الهيكل ، فقال لهم يسوع : أما تنظرون جميع هذه . الحق أقول لكم : إنه لا يترك هاهنا حجر على حجر لا ينقض .

وفيما هو جالس على جبل الزيتون ، تقدم إليه التلاميذ على انفراد قائلين : قل لنا متى يكون هذا ، وما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر ؟

فأجاب يسوع وقال لهم : انظروا ، لا يضلكم أحد ؛ فإن كثيرين سيأتون باسمي قائلين : أنا هو المسيح . ويضلون كثيرين ، وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب ، انظروا لا ترتاعوا ؛ لأنه لا بد أن تكون هذه كلها ، ولكن ليس المنتهى بعد ؛ لأنه تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ، وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن ، ولكن هذه كلها مبتدأ الأوجاع .

حينئذ يسلمونكم إلى ضيق ويقتلونكم ، وتكونون مبغضين من جميع الأمم لأجل اسمي . وحينئذ يعثر كثيرون ، ويسلمون بعضهم بعضا ، ويبغضون بعضهم بعضا ، ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ، ويضلون كثيرين ، ولكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين ، ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم .

ثم يأتي المنتهى ، فمتى نظرتم رجسة الخراب التي قال عنها دانيال النبي قائمة في المكان المقدس ليفهم القارئ ، فحينئذ ليهرب الذين في اليهودية إلى الجبال ، والذي على السطح فلا ينزل ليأخذ من بيته شيئا ، والذي في الحقل فلا يرجع إلى ورائه ليأخذ ثيابه ، وويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام ، وصلُّوا لكي لا يكون هربكم في شتاء ولا في سبت ؛ لأنه يكون حينئذ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ، ولن يكون ولو لم تقصر تلك الأيام لم يخلص جسد ، ولكن لأجل المختارين تقصر تلك الأيام .

حينئذ إن قال لكم أحد : هو ذا المسيح هنا أو هناك . فلا تصدقوا ؛ لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ، ويعطون آيات عظيمة وعجائب ، حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضا ها أنا قد سبقت وأخبرتكم فإن قالوا لكم : ها هو في البرية . فلا تخرجوا . ها هو في المخادع ، فلا تصدقوا ؛ لأنه كما أن البرق من المشارق ويظهر إلى المغارب ، هكذا يكون أيضا مجيء ابن

الإنسان ؛ لأنه حيثما تكن الجثة ، فهناك تجتمع النسور .

وللوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس ، والقمر لا يعطي ضوءه ، والنجوم تسقط من السماء ، وقوات السموات تتزعزع ، وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء ، وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ، ويبصرون ابن الإنسان آتيا على سحاب السماء بقوة ومجد كثير ، فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت ، فيجمعون مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء السموات إلى أقصائها ، فمن شجرة التين تعلموا المثل متى صار غصنها رخصا وأخرجت أوراقها تعلمون أن الصيف قريب ، هكذا أنتم أيضا متى رأيتم هذا كله فاعلموا أنه قريب على الأبواب .

الحق أقول لكم : لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله السماء والأرض تزولان ، ولكن كلامي لا يزول ، وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السموات إلا أبي وحده .

وكما كانت أيام نوح ، كذلك يكون أيضا مجيء ابن الإنسان ؛ لأنه كما كانوا في الأيام التي قبل الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون إلى اليوم الذي دخل فيه نوح الفلك ولم يعلموا حتى جاء الطوفان ، وأخذ الجميع كذلك يكون أيضا مجيء ابن الإنسان ، حينئذ يكون اثنان في الحقل يؤخذ الواحد ويترك الآخر اثنتان تطحنان على الرحى تؤخذ الواحدة وتترك الأخرى .

اسهروا إذن لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم ، واعلموا هذا أنه لو عرف رب البيت في أي هزيع يأتي السارق لسهر ولم يدع بيته ينقب ، لذلك كونوا أنتم أيضا مستعدين ؛ لأنه في ساعة لا تظنون يأتي ابن الإنسان ، فمن هو العبد الأمين الحكيم الذي أقامه سيده على خدمه ليعطيهم الطعام في حينه ، طوبى لذلك العبد الذي إذا جاء سيده يجده يفعل هكذا .

الحق أقول لكم : إنه يقيمه على جميع أمواله ، ولكن إذا قال ذلك العبد الرديء في قلبه سيدي يبطئ قدومه ، فيبتدئ يضرب العبيد رفقاءه ، ويأكل ويشرب مع السكارى يأتي سيد ذلك العبد في يوم لا ينتظره وفي ساعة لا يعرفها ، فيقطعه ويجعل نصيبه مع المرائين ، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان .

حينئذ يشبه ملكوت السموات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس ، وكان خمس منهن حكيمات وخمس جاهلات . أما الجاهلات فأخذن مصابيحهن ، ولم يأخذن معهن زيتا . وأما الحكيمات فأخذن زيتا في آنيتهين مع مصابيحهن . وفيما أبطأ العريس ، نعسن جميعهن ، ونمن ففي نصف الليل صار صراخ : هو ذا العريس مقبل . فأخرجن للقائه فقامت جميع أولئك العذارى ، وأصلحن مصابيحهن ، فقالت الجاهلات للحكيمات : أعطيننا من زيتكن ؛ فإن مصابيحنا تنطفئ . فأجابت الحكيمات قائلات : لعله لا يكفي لنا ، ولكن بل اذهبن إلى الباعة وابتعن . لكن وفيما هن ذاهبات ليبتعن ، جاء العريس والمستعدات دخلن معه إلى العُرْس ، وأغلق الباب أخيرا جاءت بقية العذارى أيضا قائلات : يا سيد يا سيد ، افتح لنا . فأجاب وقال : الحق أقول لكم ، إني ما أعرفكن .

فاسهروا إذن ؛ لأنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة التي يأتي فيها ابن الإنسان .

وكأنما إنسان مسافر دعا عبيده وسلمهم أمواله ، فأعطى واحد خمس وزنات ، وآخر وزنتين ، وآخر وزنة ، كل واحد على قدر طاقته . وسافر للوقت ، فمضى الذي أخذ الخمس وزنات ، وتاجر بها فربح خمس وزنات أخر ، وهكذا الذي أخذ الوزنتين ربح أيضا وزنتين أخريين ، وأما الذي أخذ الوزنة فمضى وحفر في الأرض وأخفى فضة سيده .

وبعد زمان طويل أتى سيد أولئك العبيد وحاسبهم ، فجاء الذي أخذ الخمس وزنات وقدم خمس وزنات أخر قائلا : يا سيد ، خمس وزنات سلمتني ، هو ذا خمس وزنات أخر ربحتها فوقها . فقال له سيده : نعما أيها العبد الصالح والأمين ، كنت أمينا في القليل على الكثير ، ادخل إلى فرح سيدك .

ثم جاء الذي أخذ الوزنتين وقال : يا سيد ، وزنتين سلمتني ، هو ذا وزنتان أخريان ربحتهما فوقهما . قال له سيده : نعما أيها العبد الصالح الأمين ، كنت أمينا في القليل ، فأقيمك على الكثير ، ادخل إلى فرح سيدك .

ثم جاء أيضا الذي أخذ الزنة الواحدة وقال : يا سيد ، عرفت أنك إنسان قاسٍ تحصد حيث لم تزرع ، وتجمع من حيث لم تبذر ، فخفت ومضيت وأخفيت وزنتك في الأرض ، هو ذا الذي

لك . فأجاب سيده وقال له : أيها العبد الشرير والكسلان ، عرفت أني أحصد حيث لم أزرع ، وأجمع من حيث لم أبذر ، فكان ينبغي أن تضع فضتي عند الصيارفة ، فعند مجيئي كنت آخذ الذي لي مع ربا ، فخذوا منه الوزنة وأعطوها للذى له العشر وزنات ؛ لأن كل من له يعطى فيزداد ، ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه ، والعبد البطال اطرحوه إلى الظلمة الخارجية .

هناك يكون البكاء وصرير الأسنان ، ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه ، فحينئذ يجلس على كرسي مجده ويجتمع أمامه جميع الشعوب ، فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء ، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار ، ثم يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا مباركي أبي ، رِثُوا الملكوت المعَدَّ لكم منذ تأسيس العالم ؛ لأني جعت فأطعمتوني ، عطشت فسقيتموني ، كنت غريبا فآويتموني ، عريانا فكسوتموني ، مريضا فزرتموني، محبوسا فأتيتم إليَّ .

فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين : يا رب ، متى رأيناك جائعا فأطعمناك ، أو عطشانا فسقيناك ، ومتى رأيناك غريبا فآويناك ، أو عريانا فكسوناك ، ومتى رأيناك مريضا أو محبوسا فأتينا إليك ؟

فيجيب الملك ويقول لهم : الحق أقول لكم ، بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فيَّ فعلتم .

ثم يقول أيضا للذين عن اليسار : اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته ؛ لأني جعت فلم تطعموني ، عطشت فلم تسقوني ، كمن غريبا فلم تؤووني ، عريانا فلم تكسوني ، مريضا ومحبوسا فلم تزوروني .

حينئذ يجيبونه هم أيضا قائلين : يا رب ، متى رأيناك جائعا أو عطشانا أو غريبا أو عريانا أو مريضا أو محبوسا ولم نخدمك ؟

فيجبهم قائلا الحق : أقول لكم ، بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فيَّ لم تفعلوا .

فيمضى هؤلاء إلى عذاب أبدي ، والأبرار إلى حياة أبدية) [متى ٢٤ ، ٢٥] .

التطابق مع القرآن الكريم :

فى سورة الفجر : ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا

إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر/١٥-٣٠] .

المراد بالإنسان : اليهودي ، وقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ . أي : سيدك؛ وهو محمد ﷺ بحسب كلام المسيح عيسى عليه السلام في الإنجيل عنه ، ومعه ملائكته ﴿ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ لإدارة معركة حربية ضد اليهود في عقر دارهم في فلسطين في الساعة التي قال عنها المسيح : إن لا يعلمها إلا الله وحده .

وإذا قتل يهودى كافرًا في هذه المعركة ، فإنه يدخل النار عقب القتل مباشرة ، وهذا هو معنى : ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ . وفي يوم هذه المعركة يتذكر اليهودي كلام المسيح المدون في الإنجيل عن هذه المعركة وكلام أنبياء بني إسرائيل المدون في الأسفار الملحقة بالتوراة كيوئيل وصفنيا وإشعياء وغيرهم ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ .

وفي سورة النساء تشهد الملائكة ، ويوجد فرق بين : ١- الملائكة ٢- والملائكة المقربين .

يقول الله تعالى : ﴿ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء/١٦٦] ، ويقول الله تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾

[النساء/١٧٢] .

وليس المراد بالملائكة والملائكة المقربين ملائكة السماء النورانيون ؛ لأن المطلوب شهادة تسمع ، ولا أحد يسمع كلام ملائكة السماء ، ولا أحد يستدعيهم للشهادة . وإذ المطلوب شهادة لإقرار الحق ودفع الباطل ، يكون المؤدي لها بشرا ، يؤديها بلسان أو يوثقها في كتاب ليحل الكتاب محل فمه . أما الملائكة المقربون فإنهم أصحاب محمد ﷺ ، خاصة وقد حملوا القرآن معهم وهم متوجهون إلى فلسطين في معركة الساعة، وشهدوا لمحمد ﷺ بالرسالة . وما يزال المسلمون يؤدون هذه الشهادة .

وأما الملائكة غير المقربين من ابن الإنسان الذي هو محمد رسول الله ﷺ ، فإن الراسخين في العلم من أهل الكتاب يشهدون بأن محمدا ﷺ نبي مرسل من الله .

وفي لغة التوراة والإنجيل أنهم ملائكة ؛ ففي سورة آل عمران : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران/٩٨-٩٩] . وفي الإنجيل يقول المسيح لأصحابه :(ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق ، فهو يشهد لي ، وتشهدون أنتم أيضا ؛ لأنكم معي من الابتداء) [يوحنا ١٥: ٢٦-٢٧] .

وفي الزبور أن سخط الله ورجزه وضيقاته على الأشرار يطلق على هذا كله جيش ملائكة : (أرسل عليهم حمو غضب سخطا ورجزا وضيقا جيش ملائكة أشرار) [مز ٧٨- ٤٩] والشياطين أتباع إبليس ملائكة : (في الجسد ملاك الشيطان) [كور ١٢: ٧] ، والقديسيون ملائكة : (إلى ملاك كنيسة أفسس) [رؤية ٢ : ١١] .

القسم الثاني

مخطوطات

البحر الميت

المعتزلة
قراءة في
مخطوطات البحر الميت

الفصل الأول

أثر اليهود والنصارى

في فكر المعتزلة

الفصل الأول

أثر اليهود والنصارى في فكر المعتزلة

ولد واصل به عطاء مع عمرو بن عبيد سنة ٨٠هـ . وقد قال بعض المؤلفين : إن واصلاً اعتزل حلقه الحسن البصري ، وقرر مذهبه في الاعتزال .

وهذا باطل ؛ لأن الحسن قد مات سنة ١١٠هـ ، فلا يعقل - كما يقول الدكتور زهدي جار الله - أن يكونا قد بدآ هذه الحركة الفكرية قبل العشرين من حياتهما .

ويحاول الإمام ابن المرتضى أن يظهر أنهم أقدم من ذلك بكثير ، فقد وضع لهم سندًا ينتهي إلى النبي ﷺ ، فهو يروى عن أبي إسحاق بن عباش أنه قال عن المعتزلة: (وسند مذهبهم أصح أسانيد أهل القبلة ؛ إذ يتصل إلى واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد . وقد أخذ واصل وعمرو المذهب عن أبي هاشم عبد الله ، وأخذه هذا عن أبيه ، عن محمد بن الحنيفة ، وهذا عن والده علي بن أبي طالب ، وأخذه علي عن النبي ﷺ) .

وفي كتاب الملل والنحل للشهرستاني [19] رواية تقول : إن واصل بن عطاء أخذ الاعتزال عن الحسن البصري .

يؤيد ذلك : أن ابن المرتضى يعتبر الحسن واحدًا منهم ؛ لأنه قال بالعدل ، ونفى القدر في رسالة بعث بها إلى عبد الملك بن مَرْوَان [20] .

وقد أقر واصل في رسالة أرسلها إلى عمرو بن عبيد قبل أن ينضم عمرو إليه ، يلومه فيها على مخالفته وشذوذه أنه على طريقة الحسن البصري وعلى آرائه [21] .

ويذكر الخوارزمي أن المعتزلة كانوا يعتدون بالحسن البصري اعتداد الحجازيين بالشافعي ، والزيدية بزيد بن علي [22] .

---

[19] الملل والنحل ٥٧/١ .

[20] المنية والأمل ص ١٢-١٤ .

[21] العقد الفريد ٢٠٨/١ .

[22] رسائل الخوارزمي ص ٣٨ .

وأنقل هنا من كلام الأستاذ زهدي حسن جار الله أثر الديانات الأخرى في المعتزلة ، قال :
(لا جرم أن أرباب تلك الديانات أثاروا بين المسلمين مسائل لاهوتية هامة لم تكن لتخطر لهم ، غير أن السلف تخوّفوا منها وتجنبوها ، وحظروا على الناس الخوض فيها أولا ؛ لأنهم كانوا يرون في الكتاب والسنة ما يكفيهم في حياتهم ، فلا ضرورة لأن ينصرفوا إلى أبحاث دينية أخرى خارجة عنهما ؛ لأنهم كانوا لا يقرون الجدل في أمور الدين ولا يحتملون المناقشة ؛ إذ الدين عندهم مجرد إيمان قائم على النقل .

غير أن مثل ذلك الوجود لا يمكن أن يدوم طويلا ، فسرعان ما قام من بين المسلمين رجال وقعوا تحت تأثير تلك المسائل ، وكان عندهم شيء كثير من الجرأة وحب الاستطلاع ، فأقبلوا عليها يدرسونها بدقة ويتحصونها بعناية فائقة ، ويقابلونها بتعاليمهم الإسلامية . أولئك الرجال هم جماعة المعتزلة وأسلافهم القدرية والجهمية .

قد كان لليهود – ولا شك – بعض الأثر في ظهور المعتزلة ، ويظن أنهم هم الذين نشروا المقالة في خلق القرآن .

فقد روى ابن الأثير أن من نشرها منهم لَبِيد بن الأعصم عدو النبي ﷺ اللدود الذي كان يقول بخلق التوراة ، ثم أخذ ابن أخته طالوت هذه المقالة عنه وصنّف في خلق القرآن ، فكان أول من فعل ذلك في الإسلام . وكان طالوت هذا زنديقا ، فأفشى الزندقة [٢٣] .

وذكر الخطيب البغدادي أن بشرا المريسي المرجئ المعتزلي أحد الدعاة إلى خلق القرآن كان أبوه يهوديًا صبّاغًا بالكوفة [٢٤] .

وفي رواية أخرى لابن قتيبة : أن أول من قال بخلق القرآن هو المغيرة بن سعيد العجلي ، وكان من أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي [٢٥] .

---

[١] الكامل ٤٩/٧ .

[١] تاريخ بغداد ٦١/٧ .

[١] عيون الأخبار ١٤٨/٢ ، ١٤٩ .

لكن الديانة التي كان أثرها في الاعتزال أكبر من أثر غيرها هي المسيحية ، ولهذا يقضي علينا الواجب أن نُعنى بذلك الأثر ونتناوله بشيء من الاهتمام وبما أمكن من التفصيل .

إن الأدلة على تأثير المعتزلة بالمسائل اللاهوتية التي أثارها المسيحيون ، والتي كانت تشغل لاهوتي المسيحيين أنفسهم كثيرة ؛ منها : أن الأمويين قرّبوهم إليهم ، واستعانوا بهم ، وأسندوا إليهم بعض المناصب العالية ؛ فقد جعل معاوية بن أبي سفيان ﷺ سرجون بن منصور الرومي المسيحي (Sergins) كاتبه وصاحب أمره [٢٦] . وبعد أن قضى معاوية ﷺ بقيت لسرجون مكانته ، فكان اليزيد يستشيره في الملمات ويسأله الرأي [٢٧] .

ثم ورث تلك المكانة ولده يحيى الدمشقي [٢٨] الذي خدم الأمويين زمنا ثم ، اعتزل العمل سنة (١١٢هـ/٧٣٠م) والتحق بأحد الأديرة القريبة من القدس حيث قضى بقية حياته يشتغل في الأبحاث الدينية ويصنف الكتب اللاهوتية .

وليس من يجهل الأخطل الشاعر المسيحي الذي قدمته الأمويون ، وأغدقوا عليه العطايا ، وجعلوه شاعر بلاطهم ، وكيف كان يزيد بن معاوية يعتمد عليه في الرد على أعداء بني أمية وهجوهم [٢٩] .

إن احتكاك المسلمين بأولئك المسيحيين لا يمكن أن يكون قد مضى دون أن يترك فيهم أثرا ، ولا سيما برجل ممتاز كيحيى الدمشقي الذي كان آخر علماء اللاهوت الكبار في الكنيسة الشرقية ، وأعظم علماء الكلام في الشرق المسيحي .

قال آير : (إن يحيى الدمشقي آخر آباء الكنيسة الشرقية وممثل اللاهوت المسيحي فيها ، وإن كتاباته هي زبدة تعاليم الكنيسة) .

---

[٢٦] تاريخ الرسل والملوك ١٨٣/٦ ، والكامل ٧/٤ .

[٢٧] تاريخ الرسل والملوك ١٩٤/٦-١٩٩ ، والكامل ١٧/٤ .

[٢٨] هو : القديس يحيى الدمشقي (٨١-١٣٧هـ/٧٠٠-٧٥٤م) ، واسمه العربي منصور . كان يحيى الدمشقي عالما كبير القدر من علماء الدين وقديسا محترما في الكنيستين الشرقية والغربية .

[٢٩] الأغاني ١١٧/١٤ .

وقال ميكفرت : (إن اللاهوت المسيحي وصل ذروته في زمن يحيى الدمشقي الذي وضع في كتبه خلاصة ما بلغه الفكر المسيحي في الشرق) .

ومن مطالعة أقوال الدمشقي في كتابه " الإيمان الأرثوذكسي **The Orthodox Faith Concerning** " يتضح لنا مقام الرجل في علم الكلام، وكيف كان يعتمد في الدفاع عن عقائده الدينية على الأدلة العقلية .

ومما يؤيد هذا القول أن يحيى وضع كتابا في تفسير اللاهوت المسيحي طَبَّقَهُ على فلسفة أرسطو المنطقية .

يضاف إلى هذا أن أثر الدمشقي لم يقتصر على الشرق المسيحي ، بل تعداه إلى الغرب ؛ فترجم كتابه في الإيمان الأرثوذكسي إلى اللاتينية ، وقَدَّره علماء الغرب حق قدره ، واطلع عليه توما الأكويني Thomas Aquinas أعظم متكلميهم واستفاد منه .

فإذا كان أثره قد نفذ إلى الغرب البعيد ، أفلا يكون من المستغرب ألا يتأثر به العرب المسلمون الذين كان الدمشقي يعايشهم ويتعاون معهم ويتكلم لغتهم ؟

إن مجرد وجود يحيى الدمشقي وأمثاله من المتكلمين بين المسلمين كافٍ لإحداث التأثير ، فكيف إذا تجاوز الأمر حد التجاور ، واشترك المسلمون والمسيحيون في مناظرات دينية ، وطال بينهم الجدل ، واشتد الحوار ، هؤلاء يؤيدون دينهم وأولئك يبرهنون على صحة معتقدهم ؟

أقول ذلك ؛ لأننا نستدل من كتابات يحيى الدمشقي وتلميذه أبي قرة أسقف حَرَّانَ أن مثل هذه المناظرات كانت مألوفة في ذلك الزمان ، فقد ورد فيها نماذج من محاورات جرت بين المسلمين وبين المسيحيين واشترك فيها يحيى الدمشقي ، وكان يبدؤها على هذا النحو : إذ قال لك العربي كذا وكذا ، أجبه بكذا .

وأشار ميكفرت إلى تلك النماذج فقال : (إن من جملة الكتب التي صنفها يحيى الدمشقي كتاب في الدفاع عن النصرانية ، وضعه في شكل محاورة بين عربي وبين مسيحي) .

والذي يظهر من كل هذا أن الأمويين الأولين كانوا متسامحين في الدين ، فلم يمانعوا في قيام مناقشات من هذا النوع .

وقد توقفت تلك المناقشات مدة طويلة ، ثم استؤنفت في زمن المأمون الذي كان أكثر من الأمويين تسامحا وأعظم تقديرا للعلم ؛ جاء في نفح الطيب أنه حدثت مناظب بين العتابي وبين أبي قرة أمام المأمون في المسيح عليه السلام [٣٠] .

كذلك جرت لأبي قرة محاورة في حضرة المأمون بينه وبين بعض العلماء من العراق والشام دوّنها في كتاب خاص .

وكانت لأبي قرة منزلة رفيعة بين اللاهوتيين الشرقيين ، ذلك بأنه سار على أعقاب يحيى الدمشقي وحاراه في طريقته ، فأصبح أعظم الكتبة الكنسيين وأبرعهم في المصنفات الجدلية ، حتى صار يتخذ حجة في تفنيد مزاعم المبتدعين من المسيحيين .

وعلاوة على ما تقدم فقد وردت في كتب الأصول العربية نصوص تشير إلى أن المسلمين أخذوا عن المسيحيين بعض أقوالهم ؛ جاء في الأغاني أن أعشى بكر أخذ القول في القدر عن العباديين نصارى الحيرة ، لقّنوه إياه حين كان يأتيهم ليشتري الخمر ، وكان راوية الأعشى عباديًا أيضًا [٣١] .

ويظهر من شعره أنه كان عدليا ينفي القدر ، فمما يؤثر عنه قوله : استأثر الله بالوفاء وبالعدل وولّى الملامة الرجلا [٣٢]

وذكر المقريزي أن أول من تكلم بالقدر في الإسلام هو معبد الجهني ، أخذ ذلك عن نصراني من الأساورة يقال له : أبو يونس سنسويه ويعرف بـ : الأسواري [٣٣] .

أما ابن نُباتة فقد أتى برواية أخرى ، وهي أن أول من تكلم بالقدر في الإسلام رجل من أهل العراق كان نصرانيا ، فأسلم ثم تنصر ، وعنه أخذ معبد الجهني [٣٤].

---

(١) نفح الطيب ١٥٣/٣ .

(١) الأغاني ٧٦/٨ .

(١) العقد الفريد ٢٠٥/١ .

(١) الخطط ١٨١/٤ .

(١) سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون ص ١٥٧ . (١) المعارف ص ١٦٦ ، ٢٠٧ .

وروى ابن قتيبة أن غيلان الدمشقي أكبر داعية إلى القدر بعد الجهني كان قبطيا، فهو يدعوه (غيلان القبطي) [٣٥] في ذلك إشارة إلى أصله المسيحي .

على أننا يجب ألا نأخذ هذه الأقوال عن تأثر القدرية بالمسيحيين قضية مسلمة ؛ أولا لأن المصادر التي أوردتها متأخرة ، ثم لأنه قد يكون أعداء القدرية اتهموهم بتقليد المسيحيين والأخذ عنهم حين وجدوهم يوافقون المسيحيين في الاستطاعة وحرية الإرادة ؛ ليثيروا الناس ضدهم ويؤلبوهم عليه .

بقي الدليل الأخير على تأثر المعتزلة باللاهوت المسيحي وهو ما نراه من الشبه العظيم بين كثير من عقائدهم وبين أقوال يحيى الدمشقي والمسائل الدينية التي كان يعالجها .

فلا يعقل أن يكون ذلك الشبه وليد الصدف ، أو من قبيل توارد الأفكار والخواطر ؛ لأنه لا يقتصر على قول واحد أو فكرة واحدة ، بل يظهر جليا في مسائل متعددة أكتفي بذكر خمس منها :

١ – القول بخير الله تعالى

كان يحيى الدمشقي يقول : إن الله خير ، ومصدر كل خير ، وإن الفضيلة هبة منه تعالى بها أصبح الإنسان قادرا على فعل الخير ، فلولا المعونة الإلهية لما استطاع أحد أن يأتي شيئا من الخير أبدا .

ولما كان جل وعلا خيرا ، فقد أخرج الإنسان من العدم ليشاركه في خيره ؛ فإن خيره الفياض جعله ألا يجد راحة في البقاء وحيدا ، فأوجد المخلوقات لتتمتع بنعمه وتأخذ نصيبها من خيراته .

والمعتزلة كانوا يذهبون إلى مثل هذا القول في خير الله تعالى ، ويرون أن الله لا يفعل الشر ولا يوصف بالقدرة على فعله .

---

[١] المعارف ص ١٦٦ ، ٢٠٧ .

٢- القول بالأصلح

ثم إن يحيى الدمشقي كان يرى أن الله تعالى يهيئ لكل شيء في الوجود ما هو أصلح له . وهذا شبيه بعقيدة الأصلح التي لعبت دورا مهمًّا في تاريخ المعتزلة ، وخلاصتها: أن الله تعالى لا يفعل بعباده إلا ما في صلاحهم .

٣- نفي الصفات والأسماء

وكان يحيى ينفي الصفات الأزلية ، وحجته في ذلك : أننا لا نستطيع أن نحدد تعالى الله أو تدرك طبيعته ؛ لأن الطبيعة مستحيل عليها أن تفهم ما فوق الطبيعة ، ولأنه تعالى ليس لم يطلعنا على جوهره فحسب ، بل لم يمنحنا القدرة على تعرفه وإدراكه . والذين يطلقون على بعض الصفات كالقدم والحياة والسمع والبصر يخطئون كثيرا ؛ لأن هذه الصفات تقتضي التركيب ، فيكون تعالى مركبا من عناصر مختلفة ، وذلك ما لا يجوز في حقه تبارك وتعالى ؛ لأنه عنصر واحد غير مركب . ولو قد أطلقنا عليه مثل هذه الصفات ، فإن علينا أن نفهم تماما أنها لا تدل على جوهره (Nature) بل تتبع طبيعته (Essence) فقط وتختص بها، وإن علينا أن نذكر دوما أنها مجرد صفات سلبية ، فإذا قلنا : إنه تعالى لا أول له . فالمعنى : أنه غير مخلوق ، أو غير قابل للفناء . وإذا قلنا : إنه خير . فالمعنى : أنه لا يفعل الشر .

وقد حمله نفي الباري تعالى على نفي أسمائه أيضا ، فلما كان من المستحيل علينا أن نفهمه تعالى أو تدرك جوهره ؛ لذلك كان لا أسماء له . ولهذا قال الدمشقي : (إنه ينبغي ألا تطلق اسما ما على جوهر الذي نجهله ، وإذا كنا نطلق عليه تعالى بعض الأسماء ، فليس معنى ذلك حقيقةً أسماؤه ، وليس لنا أن نستدل منها على جوهره ، فما هي في الواقع إلا وسيلة تعيننا على فهمه تعالى) .

وهل هذا القول في تعطيل الصفات ونفي الأسماء الحسنى سوى ما ذهب إليه المعتزلة ، وجعلوه أساس مدرستهم ، وبذلوا جهدهم في تأييده ونشره وحمل الناس -ولو بالقوة- على الأخذ به ؟

٤- المجاز والتأويل

كذلك تعرض يحيى الدمشقي لمسألة التجسيم والتشبيه ، فقال : (إنه وردت في الكتاب المقدس كلمات كثيرة تحمل معنى التجسيم والتشبيه ، وإن الناس في حديثهم عن الله تعالى يستعملون عبارات تودي إليهما ؛ بأن الناس اعتادوا أن يستعملوا العبارات المعروفة في كلامهم والصور والتشابيه المأخوذة من حياتهم المألوفة لديهم . فحيثما وجدنا مثل هذه العبارات والصور التي تتضمن معنى التجسيم والتي تشبّه الله بخلقه ، سواء في الكتاب المقدس أو غيره ، يجب أن نعتبرها مجازا أو رموزا ، وننظر إليها كأداة تعين الناس على معرفة الله ، ويجب نعمد لذلك إلى تأويلها . فإن فم الله تعالى هو إرادته ؛ لأننا باللسان نملي إرادتنا ، وسمعه ولا يعني استعداده لقبول الدعاء ، وعينه تعالى ليست سوى قدرته على معرفة كل شيء ومراقبة كل شيء ، وهكذا) .

وسيتضح لنا بعد قليل أن المعتزلة ساروا على هذه الخطة ، فنفوا الأحاديث النبوية التي تقول بالتشبيه ، وتأولوا الآيات القرآنية التي تحمل معنى التجسيم ؛ كـ : الاستواء على العرش ، والنزول إلى السماء الدنيا ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، وغير ذلك .

٥- حرية الإرادة

كان يحيى الدمشقي من نفاة القدر ودعاة حرية الإرادة ، ورأيه في ذلك أن أفعال العباد لا تجري كلها بقضاء الله وقدره ، فقد قال : (إننا نستطيع أن نفرق بين نوعين من الأفعال ؛ أولهما : الأفعال الجبرية التي تعرض للإنسان لا شعوريا كالولادة والنمو ، والتي يقدم عليها الإنسان إما مكرها وبتأثير قوة خارجية كالأكل والنوم ، أو خطأ كأن يطلق سهما على صيد فيصيب من حيث لم يقصد رجلا ما ويرديه قتيلا . وثانيهما : الأفعال الاختيارية التي يأتيها الإنسان بمحض رغبته واختياره وبعد التفكر والتروي ، وهو يعرف لماذا أقدم عليها ، ويقدر ما عسى أن ينتج عنها ، وينتظر من ورائها المنفعة واللذة ، ويستحق عليها المدح أو الذم . فالأفعال الجبرية تجري بقضاء الله وقدره ، وأما الأفعال الاختيارية فالإنسان يتمتع فيها بحرية الإرادة والاختيار ، فهو قادر على أن يأتيها أو يمتنع عنها . وذلك بأن القدرة لا تتم إلا إذا قدر الإنسان على فعل الشيء وعلى تركه ، أو على الاختيار وبين الشيء وبين ضده ، كأن يصدق في قوله أو يكذب ، يفي لصديقه أو يخونه ، يسرع في مشيه أو يبطئ .

هكذا وضع يحى الدمشقي عقيدته في القدر واضحة جلية، فالقدر – في نظره – فيما يختص بالأفعال الجبرية هو أن تلك الأفعال من صنع الله تعالى وتقديره ، وأما فيما يختص بالأفعال الاختيارية فهو أن الله يعلم أنها ستحدث قبل حدوثها .

وحجته في تقسيم الأفعال على هذا المنوال أن من أفعال العباد ما لا صنع لهم فيها ولا تقدير ، فهي من صنع الله . ومنها ما هو ظلم ولوم ، فلا يعقل أن تنسب إلى الله ؛ فالله تعالى لم يشأ الشر ولا يجبر الناس على فعل الخير ، والإنسان له ملء الحرية أن يلزم الفضيلة ويطيع الله ، أو يتنكبها ويتبع الشيطان ، والشيطان يدعو الناس إلى الشر فقط ولا يكرههم عليه .

وبعد أن يفرغ الدمشقي من تحديد القدر ، ينتقل إلى تقرير حرية الإنسان في أفعاله الاختيارية ، ويحاول أن يدافع عن تلك الحرية ويثبت ضرورتها . فهو يقول : (إن الإنسان يجب أن يتمتع بحرية الإرادة ؛ لأنه حيوان عاقل مزود بالعقل الذي يميز بين الأشياء وبالقدرة على العمل ، أما الحيوانات الأخرى فغير عاقلة ، ولذلك فهي لا تتمتع بحرية الإرادة . ثم إن الإنسان يخضع الطبيعة لرغباته ويتحكم في غرائزه ، بخلاف الحيوان الأعجم الذي تتحكم فيه غرائزه ويخضع للطبيعة فتسيره . يضاف إلى هذا أن أفعال الإنسان تستحق المدح والذم ، ولا يمكن أن تكون كذلك إلا إذا كان الإنسان حرًا في اختيارها . وإذن فحرية الإرادة هي أهم فارق بين الإنسانية وبين الحيوانية ، إنها أعظم ما وهب الله عباده ، فإذا أنكرناها عليهم كان ذلك منتهى السخف) .

إن كل من يطلع على عقائد المعتزلة لا يفوته أن يدرك بسرعة الشبه العظيم بين قولهم نفي القدر وإثبات حرية الإرادة وبين ما سبقهم إليه يحيى الدمشقي من القول فيهما . غير أن هذا الشبه – على عظمه – يجب ألا يجعلنا نجزم بتأثر المعتزلة بأقوال يحيى في القدر ؛ لأن الخلاف في القدر من المسائل الأولية التي تعرض للعقل البشري في بدء تفكيره) . اهـ. كلام الأستاذ زهدي .

ولننظر الآن في آراء يحيى الدمشقي وفي آراء المعتزلة :

١- القول بخير الله تعالى : موجود في إنجيل برنابا .

٢- القول بالأصلح : موجود في إنجيل برنابا .

٣- نفي الصفات والأسماء : موجود في إنجيل برنابا .

٤- المجاز والتأويل : موجود في إنجيل برنابا .

٥- حرية الإرادة : موجود في إنجيل برنابا .

وقد سبق أن ذكرنا نصوصًا من إنجيل برنابا يعلم منها أن المعتزلة هم تلاميذ النصارى بشهادة يحيى الدمشقي .

وأذكرها هاهنا نصًا من إنجيل برنابا يبين أن يحيى الدمشقي قد اقتبس منه تعاليمه؛ وهو :

(ولما كان يسوع ذات يوم في رواق سليمان ، دنا منه أحد فرقة الكتبة ، وهو أحد الذين يخطبون في الشعب ، وقال له : يا معلم ، لقد خطبت في هذا الشعب مرارا عديدة ، وفي خاطري آية من الكتاب أشكل عليّ فهمها .

أجاب يسوع : وما هي ؟

قال الكاتب : هي ما قاله الله لابراهيم أبينا : إني أكون جزاؤك العظيم . فكيف يستحق الإنسان هذا الجزاء ؟

فتهلل حينئذ يسوع بالروح ، وقال : حقا إنك لست بعيدا عن ملكوت الله ، أصغ السمع إليّ ؛ لأني أفيدك معنى هذا التعليم .

لما كان الله غير محدود والإنسان محدودًا ، لم يستحق الإنسان الله ، فهل هذا موضع ريبتك أيها الأخ ؟

أجاب الكاتب باكيا : يا سيد ، إنك تعرف قلبي إذا تكلم ؛ لأن نفسي تروم أن تسمع صوتك .

فقال حينئذ يسوع : لعمر الله ، إن الإنسان لا يستحق النَّفَس القليل الذي يأخذه كل دقيقة .

فلما سمع الكاتب هذا كاد يُجَن ، واندهل التلاميذ ؛ لأنهم ذكروا ما قال يسوع أنهم مهما أعطوا في حب الله يأخذون مائة ضعف .

حينئذ قال : لو أقرضكم أحد مائة قطعة من الذهب ، فصرفتم هذه القطع ، أفتقولون لذلك الإنسان : إني أعطيك ورقة كرمة عفنة ، فأعطني لها بيتك لأني أستحقه ؟

أجاب الكتاب : لا يا سيدي ؛ لأنه يجب عليه أن يدفع ما عليه ، ثم إذا أراد شيئا أن يعطي أشياء جيدة ، ولكن ما نفع ورقة فاسدة ؟

أجاب يسوع : لقد قلت حسنا أيها الأخ ، فقل لي : من خلق الإنسان من لا شيء ؟ من المؤكد أنه هو الله الذي وهبه العالم برمته لمنفعته ، ولكن الإنسان قد صرف كله بارتكاب الخطيئة ؛ لأنه بسبب الخطيئة انقلب العالم ضدًا للإنسان في شقائه شيء يعطيه الله سوى أعمال أفسدتها الخطيئة ؛ لأنه بارتكاب الخطيئة كل يوم يفسد عمله ؛ لذلك يقول إشعيا النبي : إن برنابا هو كخرقة حائض .

فكيف يكون للإنسان استحقاق وهو غير قادر على الترضية ؟ لعل الإنسان لا يخطئ ؟

من المؤكد أن إلهنا يقول على لسان نبيه داود : إن الصديق يسقط سبع مرات في اليوم ، فكم مرة يسقط الفاجر إذن ؟ وإذا كان برنابا فاسدا ، فكم يكون فجورنا ممقوتا ؟ لعمر الله ، إنه لا يوجد شيء يجب على الإنسان الإعراض عنه كهذا القول : إني أستحق .

ليعرف الإنسان أيها الأخ عمل يديه ، فيرى توًا استحقاقه حقا إن كل عمل صالح يصدر عن الإنسان لا يفعله الإنسان ، بل إنما يفعله الله فيه ؛ لأن وجوده من الله الذي خلقه . أما ما يفعله الإنسان ، فهو يخالف خالقه ويرتكب الخطيئة التي لا يستحق عليها جزاءً بل عذابا .

لم يخلق الله الإنسان كما قلت قط بل كاملا ، ولقد أعطاه ملاكين ليحرساه ، وبعث له الأنبياء ، ومنحه الشريعة ، ومنحه الإيمان ، وينقذه كل دقيقة من الشيطان ، ويريد أن يهبه الجنة ، بل أكثر من ذلك بأن الله يريد أن يعطي نفسه للإنسان ، فتأملوا إذا كان الدين عظيما ، فلمحو هذه وجب عليكم أن تكونوا أنتم قد خلقتم الإنسان من العدم ، وأن تكونوا قد خلقتم أنبياء بعدد ما بعث الله مع خلق عالم وجنة ، بل أكثر من ذلك مع خلق إله عظيم كإلهنا ، وأن تهبوها برمتها لله ، فهذا يمحي الدين ويبقى عليكم فرض تقديم الشكر فقط .

ولكن لما كنتم غير قادرين على خلق ذبابة واحدة ، ولما كان لا يوجد إلا واحد وهو سيد كل الأشياء ، فكيف تقدرون أن تمحو دينكم ؟

حقا إن أقرضكم أحد مائة قطعة من الذهب ، وجب عليكم أن تردوا مائة قطعة من الذهب .

وعليه فإن معنى هذا الأخ هو أنه لما كان الله سيد الجنة وكل شيء يقدر أن يقول ما يشاء ويهب كل ما يشاء ، لذلك لما قال لإبراهيم : إني أكون جزاءك العظيم . لم يقدر إبراهيم أن يقول : جزائي ، بل الله هبتي وديني ؛ لذلك يجب عليك أيها الأخ عندما تخطب في الشعب أن تفسر هذه الآية هكذا أن يهب الإنسان كذا وكذا من الأشياء إذا عمل الإنسان حسنا .

متى كلمك الله أيها الإنسان وقال : إنك يا عبدي قد علمت حسنا حبا فيَّ ، فأي جزاء تطلبه مني أنا إلهك ؟ فأجب أنت : لما كنت يا رب عمل يديك ، فلا يليق أن يكون فيَّ خطيئة وهو ما يحبه الشيطان ، فارحم يا رب لأجل مجدك أعمال يديك .

فإذا قال الله : قد عفوت عنك ، وأريد الآن أن أجزيك . فأجب : يا رب ، أنا أستحق العقوبة لما فعلته ، وأنت تستحق لما فعلتَ أن تُمَجَّدَ ، فعاقبني يا رب على ما فعلتُ ، وخلص ما قد صنعتُ .

فإذا قال الله : ما هو العقاب الذي تراه معادلا لخطيئتك ؟

فأجب أنت : يا رب ، بقدر ما سيكابده المنبوذون .

فاذا قال الله : لماذا تطلب يا عبدي الأمين عقوبة عظيمة كهذه ؟ فأجب أنت : لو آخذ منها على قدر ما أخذتُ ، لكانوا أشد إخلاصا مني في خدمتك .

فإذا قال الله : متى تريد أن تصيبك هذه العقوبة ، وكم تكون مدتها ؟ فأجب أنت : الآن وإلى غير نهاية .

لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته ، إن رجلا كهذا يكون مرضيا لله أكثر من كل ملائكته الأطهار ؛ لأن الله يحب الاتضاع الحقيقي ويكره الكبرياء ؟

حينئذ شكر الكاتب يسوع وقال له : يا سيدي ، لنذهب إلى بيت خادمك ؛ لأن خادمك يقدم لك وللتلاميذ طعاما .

أجاب يسوع : إني أذهب الآن إلى هناك ، متى وعدتني أن تدعوني " أخا " لا " سيدا " وتقول : إنك أخي لا خادمي .

فوعد الرجل وذهب يسوع إلى بيته .

بينما كانوا جالسين على الطعام ، قال الكاتب : يا معلم ، قلت إن الله يحب الاتضاع الحقيقي ، فقل لنا ما هو وكيف يكون حقيقيًا أو كاذبا .

أجاب يسوع : الحق أقول لكم : إن من لا يصير كطفل صغير ، لا يدخل ملكوت السماء .

تعجب كل أحد لسماع هذا ، وقال كلٌّ للآخر : وكيف يمكن لمن كان ابن ثلاثين أو أربعين سنة يصير ولدا ؟ حقا إن هذا لقول عويص .

أجاب يسوع : لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته ، إن كلامي لحق ، إني قلت لكم : إنه يجب على الإنسان أن يصير كطفل صغير ؛ لأن هذا هو الاتضاع الحقيقي ، فإنكم لو سألتم ولدا صغيرا : من صنع ثيابك ؟ يجيب : أبي . وإذا سألتموه : لمن البيت الذي هو فيه ؟ يقول : بيت أبي . وإذا سألتموه : من يعطيك لتأكل ؟ يجيب : أبي . وإذا قلتم : من علمك المشي والتكلم ؟ يجيب : أبي . ولكن إذا قلتم من شجَّ جبهتك ، فإن جبهتك معصوبة ؟ يجيب : سقطت فشججت رأسي . وإذا قلتم له : فلماذا وقعت ؟ يجيب : ألا ترون أني صغير حتى لا قوة لي على المشي والإسراع كالبالغ ؟ حتى أنه يجب أن يأخذ أبي بيدي إذ كنت أمشي بثبات قدم ، ولكن تركني أبي هنيهة لأتعلم المشي جيدا ، فأحببت أن أسرع فسقطت .

وإذا قلتم : وماذا قال أبوك ؟ يجيب : لماذا لم تمشِ ببطء ، انظر ألا تترك في المستقبل جانبي .

قال يسوع : قولوا لي أهذا صحيح ؟

أجاب التلاميذ والكاتب : إنه لصحيح كل الصحة .

فقال حينئذ يسوع : إن من يشهد بالله بإخلاص قلب أن الله منشئ كل صلاح، وأنه هو نفسه منشئ الخطيئة يكون متضعا ، ولكن من يتكلم بلسانه كما يتكلم الولد ويناقضه بالعمل ، فهو بالتأكيد ذو تواضع كاذب وكبرياء حقيقة أن الكبرياء تكون في أوجها متى استخدمت الأشياء الوضيعة لكيلا توبخها الناس وتمتهنها .

فالاتضاع الحقيقي هو مسكنة النفس التي يعرف بها الإنسان نفسه بالحقيقة ، ولكن الضعة الكاذبة إنما هي ضبابة من الجحيم تجعل بصيرة النفس مظلمة بحيث ينسب الإنسان إلى الله ما يجب عليه أن ينسبه إلى نفسه .

وعليه فإن الرجل ذا الاتضاع الكاذب يقول : إنه متوغل في الخطيئة ، ولكن إذا قال له أحـد : خاطئ . ثار حنقه عليه واضطهده .
ذو الاتضاع الكاذب يقول : إن الله أعطاه كل ماله ، ولكنه هو من جهة لم ينعمى ، بل عمل أعمالا صالحة .
فقولوا لي أيها الأخوة كيف يسير فريسيو الزمن الحاضر ؟
أجاب الكاتب باكيا : يا معلم ، إن لفريسي الزمن الحاضر ثياب الفريسيين واسمهـم ومـا في قلوبهم ، وأعمال سوى كنعانيين ، ويا ليتهم لم يغتصبوا اسما كهذا، فإنهم حينئـذ لا يخـدعون البسطاء ، أيها الزمن القديم كم قد عاملتنا بقسوة إذ أخذت منا الفريسيين الحقيقيين وتركت لنا الكاذبين .
أجاب يسوع : أيها الأخ ، ليس هو الذي فعل هذا ، بل بالحرى العالم الشرير؛ لأن خدمة الله بالحق تمكن في زمن ، ولكن الناس يصيرون أردياء بالاختلاط بالعالم؛ أي : بالعوائد الرديئـة في كل زمن ، ألا تعلم أن جحيزي خادم اليسع النبي لما رغب عذب وأورث سيده الخجل نقـود نعمان السرياني وثوبه ، ومع ذلك كان لا ليسع عدد وافر من الفريسيين جعله الله يتنبأ لهم .
الحق أقول لك : إنه قد بلغ من ميل الناس لعمل الشر ومن إغراء العالم لهم بذلك ومن إغـراء الشيطان إياهم على الشر مبلغا يعرض معه فريسيو الزمن الحاضر عن كل عمل صالح وكل قدوة طاهرة .
وإن لفي مثال جحيزي كفاية ، لهم ليكونوا منبوذين من الله .
أجاب الكاتب : إن ذلك لصحيح .
فقال من ثم يسوع : أريد أن تقص على مثال حجي وهو نبي الله ؛ ليرى الفريسي الحقيقي .
أجاب الكاتب : ماذا أقول يا معلم ، حقا إن كثيرين يصدقون مع أنه مكتوب في دانيال النبي ، ولكن إطاعة لك أقص الحقيقة :
كان حجي ابن خمس عشرة سنة عندما خرج من عند أناثوث ليخدم عوبديا النبي بعد أن باع إرثه ووهبه للفقراء ، أما عوبديا الشيخ الذي عرف اتضاع حجي فاستعمله بمثابة كتاب يعلم به

تلاميذه ، فلذلك كان يكثر من تقديم الأثواب والأطعمة الفاخرة ، ولكن حجي كان دائما يرد الرسول قائلا : اذهب وعد إلى البيت ؛ لأنك ارتكبت خطأ ، أفيرسل لي عوبديا أشياء كهذه ؟ لا البتة ؛ لأنه يعرف أني لا أصلح لشيء ، بل إنما ارتكب الخطيئة .

ومتى كان عند عوبديا شيء رديء أعطاه لمن ولي حجي ؛ لكي يراه ؛ فكـــان إذا رآه حجـــي يقول في نفسه : ها هو ذا عوبديا قد نسيني بلا ريب ؛ لأن هذا لا يصلح إلا لي ؛ لأني شر من الجميع ومهما كان الشيء رديئا فمتى أخذته من عوبديا الذي منحني الله إياه على يديه صـــار كنزاً .

ومتى أراد عوبديا أن يعلم أحدا كيف يصلي ، دعا حجي وقال : اتل الآن صلاتك ليسمع كل أحد كلامك . فيقول حجي : أيها الرب إله إسرائيل ، انظر إلى عبدك الذي يدعوك ؛ لأنك قد خلقته ، أيها الرب الإله البار اذكر برك وقاص خطايا عبدك ؛ لكي لا أبخس عملك وإلهـــي إني لا أقدر أن أسألك المسرات التي تهبها لعبيدك المخلصين ؛ لأني لا أفعل شيئا إلا الخطايا ، فـــإذا أنزلت يا رب بأحد عبيدك سقما ، فاذكرني أنا .

ثم قال الكاتب : وكان متى فعلى حجي هذا أحبه الله ، حتى أن الله كان يعطي النبوة لكل من وقف بجانبه ، ولم يكن حجي يطلب شيئا فيمنعه الله عنه .

ولما قال الكاتب الصالح هذا ، بكى كما يبكي النوتي إذا رأى سفينته قد تحطمت ، وقال : كان هوشع لما ذهب ليخدم الله أميرا لسبط نفتالي وكان له من العمر أربع عشرة سنة وبعد أن باع إرثه ووهبه الفقراء ذهب ليكون تلميذا لحجي.

وكان هوشع مشغوفا بالصدقة ، حتى أنه كان كلما طُلِب منه شيء يقول : أيها الأخ ، إن الله منحني هذا لك فاقبله .

فلم يبق له لهذا السبب سوى أو بين فقط أي صدرة من مسح ورداء من جلده، وكان قد باع كما قلت إرثه وأعطاه للفقراء ؛ لأنه بدون هذا لا يجوز لأحد أن يسمى فريسيا .

وكان عند هوشع كتاب موسى ، وكان يطالعه برغبة شديدة ، فقال له حجي يوما ما : مـــن أخذ منك كل مالك ؟ أجاب : كتاب موسى .

وحدث أن تلميذ أحد الحاورين أحب أن يذهب إلى أورشليم ، ولم يكن له رداء ، فلما سمع بتصديق هوشع ذهب لبراه وقال له : أيها الأخ ، إني أريد أن أذهب إلى أورشليم ؛ لأقوم بتقديم ذبيحة لإلهنا ولكن لي رداء ، فلا أدرى ماذا أفعل .

فلما سمع هوشع قال : عفوا أيها الأخ ، فإني قد ارتكبت خطيئة عظيمة إليك ؛ لأن الله أعطاني رداءً لكي أعطيك إياه ، فنسيت ، فاقبله الآن ، وصَلِّ إلى الله لأجلي . فصدق الرجل هذا وقبل رداء هوشع وانصرف . ولما ذهب هوشع إلى بيت حجي قال حجي : من أخذ رداءك ؟ أجاب حجي : كتاب موسى . فَسُرَّ حجي كثيرا من سماع هذا ؛ لأنه درك صلاح هوشع .

وحدث أن اللصوص سلبوا فقيرا وتركوه عريانا ، فلما رآه هوشع نزع صدرته وأعطاها للعريان ، ولم يبق سوى قرصة صغيرة من جلد الماعز على سوأته ، فلما لم يأتِ إلى حجي ، ظن حجي الصالح أن هوشع مريض فذهب مع تلميذين لبراه ، فوجدوه ملفوفا بأوراق من النخل ، فقال حينئذ : قل لي الآن ، لماذا لم تزرني ؟ أجاب هوشع : إن كتاب موسى قد أخذ صدرتي ، فخشيت أن آتي إلى هناك بدون صدرة . فأعطاه هنالك حجي صدرة أخرى .

وحدث أن شابا رأى هوشع يطالع كتاب موسى ، فبكى وقال : أنا أيضا أود القراءة لو كان لي كتاب . فلما سمع هوشع هذا ، أعطاه الكتاب قائلا : أيها الأخ، إن هذا الكتاب لك ؛ لأن الله أعطاني إياه ؛ لكي أعطيه من يرغب في كتاب باكيا. فصدقه الرجل وأخذ الكتاب .

وكان تلميذ لحجي على مقربة من هوشع ، فأراد أن يرى هل كان كتابه مكتوبا صحيحا ، فذهب ليزوره ، وقال له : أيها الأخ ، خذ كتابك ، ولننظر هل هو مطابق لكتابي ؟ فأجاب هوشع : لقد أخذ مني . فقال التلميذ : من أخذه منك؟ أجاب هوشع : كتاب موسى .

فلما سمع الآخر هذا ، ذهب إلى حجي وقال له : إن هوشع قد جن ؛ لأنه يقول : إن كتاب موسى قد أخذ منه كتاب موسى . أجاب حجي : يا ليتني كنت مجنونا مثله ، وكان كل المجانين نظير هوشع .

وشن لصوص سوريا الغارة على أرض اليهودية ، فأسروا ابن أرملة فقيرة كانت تسكن على مقربة من جبل الكرمل ؛ حيث كان الأنبياء والفريسيون يقيمون . فاتفق حينئذ أن هوشع كان

ذاهبا ليقطع حطبا ، فالتقى بالمرأة وهي باكية ، فشرع من ثَمَّ يبكي حالا ؛ لأنه كان متى رأى ضاحكا ضحك ومتى رأى باكيا بكى . فسأل حينئذ هوشع المرأة عن سبب بكائها ، فأخبرته بكل شيء .

فقال حينئذ هوشع : تعالي أيتها الأخت ؛ لأن الله يريد أن يعطيك ابنك . فذهبا كلاهما إلى حرون باع هوشع نفسه ، وأعطى النقود للأرملة التي لم تعلم كيف حصل عليها ، فقبلتها وافتدت ابنها .

والذي اشترى هوشع أخذه إلى أورشليم ؛ حيث كان له منزل وهو لا يعرف هوشع ، فلما رأى حجي أنه لا يمكن العثور على هوشع ، لبث كاسف البال ، فأخبره من ثَمَّ ملاك الله كيف أنه أُخِذَ عبدًا إلى أورشليم .

فلما علم هذا حجي الصالح ، بكى لبعاد هوشع كما تبكي الأم لبعاد ابنها .

وبعد أن دعا تلميذين ذهب إلى أورشليم ، فصادف بمشيئة الله عند مدخل المدينة هوشع ، وكان محملا خبزا ليأخذه إلى الفعلة في كرم سيده . فلما استبانه حجي قال : يا بني ، كيف هجرت أباك الشيخ الذي ينشدك نائحا ؟! أجاب هوشع : يا أبتاه ، لقد شُرِيتُ . فقال حينئذ حجي بحنق : من هو ذلك الرديء الذي باعك ؟ فأجاب هوشع : غفر لك الله يا أبتاه ؛ لأن الذي باعني صالح ، بحيث لو لم يكن في العالم لما صار أحد طاهر الله . فقال حجي : فمن هو إذن ؟ أجاب هوشع : إنه كتاب موسى يا أبتاه .

فوقف حينئذ حجي الصالح كمن فقد عقله وقال : ليت كتاب موسى يبيعني أنا أيضا مع أولادي كما باعك . وذهب حجي مع هوشع إلى بيت سيده الذي قال لما رأى حجي : تبارك إلهنا الذي أرسل إلى بيتي ، وأسرع ليقبل يده . فقال حينئذ حجي : قبل أيها الأخ يد عبدك الذي ابتعه ؛ لأنه خير مني . وأخبره بكل ما يجري، فمن ثَمَّ أعتق السيد هوشع .

ثم قال الكاتب : وهذا كل ما تبتغي أيها المعلم .

فقال حينئذ يسوع : إن هذا لصدق ؛ لأن الله قد أكده لي ولتقف الشمس ولا تتحرك برهة اثنتي عشرة ساعة ؛ لكي يؤمن كل أحد أن هذا صدق ، وهكذا حدث فأفضى إلى هلع أورشليم واليهودية كلها .

وقال يسوع للكاتب : ماذا عساك أن تطلب مني أيها الأخ وعندك مثل هذه المعرفة ، لعمر الله إن في هذا كفاية لخلاص الإنسان ؛ لأن اتضاع حجي وتصدق هوشع يكملان العمل بالشريعة برمتها وكتب الأنبياء برمتها .

قل لي أيها الأخ ، أخطر في بالك لما أتيتَ لتسألني في الهيكل أن الله قد بعثني لأبيد الشريعة والأنبياء ؟

من المؤكد أن الله لا يفعل هذا ؛ لأنه غير متغير ، فإن ما فرضه الله طريقا لخلاص الإنسان هو ما أمر الأنبياء بالقول به ، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته لو لم يفسد كتاب موسى مع كتاب أبينا داود بالتقاليد البشرية للفريسيين الكذبة والفقهاء لما أعطاني الله كلمته ، ولكن لماذا أتكلم عن كتاب موسى وكتاب داود ؟ فقد فسدت كل نبوة حتى أنه لا يطلب اليوم شيء ؛ لأن الله أمر به ، بل ينظر إذا كان الفقهاء يقولون به والفريسيون يحفظونه كأن الله على ضلال والبشر لا يضلون ، فويل لهذا الجيل الكافر ؛ لأنهم سيحملون تبعه دم كل نبي وصديق مع زكريا بن برخيا الذي قتلوه بين الهيكل والمذبح .

أي نبي لم يضطهدوه ؟ أي صديق تركوه يموت حتف أنفه ؟ لم يكادوا يتركوا واحدا وهم يطلبون الآن أن يقتلوني .

يفاخرون بأنهم أبناء إبراهيم وأن لهم الهيكل الجميل ملكا ، لعمر الله إنهم أولاد الشيطان ، فلذلك ينفذون إرادته ، ولذلك سيتهدم الهيكل مع المدينة المقدسة تهدما لا يبقى معه حجر على حجر من الهيكل .

قل لي أيها الأخ الفقيه المتضلع من الشريعة : بأي ضرب موعد مسيا لأبينا إبراهيم ؟ أبإسحاق أم بإسماعيل ؟

أجاب الكاتب : يا معلم ، أخشى أن أخبرك عن هذا بسبب عقاب الموت .

حينئذ قال يسوع : إني آسف أيها الأخ أني أتيت لآكل خبزا في بيتك ؛ لأنك تحب هذه الحياة الحاضرة أكثر من الله خالقك ، ولهذا السبب تخشى أن تخسر حياتك ، ولكن لا تخشى أن تخسر الإيمان والحياة الأبدية التي تضيع متى تكلم اللسان عكس ما يعرف القلب من شريعة الله .

حينئذ بكى الكاتب الصالح وقال : يا معلم ، لو عرفت كيف أثمر لكنت قد بشرت مرارا كثيرة بما أعرضت عن ذكره ؛ لئلا يحصل شغب في الشعب .

أجاب يسوع : يجب عليك ألا تحترم الشعب ولا العالم كله ولا الأطهار كلهم ولا الملائكة كلهم إذا أغضبوا الله ، فخير أن يهلك العالم كله من أن تغضب الله خالقك ولا تحفظه في الخطيئة ؛ لأن الخطيئة تهلك ولا تحفظ أما الله فقدير على خلق عوالم عدد رمال البحر بل أكثر .

حينئذ قال الكاتب : عفوا يا معلم ؛ لأني قد أخطأت .

قال يسوع : الله يغفر لك ؛ لأنك إليه قد أخطأت .

فقال من ثم الكاتب : لقد رأيت كتيبا قديما مكتوبا بيد موسى ويشوع الذي أوقف الشمس كما فعلت خادمي ونبي الله ، وهو كتاب موسى الحقيقي ففيه مكتوب : إن إسماعيل هو أب لمسيا ، وإسحاق أب لرسول مسيا .

وهكذا يقول الكتاب : إن موسى قال : أيها الرب إله إسرائيل القدير الرحيم ، أظهر لي عبدك في سناء مجدك . فأراه الله من ثَمَّ رسوله على ذراعي إسماعيل ، وإسماعيل على ذراعي إبراهيم ، ووقف على مقربة من إسماعيل إسحاق ، وكان على ذراعيه طفل يشير إلى رسول الله قائلا : هذا هو الذي لأجله خلق الله كل شيء .

فصرخ من ثَمَّ موسى بفرح : يإسماعيل ، إن في ذراعيك العالم كله والجنة ، اذكرني أنا عبد الله لأجد نعمة في نظر الله بسبب ابنك الذي لأجله صنع الله كل شيء .

لا يوجد في ذلك الكتاب أن الله يأكل لحم المواشي أو الغنم ، لا يوجد في ذلك الكتاب أن الله قد حصر رحمته في إسرائيل فقط ، بل الله يرحم كل إنسان يطلب الله خالقه بالحق .

لم أتمكن من قراءة هذا الكتاب كله ؛ لأن رئيس الكهنة الذي كنت في مكتبته نهاني قائلا إن : إسماعيليًا قد كتبه .

فقال حينئذ يسوع : أنظر ألا تعود أبدا فتحجز الحق ؛ لأنه بالأيمان بمسيا سيعطي الله الخـلاص للبشر ، ولن يخلص أحد بدونه) [برنابا ١٨٠-١٩٢] .

الفصل الثاني

التعريف

بمخطوطات البحر الميت

الفصل الثاني

التعريف بمخطوطات البحر الميت

موقع قُمْران آثاريا

يقع موقع خربة قُمْران شمال غرب البحر الميت ، على بعد نحو ١٣ كم جنوب أريحا .

اكتشاف المخطوطات ونشرها

لم تأخذ التوراة العبرية من الفترة التاريخية التي تطرقنا لها سوى سفر دانيال ، والذي أضافت له التوراة اليونانية سفري المكابيين الأول والثاني ، هذا إذا أخذنا بالكتابات التي يوافق مضمونها هذه الفترة التاريخية .

و لم يكن أحد يشك أبدا أن جزءا على الأقل من الكتابات المنحولة للعهد القديم لم يُحفظ إرثا فقط بل كتابة ، ترجع إلى الفترة التي كان لها أن تشهد أيضا أول تحرير للنصوص الحاخامية .

في ربيع عام ١٩٤٧م جاء بائعان سوريان من المذهب الأورثوذكسي إلى مطرافم مار أثناسوس صموئيل يحملان أحد المدارج التي كان البدو يقولون إنهم اكتشفوها صدفة في مغارة أثناء بحثهم عن ماعز ضلت .

وعندما اكتشف المطران أن النصوص المدونة في المدرج كتبت بالعبرية ، وعد بشراء مجموع المخطوطات .

لكن هذه العملية لم تتم حتى الصيف وعلى خمسة مدارج فقط ، و لم يعْزُ أوائلُ المستشرقين الذين تمت استشارتهم أهميةً كبرى للمخطوطات .

كان عمر عام آثار الأراضي المقدسة كما يسمى ، أي المواقع المذكورة في العهدين القديم والجديد قد شارف على مائة عام ، وكان علماء آثار فرنسيين وإنجليز قد اكتشفوا في المنطقة بضعة تدوينات ، إنما لم يكتشفوا أبدا أية مخطوطة .

وهكذا سيطرت فكرة أن الحروب الكثيرة التي تعرضت لها المنطقة عبر تاريخها الطويل أدت إلى اندثار كل أثر كتابي من التاريخ الديني القديم ؛ ولهذا كان اكتشاف كنز من المخطوطات غير متوقع أبدا .

وفي ٢٩ نوفمبر من العام نفسه ، اقترح أحد تجار الأثريات على أستاذ من جامعة القدس العبرية اسمه (سكنيك E.sukenik) شراء بضعة مدارج جلدية ، وفي هذا اليوم نفسه صَوَّت المجلس العام للأمم المتحدة على تقسيم فلسطين التي كانت خاضعة للانتداب البريطاني منذ عام ١٩٢٢م .

وانفجر الصراع بين العرب واليهود إثر هذا القرار ، واستطاع سكنيك تمرير المخطوطات التي كانت بحوزته كان الوقت متأخرا جدا ، إذ تم تقسيم المدينة ، وكان المطران يسكن في القطاع العربي منها أي في أورشليم القديمة في دير القديس مرقس ، ومع ذلك فقد كان لديه الوقت الكافي لرؤيتها وللتحقق من أهمية الاكتشاف ، وهكذا أخذ الطرفان كل على حدة في دراسة الوثائق التي بين يديه .

كانت مخطوطات المغارة الأولى هذه بحالة جيدة ؛ مما ساعد على نشرها بسرعة، فقد أرسل المطران بعض المخطوطات التي كانت بحوزته في فبراير عام ١٩٤٨م إلى المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية ، وأثارت المدارج اهتمام العلماء الأمريكيين فورا .

وكان الخط الذي دونت به يشبه خط بردية وجدت في مصر عام ١٩٠٣م ، وترجع إلى بداية العصر المسيحي تقريبا ، وجاء جواب البروفسور ويليام ف. أولبرايت الذي أرسلت صور المخطوطات له في ١٥ مارس من الولايات المتحدة : (إنه أعظم اكتشاف لمخطوطات في العصر الحديث) .

وكان سكنيك قد توصل إلى النتيجة نفسها ، وأعلن في موضوع نشره في نيسان عام ١٩٤٨م عن اكتشاف مخطوطات عمرها أكثر من ألفي سنة ، لكن إثبات أصالة الاكتشاف الذي شكك به بعض العلماء كان يتطلب العثور على المغارة التي جاءت منها هذه المخطوطات ، وقد استطاع ضابط بلجيكي تابع لعصبة الأمم المتحدة في يناير من عام ١٩٤٩م تحديد موقعها بمساعدة مجندين من الفيلق العربي الأردني ، وذلك في الحيد الصخري الذي يشرف على شاطئ البحر الميت على بعد نحو ١٢ كم جنوب أريحا ، وعندها قام مدير قسم آثاريات الأردن هاردينغ والأب الدومينيكاني رولان دوفو مدير مدرسة الآثار الفرنسية ، المعروفة باسم :

المدرسة التوراتية في القدس بتنقيبات منهجية لم تكشف عن أي مدرج جديد في المغارة ، إنما سمحت بتأكيد أصالة المدارج التي كانت قد اكتشفت ، إذ كانت المغارة مليئة بالكسر الفخارية التي أرجعت للعصر الهليني (القرن الثاني ق.م.).

وفي هذه الأثناء بدأ نشر مخطوطات المغارة الأولى هذه ؛ فمنذ عام ١٩٥٠م نشر الأمريكيون بوروز وتريفير وبراونلي مدرجا كاملا من سفر إشعيا التوراتي وشرح حبقوق ، وفي عام ١٩٥١م دستور الجماعة .

ومن الجانب العبري نشر سكنيك عام ١٩٥٤م مدرجا جزئيا لإشعيا وتنظيم الحرب والأناشيد ونشر أفيغاد ويادين سفر التكوين المنحول .

ونشر بارتيليمي وميليك أجزاء أقل أهمية .

وكانت قد وجدت في حالة أقل جودة ، وذلك عام ١٩٥٥م في الجزء الأول من الذي يُعد النشرة الرسمية للكتابات القُمْرانية ، وتوجد بين هذه الأجزاء ملحقات دستور الجماعة ومقاطع كثيرة من الأسفار التوراتية ونصوص أخرى خاصة بالملة ، بينها كتاب الأسرار وأجزاء من الأصل العبري لكتاب اليوبيلات أو الخمسينيات، وجزء آرامي من سفر لاوي ، وقد أثبت ذلك منذ البداية صلة مكتبة قُمْران بالكتب المنحولة للعهد القديم .

لكن سرعان ما بدأت تظهر مخطوطات جديدة في السوق ، فما كان من الأب دوفو إلا أن شك بوجود مغائر أخرى ، وقام بتحريات جديدة مع فريقه واكتشف عام ١٩٥٢م المغارتين المرقمتين ٣ و ٥ ثم عام ١٩٥٥م المغائر ٧ و ٨ و ٩ و ١٠، وفي حين اكتشف البدو في سعيهم للأموال التي دَرَّتها عليهم المخطوطات المغائر ٢ و ٤ الغنية جدا بالمخطوطات و ٦ و ١١ .

وبعد أن نقب دوفو موقع خربة قُمْران كما سبق وذكرنا ، استنتج أن سكان قُمْران كانوا قد خبأوا مخطوطاتهم الثمينة في المغائر مع تقدم الجيش الروماني الذي استولى عام ٦٨ ب.م بقيادة فسباسيانوس على أريحا ، إلا أن سكنيك كان يرى غير ذلك وبرأيه فإن المغائر كانت مخازن للكتب التالفة أو المستعملة لدى الأسينيين وليست مخبأ لها ؛ لأنه كانت لليهود عادة عدم إتلاف

أي كتاب مقدس مدون بالعبرية ، لكن العلماء اليوم لا يرون هذا الرأى ، خاصة وأن العديد من المخطوطات وصلت بحالة جيدة إضافة إلى اكتشاف مخطوط نحاسي بينها .

ونقدر أن هذه المخطوطات كانت جزءا من مخطوطات أخرى ثُمّ نقلها من قِبَل بعض الناجين من الملة ، خاصة وأن إشارات كثيرة تدل على أنهم كانوا منتشرين في موقع أخرى غير قُمْران ، بل وربما كانوا على صلة مباشرة مع إخوة لهم في مدن أخرى مثل دمشق وأورشليم نفسها .

كانت معظم القطع التي تم الحصول عليها مجزأة ومهلهلة ومعطوبة ، ولهذا كان نشرها بطيئا إذ كان يجب ترميم المخطوطات في أحيان كثيرة قبل تحقيقها ، وقد نشرت الأجزاء التي وجدت في المغائر II , III , V, VI , VII , VIII , IX , X والمسماة بالمغائر الصخرية عام ١٩٦٢م على يد بييه وميليك في الجزء الثالث من (**DISCOVERIES IN THE JUDEAN DESERT**) تستحق وثائق كثيرة من هذه المجموعات الإشارة إليها ، فقد وجد بينها أجزاء من مؤلف سُمِّيَ اتفاقًا : كتاب دمشق ، وكان معروفا منذ أن نشر شختر عام ١٩١٠م مخطوطتين ترجعان للعصور الوسطى مصدرهما الكنيس القرائي في القاهرة القديمة ، الأمر الذي أعاد فتح النقاش حول أصل النص وسمحت بعض أجزاء المغارة لميليك بالتعرف على كتاب للعمالقة في قُمْران مرتبط بكتابات أخنوخ .

وكشفت المغارة V عن مقاطع آرامية مهمة عنوانها : وصف أورشليم الجديدة ، وهي محاولة معمارية في ظاهرها لمدينة مثالية مقسمة إلى مربعات كاملة .

ومن المغارة III جاء المدرج النحاسي وتعداد للأماكن التي طمرت فيها الكنوز . ويرى بعضهم أن قصة هذه الكنوز خرافية ، في حين يظن بعضهم الآخر بأنها لائحة حقيقية بالمخابئ ، ويدعو مجموع الكنوز الكبير إلى التساؤل فيما إذ كان الأمر يتعلق بكنز الملة أو بكنز هيكل أورشليم نفسه .

وكانت المغارة التي استكشفت منذ عام ١٩٥٢م من أغنى المغائر وكثير من النصوص التي وجدت فيها نشرت في مجلات بدءا من عام ١٩٥٤ ومنها تستمونيا، وحبائل المرأة وشرح ناحوم ، وشرح المزمور ٣٧ .

وقد أعيد نشرها في المجلد الخامس من (DISCOVERIES IN THE JUDEAN DESERT) الذي صدر عام ١٩٦٨م بتوقيع أليغرو ، ويشتمل هذا الجزء على وثائق أخرى مهمة جدا كنشاط الملة الأدبي ، كما وعلى خارطتين تنجيميتين فلكيتين مرموزتين وبقايا كتاب يتحدث عن " أحقاب العالم " وهناك مجموعة ثانية من الأجزاء التي وجدت في المغارة IV نشرت في المجلد VII من الذي نشر عام ١٩٨٢م على يد بييه، وهو غني بمقاطع الأناشيد .

كذلك نشرت نصوص كثيرة من المغارة خارج سلسلة (DISCOVERIES) ، ونشير بشكل خاص إلى أجزاء الأصل الآرامي لأخنوخ الأول مع النسخة الطويلة للموضوع الفلكي الذي يلخصه الفصلان LXXII , LXXXII من الكتاب الإثيوبي الحالي، وقد نشرها ميليك عام ١٩٧٦م .

وثمة أجزاء أخرى فائقة الأهمية للتأريخ الديني لم تنشر حتى الآن إلا بشكل مبدئي ، إضافة إلى تقويم فلكي تنجيمي آرامي مذهل يعتقد أنه مخصص للمسيا ورؤيا آمرام والد موسى ، أما النص المعروف بـ " الطقس السماوي " ، فكان معروفا منذ عام ١٩٥٧م لكن مخطوطات المغارة IV التي استخرج منها لم تنشر حتى عام ١٩٨٥م ، وهو عبارة عن ترانيم لمحرقة السبت ، ويشكل درة الشعر الطقسي في قُمْران .

بل ثمة نصوص أخرى عظيمة الأهمية من المغارة IV لم تنشر بعد ، إنما أشير إليها في أفضل الأحوال بمجرد إشارة ونذكر أخيرا بأن المغارة IV كانت غزيرة جدا بأجزاء من التوراة ، وبفضلها أثبت أن التوراة - باستثناء سفر أستير الذي لم يظهر له أي أثر - كانت موجودة ومقروءة كاملة في قُمْران ، إنما وفق نسخة لا تتفق دائما مع نسخة الإرث اليهودي ، بل تقارب غالبا النسخة التي تشكل أساس النسخة اليونانية السبعينية.

وكانت المغارة XI آخر المغائر التي اكتشفت عام ١٩٥٦م وفيها وجدت نصوص أصلية نجد منها اثنين في هذه الترجمة : مزامير داود المنحولة الذي نشر عام ١٩٦٥م على يد ماندرن في الجزء IV من (DISCOVERIES) وأسطورة ملكيصادق العبرية المعروفة منذ عام ١٩٦٥م بفضل فان در وود .

ومن هذه المغارة أيضا سرقت نسخة لمدرج الهيكل ، وتم العثور عليها عام ١٩٧٦م عند بائع في بيت لحم ، ونشرت عام ١٩٧٧م على يد يادين إنما ليس دون اللجوء إلى أجزاء موازية من مغائر أخرى .

الجدل حول نشر المخطوطات

أين يكمن إذن الجدل الذي أثاره نشر مخطوطات قُمْران ؟ يكمن سبب الجدل في أن بعض الوثائق التي اكتشفت عام ١٩٥٢م في المغارة IV لم تنشر أبدا حتى الآن ، وبعد نحو ٣٠ عاما من توزيع مهام قراءة النصوص ونشرها لا يزال العالم لا يعرف بدقة ما هي طبيعة النصوص التي رافقت نشر مختلف المخطوطات التي وجدت في المغائر من I إلى XI ماعدا المغارة IV وهي الأهم هنا .

كانت أولى المخطوطات التي نشرت هي التي عثر عليها في المغارة I كما سبق وأشرنا .

وفي عام ١٩٥٤م استطاعت إسرائيل الحصول على مخطوطات دير القديس مرقس الأربع التي كانت قد نقلت عام ١٩٤٨م إلى الولايات المتحدة ولم تدّعِ أية جهة أو مؤسسة ملكيتها .

وعندها بدأ العمل بمشروع بناء مؤلف لحمل المخطوطات التي تملكها الدولة العبرية وذلك ضمن متحف أورشليم ، وكانت المدرسة التوراتية الفرنسية في القدس قد بدأت من جهتها بدراسة نتائج التنقيبات التي تمت بقيادة الأب دوفو .

وفي عام ١٩٥٥م أطلقت سلسلة ضخمة من الأعمال التي تضم نصوص الأجزاء التي وجدت في المغارة الأولى ، نشرت في أوكسفورد (Clarendon press) وقد خصص الجزء الثاني من هذه السلسلة لاكتشافات أخرى هامة لمخطوطات وجدت في صحراء اليهودية ، وبخاصة مكتشفات وادي المربعات الذي قدم وثائق قضائية ورسائل ترجع إلى الثورة اليهودية الثانية ضد روما .

أما الجزء التالي الذي نشر عام ١٩٦٢م فيعود إلى قُمْران ، ويضم أجزاء مكتشفة من المغائر I III V VI VII VIII IX X ، إضافة إلى المدرج النحاسي الفريد الذي يصف مخبأ كنز ،

ويوجد حاليا في متحف عمان ، وقد ضم الجزء الرابع الذي نشر عام ١٩٦٥م المزامير المكتشفة في المغارة XI .

بقيت إذن مكتشفات المغارة IV الأغنى بالمخطوطات ، وكانت هذه المغارة قد أفلتت من انتباه علماء الآثار الذين تحروا موقع قُمْران عام ١٩٥٢م ، إذ إن مدخلها لم يكن ظاهرا أبـدا مـن الخارج .

وقد اكتشفها أحد شباب قبيلة التعامرة عند مطاردته لحجل مصاب ، ووجد فيها مصباحا مـن الطين المشوي وبعض الكسر الفخارية . وسرعان ما حمل البدو معهـم آلاف الأجـزاء مـن المخطوطات الجديدة من المغارة إلى سوق للأثريات في أورشليم الشرقية ، وقد بـاتوا يعرفـون أهميتها مما دفعهم لطلب أسعار خيالية .

وقد دفعت لهم الحكومة الأردنية ١٥٠٠٠ دينار (نحو ١٥٠٠٠ ليرة إسترلينية) فلـم يرضـهم المبلغ . ولهذا تم اللجوء إلى مؤسسات أجنبية ، ودامت المفاوضات حتى عـام ١٩٥٨م وكـان السعر المطلوب ليرة إسترلينية لكل سنتمتر مربع .

ولا بد لنا هنا من التذكير بأن الوضع السياسي كان قد تغير في المنطقة بعد اكتشاف المغـارة I عام ١٩٤٧م . فعندما حمل مطران دير القديس مرقس المخطوطات إلى الولايات المتحدة عـام ١٩٤٨م ، أي في نهاية الانتداب البريطاني ، لم تكن توجد أية حكومة رسمية في فلسطين يمكنها المطالبة بالوثائق ؛ لأنها كانت تخضع للاحتلال .

وبعد حرب عام ١٩٤٨م ، نصّت اتفاقية الهدنة على ضم الضفة الغربية إلى المملكة الأردنيـة . وهكذا اعتبر الأردن أن المخطوطات المكتشفة بعد عام ١٩٤٩م تعد إرثا وطنيا ، ومنع خروجها من أراضيه .

وبدءا من المجلد III الذي نشر عام ١٩٦٢م ، أطلق على السلسلة الأوكسفوردية التي كانـت المدرسة التوراتية الفرنسـية تنشر فيها مخطوطاتها تسميه (**Discoveries in the judaean desert of Jordan**) وكان هذا أيضا عنوان الجزء V الذي نشر عام ١٩٦٨م.

لكن إسرائيل احتلت القدس الشرقية والضفة الغربية بعد حرب ١٩٦٧ . وهكذا أصبح موقع قُمْران ، وبخاصة الجزء الشرقي من القدس حيث كانت تقع المدرسة التوراتية الفرنسية ومتحف روكفلر – الذي أممه الأردن عام ١٩٦٦ – الذي يحتوي على مخطوطات ثمينة ، تحت الحكم الإسرائيلي .

لكن الأب دوفو لم يكن يرغب التعامل مع الحكومة الإسرائيلية ، وظل حتى وفاته عام ١٩٧١م يعلن كرهه لها .

وبعد موته قامت الحكومة الإسرائيلية بالطلب من الناشر عدم ذكر (**of Jordan**) وخلال هذا الوقت كان إيقاع نشر المخطوطات القُمْرانية قد تباطأ ، والحق أن المخطوطات المغارة **IV** لم تكن بحالة جيدة موازية لمخطوطات المغارة **I** ، فقد بلغ عدد أجزاء التتف الصغيرة نحو ١٥٠٠٠ جزء صغير ، وكان لا بد من وصلها ببعضها وتشكيل المدارج منها قبل البدء بتحقيقها .

كان الأب دوفو قد شكل فريقا من الباحثين منذ عام ١٩٥٣م للقيام بهذه المهمة ، وكان هذا الفريق الدولي يقيم في القدس ، ويتألف من ثمانية شبان من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وبولونيا .

ولقد تم تجميع ٧٠ مخطوطة من أجزاء المغارة **IV** حتى عام ١٩٥٣م ، وتقدم العمل بشكل مذهل بعد ذلك إذ وصل الرقم إلى ٥١١ ومخطوطة على صفائح في عام ١٩٦٠م . ولم يعد من الضروري بقاء الفريق في القدس بعد أن تصوير المخطوطات المجمعة فتفرق أفراده .

وبسبب صعوبة المهمة وضخامتها لم يستطع أليغرو **Allagro.J** نشر حصته المؤلفة من شروحات تأويلية إلا بعد ١٣ سنة ، كذلك استطاع الأب بييه **Baillet** (الذي حل محل الألماني هنزيجر **Hunziger** المتوفى) إنجاز حصته بعد ١٨ سنة ، لكن المؤلف الذي ضمها لم يظهر إلا بعد ستة أعوام إضافية ، أي في عام ١٩٨٢م ، أما الأب البولوني ميليك فقد حصل بحسب تعبير الأب دوفو على الحصة الكبرى من المخطوطات غير التوراتية من المغارة وهي من الكتب المنحولة وكتب الملة ، وقد اعترف بأنه عمل على مخطوطة ، لكنه لم يكتشف أبدا عن اللائحة الكاملة لها .

وكان ميليك قد حصل على المخطوطات الرقمة من ١٩٦ إلى ٣٦٣ ، وتشتمل على نصوص مصنفة بالشكل التالي : الكتب المنحولة ، مؤلفات وأجزاء تتعلق بأسفار شرعية ، شرح لأسفار موسى الخمسة ، مخطوطات الدستور ، وكتاب دمشق ، والتقاويم ، والصلوات ، مؤلفات الجامعة والأمثال ، أجزاء أدبية غير محددة الصفة ، نصوص فلكية وزمنية ، نصوص أدبية ، نصان لم يمكن فك رموزهما .

ولم ينشر من ذلك كله سوى ثماني مخطوطات من كتاب أخنوخ و٢٢ من تفيلين ونزوزوت وترجوم بين عامي ١٩٧٦ و ١٩٧٧م .

أما بقية أفراد المجموعة فبعضهم توفي منذ ذلك الوقت ، وآخرين فضلوا نقل المهمة إلى طلابهم وكان عام ١٩٧٧م يصادف الذكرى الثلاثين لاكتشافات قُمْران، فإذا ببعض الأصوات ترتفع لتطالب بنشر النصوص معبرة عن دهشتها لتأخر ذلك .

وانتقد أليغروا الوحيد الذي نشر حصته كاملة زملاءه لتأخرهم ، ثم أخذ يلمح شيئا فشيئا إلى إمكانية تكتمهم على وثائق خطيرة تمس الإيمان [٣٦] .

وفي عام ١٩٨٤م أعادت مجلة آثارية أمريكية إثارة المسألة وهي (Biblica Archaeolgy) اختصارا BAR ، وجعل رئيسها هذا الموضوع شغله الشاغل وهو هرش شكانكس ، وكان هدفه التعجيل بالنشر أو على الأقل نشر الصور التي احتفظ بها الباحثون المسئولون عنها بأنانية .

وكانت الشكوك قد أصبحت مشروعة بوجود يد خفية تساهم في تأخير النشر بل وتحرضه ، ومع اقتراب الذكرى الأربعين لاكتشافات قُمْران ، دعا البروفسور فيرم من أوكسفورد إلى ندوة دولية في لندن يشارك فيها جميع الباحثين المكلفين بنشر مخطوطات المغارة ، وقد حضر منهم اثنان فقط هما كروس وسترجنل، وفي نهاية المؤتمر تمَّ الاتفاق على ضرورة نشر فهرس وصفي على الأقل لكافة الأجزاء التي حفظت بشكل سري حتى ذلك الحين ولم يتحقق شيء من ذلك .

---

[١] ما معنى هذه العبارة ؟ هل معناها أن هذه المخطوطات احتوت على ما من شأنه أن ينقض أساس العقيدتين اليهودية والمسيحية ، وأن فيها ما يشهد لنبي الإسلام سيدنا محمد ﷺ ؟ وإن ذلك غير صحيح فلماذا كان هذا التكتم ؟

وفي عام ١٩٨٧م وضع سترنجل من جديد على رأس الفريق مما أعاد بعض الأمل فقد بدا أنه يريد الإمساك بزمام الأمور وعدم الرد على توجيهات أو طلبات زملائه الإسرائيلين وبخاصة إليشع كيمرون ودبورا ديامان ، وهكذا وضع في عام ١٩٨٩م برنامجا للنشر ، ووسع الفريق إلى ٢٠ باحثا بينهم بضعة أساتذة إسرائيلين ومع ذلك شنت مجلة حملة على وزارة الآثار الإسرائيلية متهمة إياها بالخمول والتباطؤ والبيروقراطية .

وجاء الحل في ديسمبر من عام ١٩٨٩م على يد موجيلاني بتحريض من كابيرا رئيس تحرير (Qumran-Chronicl) التي تنشر في كراكوفيا وهو وضع صور المخطوطات بمتناول الجميع .

وتم التأكيد على هذا الطلب في اجتماع عقد في برنستون وأماكن أخرى ، ثم في القدس عام ١٩٩٠م ، وكذلك كان الأمر في الصحف الأمريكية .

وأخيرا وضح جوزيف تادوز ميليك ، الأكثر الخاما من غيره إذ لم ينشر شيئا بعد عام ١٩٧٧م ، فقبل بتحرير بعض النصوص ووعد سترنجل بنشر المجموعة كاملة نحو عام ٢٠٠٠م ، لكن ذلك لم يهدئ المهتمين ، إذ هل يجب أن يمضي جيل آخر من المختصين والمهتمين دون أن يتمكن من معرفة مضمون المخطوطات أو الوصول إليها على الأقل ؟

في خريف ١٩٩٠م أصبح سترنجل نفسه مركز الهام بمسه شخصيا ، فقد جرت حادثة غريبة معه من الواضح أنها مدبرة بشكل ما ؛ ذلك أن صحفيا إسرائيليا أجرى لقاء معه وهو في حالة سكر تقريبا كما قيل ، وهجم فيه على اليهودية ودعا اليهود كلهم للاهتداء إلى المسيحية ، ونقلت كلامه هذا الصحافة العالمية ومجلة BAR ، وبعد فترة وجيزة نقل إلى مصحة للأمراض النفسية ، وعندها عين مكانه إيمانويل توف الإسرائيلي مديرا مساعدا للفريق ، وكان قد تميز بسرعة كبيرة في نشر الأجزاء اليونانية من المخطوطات والتي تشكل الجزء ٨ من (**Discoveries in the judaean desert of Jordan**) وبعد فترة شكلت إدارة من ثلاثة أشخاص هم : إيمانويل توف من الجامعة العبرية ، وأوجين أولرش من جامعة نوتردام في الولايات المتحدة ، وإميل بوش من المدرسة التوراتية الفرنسية .

والحق أنه كان قد بدأ واضحا في تلك الآونة أن ثمة خشية من نشر المخطوطات وأن محاولات كانت تتم لمنع إعلان محتوياتها ، وأثار ذلك الجمهور العالمي بشكل كبير وكشفت هذه المحاولات بالدرجة الأولى عن الأفكار المسبقة غير المنهجية التي حكمت المسئولين عن النشر وغيرهم من المهتمين وخاصة من اليهود ، كما وعدم كفاءة وفعالية الأساليب المستخدمة في توزيع وتحقيق المخطوطات ، وبات المجتمع العلمي مذ ذاك لا يهتم كثيرا للدسائس ذات الشكل الكهنوتي مهما كان مصدرها أو للمخاوف أو الآمال التي عاشها مذهب على حساب مذهب آخر ، بل كان همه فقط الوصول إلى المعرفة العلمية التي توضح أكثر حقيقة الموقف الديني للأسينيين ولغيرهم في تلك الآونة من التاريخ السحيق .

وكان عام ١٩٩١م من أغنى وأنجح السنوات في تاريخ نشر المخطوطات ففي حين كان انتقاد حجز النصوص قد بلغ ذروته ، كان بعض العلماء قد وجدوا وسيلة للبدء في البحث فيها فقد تبين أن باحثين شابانا من المدرسة التوراتية كانوا قد وضعوا فهرسا أبجديا لكافة المصطلحات المتضمنة في النصوص القُمْرانية عام ١٩٦٠م ، وتَمَّ العمل على نشرها فورا .

وسرعان ما نجح عالمان أمريكيان هما وروشولدر وتلميذه إيـغ مـن في Hebrew Union College في ولاية كنتاكي وذلك باستخدام هذه الوثائق الجديدة مع إمكانيات المعلوماتية والحاسوب في إعادة جمع بعض نصوص المغارة ونشرها في أيلول ١٩٩١م بمساعدة فعالة من مجلة BAR واتهموا عندها بالسرقة ، وبخاصة من المستحوذين على النصوص ، لكن سرعان ما سقطت هذه الأقاويل بالضربة القاضية بعد أقل من ثلاثة أسابيع عندما قررت مكتبة هنتغتون التي كانت إحدى أربع مكتبات في العالم ثلاثة في الولايات المتحدة وواحدة في أوكسفورد تملك ميكروفيلمات للمخطوطات بالسماح للباحثين جميعا باستخدامها والاطلاع عليها، وأيدت الصحافة العالمية هذا الانتصار ضد أحادية امتلاك الوثائق ، مما اضطر إدارة الآثار الإسرائيلية في ٢٧ ديسمبر عام ١٩٩١م لرفع الحظر الذي قد فرضته على استخدام صور الأجزاء غير المنشورة .

بذلك انتهت قصة غريبة لا مثيل لها في تاريخ علم الآثار حول التكتم على نشر وثائق غايـــة في الأهمية .

ومن العجيب أن تعمد مكتبات شهيرة لديها صور الوثائق إلى حجزها طيلة هذه الفترة . ومـع ذلك فلا شك أن المخطوطات وصورها ظلت سليمة ، ولم يكن هناك مجال لتزويرها .

ومنذ ١٩ يناير بدأت الجمعية الآثارية التوارتية التي تنشر BAR بنشر مجلدين ضخمين يحتويان على ١٧٨٥ لوحة فوتوغرافية لهذه الأجزاء المفرج عنها .

وعلى الرغم من أنها ليست مقروءة بسهولة ، لكنها سمحت بتكوين فكرة حول كل ما تبقـى للنشر ، وقد تبين أن الباحثين الأوائل المزعومين لم يقوموا بعملهم كما يجب ، باســتثناء عـدد قليل منهم ، بل ولم يكلفوا أنفسهم وضع فهرس بكتابات قُمْران .

ولا يسعنا أمام مثل هذا الإهمال المتعمد وغير المنتظر من علماء يفترض أن لديهم حسا بالمسئولية العلمية ، إلا أن **نتساءل حول الأيادى الغريبة والخفية التي كانت السبب الحقيقي في هـذا الإهمال كان الخطأ الشنيع الذي لا يغتفر للفريق الدولي على مدى أربعين عاما من احتكاره للنصوص .**

أما الآن فإن المسرد الكامل لنصوص المخطوطات بدأ يرى النور ، وقد أعد مانويل توف قائمة بالنصوص قيد النشر مع المسئول عن كل منها (راجع مجلتي BAR, Journal of jewish st) كذلك بدأ بإحصاء الأجزاء التي كانت موجودة في أدراج متحف روكفلر في القدس .

إضافة إلى ذلك تم تحسين حفظ المخطوطات بفضل وضعها على ورق من الأرز، كما وسـع الفريق الدولي المكلف بنشر النصوص إلى ٥٥ باحثا تقـاسموا المخطوطـات ، وقـد نشـرت Journal of jewish st لصاحبها فرم و BAR لصاحبها سانكس تقارير أولية عـن هـذه المخطوطات .

وخلال هذا الوقت قام فريق من العلماء بإعادة إخضاع المخطوطات للفحص التأريخي بالكربون ١٤ في زيوريخ ، الأمر الذي حسم وأثبت تاريخ المخطوطات .

لقد عقد مؤتمر في الإسكوريال في مارس عام ١٩٩١م ونشرت بعده تقارير كثيرة مما سمح بالتأكيد على عدم وجود " قنبلة لاهوتية " في مخطوطات قُمْران ، أو " إنجيل خامس " مثلا كما زعم بعضهم .

ومع ذلك فقد أثار نصان النقاش بين العلماء :

الأول : يتألف من خمسة سطور (Q25٤) وهو يصف بحسب تفسير آيزغمان مسيحا متألما ، لكن فيرم الذي اقترح ترجمة مختلفة تماما للنص – الذي يأتي ربما في نهاية سطور مدرج الحرب – يعارض هذه الفرضية تماما .

والثاني : (QMMT٤) يبدو كرسالة جدلية حول تنظيم عبادة الهيكل ونجد فيه سمات صدوقية ، الأمر الذي أثار من جديد الجدل حول نسبة نصوص قُمْران وإذا كانت أسينية أم لا ، أو على الأقل طرح نظرة جديدة للأسينيين الذين يمكن أن يبدوا كمنشقين صدوقيين ، ولا يزال الأمر مفتوحا حول هذه النقطة . وقد ترجمت مؤخرا صلاة للملك ألكسندر ينة الذي كان قد اعتمد على الصدوقيين واضطهد الفريسيين كما رأينا .

ثمة أيضا نص نشرته الـ The independent الإنكليزية ثم نشر مرات كثيرة فيما بعد سيثير النقاش طويلا إنه " الرؤيا الآرامية " (Q246٤) وهو نص يرجع إلى بداية القرن الأول ، وتظهر فيه عبارة " ابن الله " ليس فيما يخص المسيح ، إنما فيما يتعلق بملك الإمبراطورية الأخيرة التي ستحكم العالم قبل مجيء الملكوت[٣٧] (بحسب الترجمة التي قدمها فيرم vermes ويؤكد معنى النص الحماس الذي كان سائدا في بداية القرن الأول لانتظار الأزمنة الجديدة والذي يميز جماعة قُمْران بخاصة.

من هم أصحاب مخطوطات قُمْران ؟

كانت المشكلة التي واجهت الباحثين منذ البداية هي التعرف على أصحاب هذه المخطوطات وسكان موقع قُمْران وزمن وبيئة وأهداف هذه الكتابات ، ولمعرفة ذلك كان لا بد من قراءة

---

(١) هذه إحدى القنابل اللاهوتية التي تتضمنها هذه المخطوطات ، فالمقصود بهذا الشخص هو نبينا محمد ﷺ ، كما أوضحت ذلك غير مرة في مؤلفاتي .

النصوص بتمعن ، وتأريخ المكتشفات الآثارية ووضع منهج متكامل لدراسة الوثائق من كافة النواحي.

وقد كشفت النصوص التي لم تكن معروفة ، أي : الكتب الخاصة بالملة عن تنظيم دقيق للجماعة بدءا بتحضير المريد ودخوله في الملة ، ثمّ بتنظيم حياته كاملة وفق شرائع صارمة تعتمد مثالا تطهريا ولا تعلقا بكافة الخيرات المادية .

وكان ذلك يشير بالنسبة للمختصين إشارة واضحة إلى نمط حياة أو الأسينيين الذي وصفه أكثر من مؤرخ قديم ، الأمر الذي يرجع الوثائق إلى نحو ألفي سنة قبل الآن .

وقد أثبتت ذلك التأريخات المختلفة كما رأينا وبخاصة الكربون ١٤ ، بل إن الأعداد الكبيرة للمخطوطات سمح بإخضاع الخطوط لفحص دقيق وبوضع تسلسل زمني نسبي لها ، ويميل هذا التسلسل الزمني النسبي ؛ لأن يصبح مطلقا مع ملاحظة أن الخط الأكثر تطورا في قُمْران يقترب من خط الرسائل الموجهة إلى ابن كوخبا خلال ثورة عام ١٣٢ ق.م.

ويقبل العلماء حاليًا أن نصوص قُمْران تم نسخها بعدد كبير خلال القرن الميلادي الأول وبعدد أقل خلال القرنين السابقين له قبل الميلاد وترجع بعض النسخ بحسب علماء الخطوط إلى القرن الثالث ق.م. ، لكن لا يوجد بينها أجزاء خاصة بالملة [٣٨] .

ويقول العلماء : تشير تسمية الأسينيين إلى ملة يهودية وُجدت نحو بداية العهد المسيحي ، وكانت معاصرة للصدوقيين والفريسيين ، لكن الفريسية هي التي استمرت بعد دمار الهيكل لتشكل النواة الجديدة للحاخامية اليهودية في حين اختفى الأسينيون دون أن يتركوا أي أثر ، ومع ذلك فقد ظلوا معروفين من خلال بعض النصوص القديمة ، ولهذا فإن النقاش حولهم كان قد بدأ قبل اكتشافات قُمْران ، وتحديدا منذ عام ١٩١٠م مع اكتشاف " كتاب دمشق " في كنيس في القاهرة ، وهكذا جاءت اكتشافات قُمْران وبينها " نسخ كتاب دمشق " لتعيد فتح الحوار حول هذه النقطة .

---

[٦] سوف أقوم بمناقشة هذه الآراء والتعليق عليها في فصل مستقل .

وكان ناشر هذا المخطوط قد حدس أن النصوص التي حفظها كنيس القاهرة القرائي من القرنين العاشر والحادي عشر ترجع إلى عهد الهيكل الثاني .

واعتقد بعض الباحثين في حينه أن كتاب دمشق كان صدوقيا بسبب ذكر أبناء صدوق فيه ، في حين رأى غيرهم أنه فريسي أو زيلي أو أنه يعود إلى ملة غير معروفة ، بل إن بعضهم رأى فيه كتابا مسيحيا متأثرا بالصدوقية أو أنه كتاب قرائي كالكنيس الذي وجد فيه ، ولم يُطرح الأصل الأسيني له إلا نادرا .

وعندما اكتشفت مخطوطات قُمْران أعيد طرح كافة هذه الفرضيات المتناقضة قبل أن يبدأ البحث الجدي والموضوعي حولها ، ومن الفرضيات التي طرحت تنسب كتابات قُمْران للقرائيين ، أو إلى يهود مسيحيين في حين رأى بعض المغالين أن مدراج البحر الميت تشكل مكتبة دينية لكافة الفرقاء والتيارات الروحية لليهود في ذلك الوقت ، وأنها لم تنقل من موقع أسيني أبدا ، بل من أورشليم نفسها وقت وصول الرومان ، وهي فرضية ضعيفة جدا كما ترى .

لقد رفضت الفرضية الفريسية لأنه على الرغم من تنظيم الفريسيين في أخويات، الأمر الذي كان شائعا في تلك الفترة عند كافة الملل ، فإن ذلك لا يكفي لوجود مجموعة معزولة في قُمْران تختلف بممارساتها عن التقاليد الحاخامية .

أما الأصل الصدوقي فقليلا ما كان يطرح وإذا كان قد اقترح فقط بسبب الشرعية الصدوقية التي تعتمدها الكتابات ، وبسبب إشارة " شرح حبقوق "(VIII ، ٤) إلى كاهن غير حزبه ، والمراد به كما يُعتقد يوحنا ينة الذي ترك حزب الصدوقيين إلى حزب الفريسيين لكن لا شيء يسمح بالاعتقاد أن الصدوقيين مارسوا تقشف أهل قُمْران ، كذلك لم يأخذ أحد إلا نادرا بالفرضية الزيلية .

إن الفرضية الأكثر قبولا اليوم هي تلك التي طرحها أندريه دوبون– سومر منذ عام ١٩٥٠م وكان من أكثر المتحمسين لها ، وتقول : إن سكان قُمْران كانوا من الأسينيين.

وترتكز هذه الفرضية على حجج قوية ، ففى القرن الميلادى الأول يذكر بلينوس القدم pline L'Ancieur الذي ربما رافق فسباسيانوس إلى اليهودية خلال فترة الثورة ، وجود منشأة أسينية

شمال عين جدي ، الأمر الذي يوافق الموقع المكتشف في قُمْران وهو يصفهم في مقطع قصير من مؤلفه " التاريخ الطبيعي " (XVII,V . ٤) بأنهم نساك هجروا المال والزواج .

كذلك خصص لهم فيلون الإسكندري نحو (Philon-d'Alexandrite) نحو عام ٢٠ ق.م. حتى عام ٤٠ ب.م. ملحوظتين تتفقان مع مضمون مكتشفات قُمْران ، وكانت الملحوظة الثانية قد وردت في مؤلفه دفاع اليهود الضائع لكن عوسيب القيصري حفظها في مؤلفه أما فلافيوس يوسيفوس فكان أكثر دقة حول حياة الأسينيين في نحو عشرين فقرة خصهم بها ، وبخاصة في احتقارهم للثراء المادي ، وزهدهم وكرههم للنساء الذي يصل عند بعضهم إلى حد رفض الزواج والتبتل وتقاسمهم للخيرات والأموال وعاداتهم في الصلاة والعبادات واهتمامهم الزائد بالتطهر وتجنبهم وإحسانهم واهتمامهم بالدراسة والمعرفة وتعلمهم الأسرار عبر درجات ومراحل وخضوعهم لتراتبية صارمة ، وهو عندما يتحدث عن معتقداتهم فإنه يحاول جاهدا مقاربتهم مع المدارس اليونانية الباطنية وبخاصة الفيثاغورثية .

ولسنا نرى في ذلك مبالغة وإن كان يوسيفوس من المتحمسين لصبغ الثقافة اليهودية باللون اليوناني ، وأخيرا فهو يشير إلى تفردهم بقراءة المستقبل وتقدم لنا نصوص قُمْران وبخاصة دستور الجماعة تفاصيل موافقة حول أكثر من نقطة مع المعلومات التي يذكرها يوسيفوس .

روحانية الفكر الأسيني

كما أننا لم نستطيع التحدث إلا بحذر كبير عن التاريخ الأسيني كذلك علينا التحفظ في تناول الفكر الأسيني وروحانيته .

إن كتب الملة مثل الأناشيد ودستور الجماعة وكتاب دمشق وغيرهما تسمح لنا بسبر الروح التي تميز وتحرك الأسينيين .

ومع ذلك علينا أن نتوقع دائما اكتشاف وثائق جديدة أو نشر بعض الأجزاء الصغيرة التي تلقي ضوءا جديدا على عادات وحياة وفكر هذه الجماعة ، وقد حصل ذلك عام ١٩٨٤م عندما نُشر نص من المغارة VI يطرح على شكل رسالة لرئيس الملة بعض نقاط الاختلاف بينه وبين خصومه وتتعلق بتقويم الأعياد ، والطهارة الطقسية والذبيحة وقواعد الزواج وتطالب الرسالة

بتفسير وتطبيق أكثر الشرائع التوراتية صرامة، وهو أمر ليس بالمفاجئ كثيرا عندما تقارن الممارسات الأسينية المعروفة من خلال النصوص ، بأعمال الفريسيين وممارساتهم أو لم يكن سكان قُمْران يدعون الفريسيين بـ " الباحثين عن الأمور المضللة " .

وتثير هذه الوثيقة إلى نقطة هامة جدا ، وهي أن الصراع الذي قام بين الأسينيين وخصومهم ارتكز على ممارسات العبادات والحقوق أكثر منه حول العقائد الفلسفية والدينية ومع ذلك ، فإنه من غير المحتمل أن يخلو هذا الصراع من الاعتبارات السياسية، وكذا قد رأينا إلى حد كان الصراع على السلطة عاملا حاسما في الصراع الديني ويبدو أن ارتباط سكان قُمْران بأبناء صدوق يفترض نوعا من الشرعية الصدوقية التي كانت تجعلهم يرون رئيس الكهنة كغاصب ، على الأقل بدءا من مينلاس وربما حتى قبل ذلك ؛ إذ لا شيء حتى اللحظة الراهنة يجعلنا نعتقد بأن شرعيتهم الصدوقية كانت تنتسب لأونياس .

كان الأسينيون يعتقدون أنهم تلقوا دون غالبية الإسرائيليين ، كشف الأسرار المتضمنة في الكتابات المقدسة وكانت هذه الأسرار قد كشفت لمعلم الحق الذي نقلها بدوره لشيوخ وأعضاء الملة فهم بالتالي مسارّون ومختارون ، طالما أن الأسرار لا يجب أن تنقل إلا إلى مجموعة من الأشخاص يختارها الله ورؤساء الجماعة وترتكز هذه الأسرار بشكل أساسي على مفهوم نهاية الأزمنة - أي : المفاهيم والرؤى الأخروية - وعلى مفهوم نظام الزمن وأدواره ونظام الأزمنة هو المخطط الذي رفعه الله من أجل العالم مع كافة مراحله المختلفة ، حيث ينتهي دائما مخطط الله للانتصار ، وإن تعرض أحيانا للانتكاس ولهاية الأزمنة هو الحدث الذي سيهلك فيه الله العالم ويسوده وهذه النهاية قد أزفت ، أو إننا بالأحرى في المرحلة الأولى منها، والأسينيون وحدهم يعرفون ذلك ويجب أن يعيشوا وفق هذه المعرفة .

إن إحدى النقاط الأكثر إبهاما في الطقس والممارسة الأسينيين هي التقويم ، وكيفية تقسيم الأزمنة والأعياد بحيث تتوافق ومدلولات رمزية خاصة فوفقا لما يمكننا استنتاجه من كتاب الخمسينيات ، فإن أولى وثائق قُمْران المعروفة ، والمثبتة بدورها بواسطة مدرج الهيكل ، يثبت أن أفراد الملة كانوا يستخدمون تقويما من ٣٦٤ يوما في السنة ، حيث يتألف كل فصل من

شهرين من ٣٠ يوما ومن شهر من ٣١ يوما ومن ٥٢ أسبوعيا في السنة وتبدأ السنة يوم أربعاء ، ويكون بدء الشهر الثاني من كل فصل يوم جمعة ، والثالث يوم أحد وتأتي الأعياد في كل سنة في تاريخ ثابت والشهر الأول من العام هو شهر الفصح .

ونحن نجهل كيف أمكن موافقة هذا التقويم مع السنة الشمسية الفعلية ، إضافة إلى أن أصلة يبقى غامضا وهو يتميز بوضوح عن التقويم القمري الشمسي الذي كان يستخدمه اليهود كما ، وعن تقويم إسرائيل القديم المضبوط وفق الإيقاع الزراعي والمأخوذ عن الكنعانيين وعلى الرغم من بعض الشبه الظاهري لهذا التقسيم مع التقويم البابلي ، لكننا نجزم بأنه ليس مأخوذا عنه . فهل هو تقويم كهنوتي قديم اعتمده الأسينيون بمواجهة التحديثات المستلهمة من الهلينية ؟ لا نعتقد ذلك ؛ لأن الأعياد اليهودية كانت تنظم تبعا لأدوار القمر وهذا يعني أن الأعياد الأسينية كانت تقام في تواريخ مختلفة عن تلك التي كانت تقام فيها عند اليهود الآخرين .

ويبين مدرج الهيكل أن الأسينيين كانوا يحتفلون خلال الأشهر الستة الأولى من السنة بسلسلة من الأعياد المتعلقة بالبواكير من المحاصيل وتقع كلها في يوم أحد ويفصل بين العيد والعيد منها فترة من سبعة أسابيع ، ومنها أعياد بواكير الشعير والقمح والخمرة الجديدة والزيت .

وفي تفصيل تقديم الذبائح تختلف أيضا تقدمات الأسينيين عن ممارسات الفريسيين التي أصبحت معيار اليهودية الحاخامية ، ونتبين ذلك بوضوح عند قراءة مدرج الهيكل الذي يوضح بعض خصائص الخمسينات .

ولا تحد هذه الاختلاف بمجال العبادة ، فالحياة العائلية والاجتماعية تخضع عند الأسينيين إلى عادات قاسرة أخرى ، فهم يمنعون الزواج بين أقارب معينين (انظر مدرج الهيكل LXVI 16-17 وكتاب دمشق V 7-8) ، ويعتبرون الصليب رمزا للآلام ، وليس مكانا لعرض الجثة عليه (مدرج الهيكل LXIV 6-13) والذي يمس عظام الميت يعد عندهم نجسا حتى المساء (مدرج الهيكل LXIV 4-5) في حين أن المؤلف الميشنوي الصغير " تبول يوم tebul yom " يعفى من تدنس واغتسل قبل المساء .

وتتصف كافة الشرائع الأسينية عموما بصرامتها البالغة ، وكان الأسينيون يهتمون بشكل خاص بالطهارة .

ويبدو أن استحواذ هذه الفكرة عليهم يرجع إلى قناعة عميقة عندهم وإيمان راسخ بشرف ونزاهة الكاهن . وبحسب نصوص قُمْران فإن الكاهن هو نموذج البشرية كلها؛ فهو الحائز على المعرفة التي يماثلها الأسينيون بالنور .

وهنا يتميز الأسينيون أيضا عن الفريسيين الذين لم يبدوا إيثارا خاصا للكوهانيم (الكهنة) .

وتبدو بعض القواعد الأسينية كتعميم للوصايا التوراتية المخصصة للكهنة ، وبخاصة فيما يتعلق بالطهارة .

وثمة عنصر آخر ساعد على تشجيع التأكيد على الممارسات التطهرية ؛ وذلك أن الأسينيين وجدوا في الموانع القديمة التي تحكم " الحرب المقدسة " تبريرا لتعففهم ولفقرهم الإراديين ، وكان لديهم شعور بأنهم يحيون هذا الصراع من أجل الله ضد صنوف الشر . وقد اتخذوا قرار الانقطاع في الصحراء للابتعاد عن غواية الشر .

إن ما نجده في دستور الجماعة (III ، ١٣ IV ، ٢٦) من تعليم " حول الروحين " هو أساس الموقف السلبي تجاه خيرات الأرض والذي يتفق مع تطلبات التطهر ، ولا بل ومع نظرة متكاملة إلى العالم . فالنظام الذي فرضه الله منذ الأصل على العالم نظام مزدوج . (فقد أوجد للإنسان روحين ... هما روحا الحق والضلال) . ويتطابق هذان الروحان مع " أمير النور " ومع " ملاك الظلمات " وتنعكس هذه الثنوية الجوهرية على انقسام البشر في كل جيل إلى قسم تابع لروح الخير وآخر تابع لروح الشر . ويظل الصراع بينهما عبر التاريخ غير محسوم حتى نهاية الأزمنة عندما يتغلب أبناء الظلمة في صراع رؤيوي أخروي نجد وصفه في تنظيم الحرب .

وعى الرغم من أن الأسينيين يرون أن الله هو الخالق الوحيد ، لكن هذه الثنائية تأخذ ألوانا شبه ميتافيزيقية طالما أنهم شخصوا بمقابل روح الله روح الشر المدعو غالبا بلعال ، وكانوا يقبلون أن هذا الأخير كان له مثل الله ملائكته وجيوشه. ويكون للمؤمنين الأنصار دورهم ليلعبوه في معسكر الله ، إذ يتم اختيارهم للقيام بذلك طالما كانوا منتسبين إلى الجماعة .

وكان هؤلاء الأنصار الخاضعون لقدرة الخير والنابذون لقوة الشر ، يساهمون في بناء قدر متسام يتتابع عبر التاريخ ، ويبلغ ذروة تحققه في الانتصار النهائي للنور والخير والحق . فالمختارون سيكونون مثل الملائكة عندما ينتصر الله وعليهم أن يعيشوا الحياة الملائكية منذ الآن ، وهي حياة الرهبنة .

وعلى الرغم من أننا لا نجد كلمة رهبنة في قاموسهم ، لكن الفكر والممارسة الرهبانيين قائمان في حياتهم ، فأعضاء الملة هم العادلون والقديسيون والفقراء والمهتدون والتوابون .

وهم ينتسبون إلى الملة بملء إرادتهم ، وبعد فترة انتساب لسنة ، ثم ترشيح لسنتين يقبلون أو يرفضون من قبل مجلس الجماعة القائم على تراتبية دقيقة .

ويعاد في كل سنة توزيع المناصب في هذا المجلس حيث يلعب العمر دورا أساسيا في ذلك .

وتتمثل السلطة العليا فيه من اثني عشر عضوا وثلاثة كهنة ، وهناك رتبة اعتمدت بعد رحيل معلم الحق على الأرجح هي رتبة الرقيب المسئول عن المعسكر كله . ويسيطر على هذه التراتبية مجموعة من الكهنة يسمون أنفسهم بـ : أبناء صدوق ويعدون أنفسهم الوحيدين أصحاب كهنوت اللاويين . ويكون معلم الحق هو قائدهم وهو الذي يعطي الجماعة روحها الكهنوتية .

وتتبدى هذه الروحانية كما رأينا باللاتعلق ، ورفض المال والرغبات ، وبحياة متقشفة وامتناع عن الزواج غالبا ، واهتمام دائم بالقواعد الخاصة بالطهارة بهدف الجاهزية التامة والدائمة لتقديم الأضاحي والذبائح التي ليس من الممكن تقديمها إلا في أورشليم ، بل هي تقدمات شفهية وتعبدية تظهر بالاهتمام الكبير بروحنة الطقس والعبادة .

وضمن هذا المنظور تحتل المزامير والأناشيد مرتبة أساسية في طقس التقدمة ، ومن جهة أخرى نجد أن عنصرين جديدين ظهرا في هذا الطقس :

أولهما : التطهر بالماء في أحواض مما يشير إلى أول أشكال المعمودية والوضوء .

وثانيهما : العشاء الجماعي المحاط باحتفال طقسي يشير إلى العشاء المسيحي الأحمر ربما في شكله الأول ، ونجد فيه تقديما للمأدبة قريبا جدا من قدسية العشاء السري المسيحي ، وإن

كانت أشكال المأدبة الطقسية المقدسة شائعة في الثقافات المشرقية عموما خارج نطاق اليهودية والمسيحية .

الفصل الثالث

المعتزلة ونصارى نجران

الفصل الثالث

المعتزلة ونصارى قمران

منطقة قُمْران عند البحر الميت في وادي الأُرْدُنّ ، عَثَر فيها المنقبون عن الآثار على مخطوطات كُتب ومساكن رهبان ، وادعى علماء اليهود والمسيحيين أن رأى العلماء هؤلاء الرهبان هم يهود كانوا قبل عيسى وانقرضوا على أيدى الرومان في حرب لليهود سنة سبعين ميلادية .

والحق أنهم من أتباع عيسى ﷺ ، هجروا مساكنهم لما أجبر الرومانُ الصابئين والنصارى على اعتناق المسيحية .

وبين يديَّ كتب كثيرة في هذا الموضوع ؛ أذكر منها ما يلي :

١- رئيس هؤلاء الرهبان كان يُطلق عليه (معلم البِرّ) ، وفي المراجع الأجنبية (المعلم البار) أو (معلم الحق) (معلم الصدق) ؛ بمعنى أنه المعرِّف بالنبي الآتي الذي بشرت الأنبياء بمقدمه . والذي من ألقابه (نبي البر) و (الصادق الأمين) .

وتفسير هذا اللقب عليه : هو أن التوراة وكتب الأنبياء والأناجيل مكتوب فيها : أن الله خلق (المَسِّيا) في البدء . والمسيا : لقب لمحمد ﷺ ؛ ففي سفر الرؤيا : (ثم رأيتُ السماء مفتوحة ، وإذا فرس أبيض ، والجالس عليه يُدعى أمينا صادقا ، وبالعدل يحكم ويحارب) [رؤ ١٩ :١١] . وفي نفس السفر : (هذا يقول الأمين الشاهد الأمين الصادق بداءة خليقة الله) [رؤ ٣ : ١٤] .

وبداءة الخليقة عندهم هو (النبي الأمي الآتي) ، ولكنهم يعنون به : يسوع المسيح .

وكلمة (البر) في اللغة العبرانية هي (Tsedeq) ومعناها : (صدق) ، والصدق لقب عندهم من ألقاب (المسيا) .

وفي السفر أخنوخ يلقب المسيا بلقب (الصادق) [فصل ٤٨ :٢ أخنوخ] .

وقد تطابق اللقب مع القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ

أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . والمعنى : أن من كذب بالقرآن من اليهود إذ جاءه، يكون من أظلم الناس لنفسه . أما الذي جاء بالصدق ؛ وهو محمد ، الذي جاء بالقرآن وصدق في نطقه ونسبته إلى الله ، وصدق به من سمعه وعمل ، فإن كل من صدق وعمل به ، يكون لهم جزاءً حسنًا . وفي سورة ق : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ .

ومما يدل على أن نساك قُمْران من الصابئين النصارى ، وأنهم هجروا قُمْران بعد اعتراف الرومان بالمسيحية :

١- بعض كتبهم التي اكتشفت تعود إلى القرن الثالث الميلادي ، وإن النسيج الكتاني يمتد تاريخه إلى ٢٣٣ بعد الميلاد ، وأن وثائق منها قد وجدت في الكهف الثاني قد كتبت في القرن الثاني بعد الميلاد باليونانية والعبرية والآرامية ، وأن الصابئين قالوا في كتبهم : إنهم هجروا أرض فلسطين إلى دمشق والعراق ، على إثر حروب قامت بينهم وبين اليهود .

ومن المؤكد أنها بسبب دعوة الصابئين إلى أن النبي الآتي الملقب بـ : المسيا لن يظهر من اليهود .

وفي دائرة المعرف الكتابية للمسيحية عن طائفة قُمْران أنهم كانوا يستدلون على النبي الآتي بنفس النبوءات التي في التوراة عن محمد ، وهذا هو نص كلامهم :

(كانت الطائفة تعتبر نفسها إسرائيل الحقيقي ، تنتظر إقامة الحكم السماوي على الأرض ، وكان انتظار ظهور المسيا يتردد كثيرًا في فكر الجماعة ؛ لأن أعضاء الجماعة كان يطلب منهم أن يعيشوا حسب التوراة حتى يأتي النبي وشخصان مسياويان يسميان (مسيحى هارون وإسرائيل) وفي وثيقة معنونة باسم (المؤلف الصدوقي) عن جماعة دينية تعرف باسم (متعاهدي دمشق) شديدة الشبه بجماعة قُمْران ، وكثيرًا مما خلط بينهما العلماء بذكر (مسيا هارون وإسرائيل) ، وهكذا يحدد انتظارهم لشخص واحد . ونجد ملخص مفاهيمهم للمسيا

في وثيقة جاءت من الكهف الرابع تحتوي على سلسلة من الآيات الكتابية ، فتبدأ بالوعد بقيام نبي مثله [تث ١٨:١٨] وتذكر أقوال بلعام [عد ١٥:٢٤ ١٩] وتختم ببركة موسى [تث ٨:٣٣ وما بعدها] ثم اقتباس من كتاب زائف ما زال مجهولاً) .

٢- من أهداف الجماعة : حفظ جميع ما أوصى الله به موسى والأنبياء حتى يأتي المسيا (تخلى العضو عن كل أمواله حبا في الله محبة جميع أبناء النور وكراهية جميع أبناء الظلمة ... إلخ) ، ويعملون احتفالاً للداخل معهم في العهد ، ويرشونه بالماء .

والرش بالماء هو الصبغة التي كان يعملها يوحنا المعمدان (سيدنا يحيى عليه السلام) للداخل في دعوته ؛ ليتميز بالصبغ عن اليهود الذين رفضوها ؛ وهي الإيمان بمحمد في حالة ظهوره . ومثله كان يفعل المسيح .

٣- الافتقاد الإلهي : هو تعبير يدل على زمن ظهور (المسيا)، فإن زكريا عليه السلام فرح بولادة يحيى ابنه وقال : (مبارك الرب إله إسرائيل ؛ لأنه افتقد وصنع فداء لشعبه) . ثم قال عن ابنه : (وأنت أيها الصبي نبي العليِّ يُدْعَى ؛ لأنك تتقدم أمام وجه الرب لتعد طرقه) . أي : عهد الطريق لنبي الرب الآتي [لو ٦٧:١ +] .

ويعلِّم نُسَّاك قُمْران بأن الافتقاد الإلهي هو تدخلٌ به يعيد الله كل شيء إلى النظام ، ويجازي كل إنسان بحسب أعماله ، وهو ما قال به يحيى وعيسى عليهما السلام من حرب ستقوم بين النبي الآتي وبين الكافرين به من اليهود .

٤- ومن أهم مبادئ الدخول في العهد : الطاعة الكاملة للصادق الآتي وأتباعه، ولكن المسيحيين يفسرونه بالطاعة الكاملة للكهنة أبناء صادوق ؛ بمعنى : أن الكهنوت انتزع من أبناء صادوق إلى أبناء عمومتهم في شخص (مينلاوس) بواسطة الحكام الرومانيين ؛ فلذلك لا يدينون بالولاء للكهنة في أورشليم الذين هم من نسل (مينلاوس) ، ويدينون بالولاء لأبناء صادوق .

وتفسيرهم هو تمويه على نبي الصدق الآتي ؛ لأن الجميع من نسل هارون ، ولأن الرومانيين لم تكن لهم سلطة على اليهود إلا في سنة ٦٣ ق.م. ، وتعيين(مينلاوس) كان في سنة ١٧٢ ق.م ، ولأن في كتاب (نظام الجماعة) عدم الانفصال عن هيكل أورشليم .

٥- أسرار العهد : ولا يسمحون بسر عندهم للعضو إلا بعد سنتين كاملتين من الدخول في العهد ؛ والسر : هو معرفة زمن ظهور المسيا لتأسيس ملكوت الله .

وذلك لأنهم يطلبون من أعضاء الجماعة أن يذهبوا إلى البراري ؛ ليفتحوا طريقًا لنبي الرب ، ويسهلوا في الصحراء سبيلاً له ؛ أي : لدعوة الناس إلى قبول دين النبي الآتي .

وقد أخذوا هذا الطلب من الإنجيل ؛ فإن يوحنا المعمدان لما كانت عليه كلمة الله والتعبير بكلمة الله هو لقب للمسيا الآتي أن يدعوا إليه ، جاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأُرْدُنّ يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا ، كما هو مكتوب في سفر أقوال إشعياء النبي القائل : (صوت صارخ في البرية : أعدوا طريق الرب ، اصنعوا سبله مستقيمة ، كل وادٍ يمتلئ ، وكل جبل وأكمة ينخفض ، وتصير المعوجات مستقيمة ، والشعاب طرقا سهلة، ويبصر كل بشر خلاص الله) [لوقا ٣ : ٢ +].

لاحظ :

١- تعبير : (جاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن) . وقمران عند البحر الميت في الأردن .

٢- استدل على كرازته - أي : تبشيره بالنبي الآتي - بسفر إشعياء النبي ، والنص الذي استدل به هو : (صوت صارخ في البرية : اعدوا طريق الرب . قَوِّموا في القفر سبيلا لإلهنا ، كل وطاء يرتفع ، وكل جبل وأكمة ينخفض ، ويصير المعوج مستقيما ، والعراقيب سهلا ؛ فيُعلن مجد الرب ، ويراه كل بشر ؛ لأن فم الرب تكلم) [إش ٤٠ : ٣ +] .

ومن ذلك يعلم أن جماعة قُمْران كانت من الصابئة أتباع يحيى ، وكانت من النصارى أتباع عيسى ، وكان كل هدفهم هو تعريف الناس بمجيء النبي الآتي ؛ وهو محمد رسول الله ﷺ .

وإلا فما هو معنى الطلب من أعضاء الجماعة أن يذهبوا إلى البراري ليفتحوا طريقا لنبي الرب استنادًا على قول إشعياء ؟

وقد جاء في إنجيل برنابا عن المسيح : (أنا صوت صارخ في اليهودية كلها يصرخ : أعدوا طريق رسول الرب، كما هو مكتوب في إشعياء) [بر ٤٢ : ١٠].

وقال العلماء في التعليق على ذهاب الأعضاء إلى البراري : أما جماعة قُمْران فهي وحدها التي تطيع إرادة الله ، كما عبر عنها موسى ، وأوضحها الوحي اليومي زمنا بعد زمن .

٦- ويقول العلماء بعد ذكر نبوءة إشعياء هذه تحت عنوان (نبي ومسيحان) : إن كتاب (نظام الجماعة) يتحدث عن مجيء نبي ومسيحين ، وإن رهبان قُمْران كانوا يدعون إلى مجيء النبي الذي قال عنه موسى في سفر التثنية : (يُقيم لك الرب إلهك نبيا ، من وسطك من إخوتك ، مثلي ، له تسمعون) [تث ١٨ : ١٥] .

وهذا يدل على أن رهبان قُمْران كانوا جماعة تبشيرية تدعو إلى محمد ﷺ ؛ لأنها لو كانت تدعو إلى نبي يأتي من بني إسرائيل ، لكانوا مع علماء اليهود في أورشليم .

ولفظ (المسيح) معناه : المصطفى من الله ؛ وهو لفظ يطلق على نبي أو عالم أو ملك .

ولما كانت وظيفة النبي الآتي تشريعية كعلماء بنى إسرائيل الهارونيين ، وملكية كما هو حال الملوك من نسل يهوذا ، قالوا ومسيحين . أي : صفته التي سيأتي بها.

ويقول المسيحيون في هذا الموضوع : إن عيسى عليه السلام جمع في نفسه الصفات الثلاثة ؛ فهو : النبي ، وهو المسيح الهاروني ، وهو المسيح الكهنوتي .

وقولهم هذا معناه أنهم كانوا ينتظرون واحدًا لا ثلاثة ، وليس هو عيسى عليه السلام كما يزعمون ؛ لأنه لم يكن ملكا ، ولم يكن مشرعًا ، وكان من بنى إسرائيل . وفي التوراة : أنه لن يقوم موسى في بني إسرائيل .

٧- والصلوات عندهم هي عند طلوع الفجر ، وعند الظهيرة ووقت الغروب ، وصلاة الليل ثلاثة هي العشاء ونصف الليل ونهاية الليل .

٨- وحرف النون وهو يساوي ٥٠ بحساب الجُمَّل له قداسة خاصة ، حسب مفتاح نعم الرب الأبدية .

٩- وفي ملحوظة كتاب نظام الرعية : أعطى الكاتب لقب مجموع إسرائيل على الرهبان ، وعلى من ينضم إليهم من اليهود ليميزهم عن اليهود الذين لن يقبلوا النبي الآتي ، وسماهم بـ : البقية ، وبـ : المختارين من الله .

وجعل كتاب النظام هذا لبيان الزمن المسيحاني ونهاية الأيام ، و(المسيح) هو نفسه (المسيا) ، ونهاية الأيام هي آخر مُلْكِ بني إسرائيل ، وبدء ملك بني إسماعيل عليه السلام . وكل هذا يدل على أن جماعة قُمْران كانت مكونة من الصابئين[٣٩] والنصارى.

١٠- الطعام الجماعي في كتاب نظام الرعية هو نفسه المدون في إنجيل الدِّيداكي؛ وهو طعام من أجل أن يتذكروا مجيء المسيا في نهاية الأيام .

١١- مخطوطة المباركات : جاء فيها أنهم يدعون الله أن ينصر النبي الآتي على أعدائه ، وأن يوفقه إلى الخيرات .

أ- (ليمنحك روح القدس ، ليمنحك العهد الأبدي ، ليمنحك حكما عادلا ، ليمنحك في كل أعمالك ، ليرفع الله (أدوناي) وجهه نحوك ، وليُسَرَّ برائحة ذبائحك الطيبة — ليَرْضَ ويَعِشْ بتقدماتك المقدسة ، ليضع على رأسك التاج ، ليعطك السيادة الأبدية في رفقة ملائكة القداسة ، ليحارب أمام ألوفك) .

وكل ذلك لا ينطبق على عيسى عليه السلام ؛ ولذلك يقول المسيحيون : إننا متحيرون في تفسير (ذبائحك الطيبة، تقدماتك المقدسة) وهو منطبق على محمد ﷺ فقد قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة/٥] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ

---

[٣٩] صبغ في العبرانية تنطق (صبأ) بالهمزة . وكان يحيى عليه السلام يصبغ في الماء من يقبل دعوته من اليهود ؛ وهي الدخول في دين محمد ، فلذلك لقب هو وأتباعه بـ : الصابئين .

نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المجادلة/١٢، ١٣] .

ب- (ليباركك أدوناي من مسكن المقدس ، وليجعل منك زينة بهاء في وسط القدسين [٤٠] ، وليجدد لك عهد الكينوت الأبدي ، وليبارك شعبه بيدك ، وليجعل منك موضوع قداسه وسط شعبه ، وشعلة تشع على العالم في المعرفة ، وتنير وجه الكثيرين ، وليجعل منك أداة مخصصة للقداسة السامية ؛ لأنك مكرس له وتمجد اسمه وقداسته) .

وكل واحد من أصحاب النبي له هذا الدعاء ؛ لأنه نائب عنه .

ج- (ليباركك أدوناي لتجديد عهد الجماعة ، لترفعك أدوناي إلى الأعالي الأبدية ، وتكون مثل هذا محصّن ، فتضرب الشعوب بقوة فمك ، وبصولجانك تدمر الأرض ، ليجعل قرينك من حديد ، ورجليك من نحاس ؛ فتدوس الشعوب كوحل الأرض) .

وكل ملك من أصحاب النبي على مدينة هو نائب النبي ، ويكون هذا الدعاء له.

ويعلق المسيحيون على هذا الدعاء بقولهم : (اعتبر الشراح أن هذا النص الأساسي فيما يتعلق بمسألة انتظار المسيح الملك يتضمن أمور قريبة جدًّا مما نجد في مخطوطة وصايا الآباء الاثني عشر) .

والمسيح الملك – بلسانهم – هو النبي الأمي الآتي ، فتكون جماعة قُمْران من النصارى .

١٢- في مخطوطة نظام الحرب يقول الكاتب :(إنه في آخر الأيام ستقوم حرب بين النبي الآتي وبين اليهود وشركائهم ، وأن ملكوت الله الذي سيؤسسه النبي الآتي سيعم العالم كله ، وأن الأمم الوثنية ستتفق مع اليهود الكافرين بالنبي ، وأن الله سيتدخل في الحرب لصالح النبي وأتباعه) . فهل هذا المحارب الآتي هو المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ؟ وهل جماعات قُمْران من اليهود ؟

١٣- وفي مخطوطة المدائح كلام عن النبي الآتي الملقب بـ : المسيا وعن عهده هكذا :

---

[٤٠] أطلق المسيح عليه السلام لقب (القدسين) على أتباع ابن الإنسان ؛ وهو محمد ﷺ .

(الله الخالق ومصير النسان - معلم البر هو عرضة لعداء الأشرار - ثقة بالله خلال الاضطهاد ضيق المضطهد خلاص النفس ومخاوف نهاية العالم ولادة المسيا المخلص آلام معلم البر عون الله خلال المنفى والمحنة نجاح خدمة معلم البر وانتصار جماعته ثقة معلم البر ونمو الفرح سر النعمة وغفران الله الاختيار السابق ونعم الله معلم البر ينبوع مياه حية ثقة بحماية الله الأبدية وسط الضيق قدرة الله وعدم الإنسان ثقة بالله الذي أعطى المؤمن المعرفة احتقار الغنى والملذات نعم الله لمختارين من الحزن إلى الفرح بالمعرفة مديح الله في كل وقت عجائب الخليقة وتجديد الكون فضائل الأمناء في العهد الواجبات الأساسية للأمناء على العهد حب المؤمن لله اختيار الله السابق من المعرفة إلى الصلاة وخدمة الله ديتونة الله خلاص مؤكد للمؤمنين الإنسان والتبرير عهد الله معلم البر والبشرى) .

١٤- ومما يدل على أن جماعة قُمْران من النصارى : أن الكاتب للمدائح يسمي أعضاء الجماعة بـ : مساكين النعمة . ويطلق عليهم اسم : مختاري البر .

وفي الإنجيل يقول المسيح عن منتظري ملكوت السموات : (طوبى للمساكين بالروح ؛ لأن لهم ملكوت السموات) [متى ٣:٥+] ، ويقول عن المختارين : (ويبصرون ابن الإنسان آتيا على سحاب السماء بقوة ومجد كثير ، فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون لمختاريه من الأربع الرياح من أقصاء السموات إلى أقصائها) [متى ٣١:٢٤+] .

١٥- وفي مخطوطة وثيقة دمشق : نجد في المخطوطة (A) صراعًا مع (معلم البر) و (رجل الكذب) ، وفي هذا المعنى يقول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر/٣٢ : ٣٥] .

ونجد في المخطوطة (B) نبوءات كثيرة عن مجيء النبي الآتي إلى العالم الملقب بـ : المسيح ، وبالمسيا . وتظهر هذه المخطوطة تعلقًا أكبر بمعلم البر ، ثم يتكلم عن الصبغ بالماء للطهارة .

ووثيقة دمشق فيها كل ما في نظام جماعة قُمْران ، ولا يعترف المسيحيون بأن عيسى ذهب إلى دمشق ، وفي إنجيل برنابا أنه ذهب إليها هو والحواريون : (وجاء في اليوم التالي ستة وثلاثون تلميذًا من تلاميذ يسوع مثنى مثنى ، ومكث في دمشق ينتظرون الباقين) [برنابا ١٢:١٣٩-١٣] ، (وجاء حينئذ بمشيئة الله كل التلاميذ إلى دمشق) [برنابا ١:١٤٣] . وهذا يدل على أن جماعة قُمْران من النصارى .

١٦- وفي مخطوطة سفر حبقوق : في بداية النص يتحدث كاتب المخطوطة عن صراخ معلم البر إلى الله من أجل ظلم الكاهن الشرير له ، الذي احتقر شريعة الله واضطهد مختاري الله . ويعني بالكاهن الشرير : رفض اليهود له .

ويظهر النص أن حربا ستكون في نهاية الأيام بين المؤمنين بالنبي الآتي وبين اليهود وشركائهم ، وأنه سينصر على اليهود وشركائهم .

وفسرت المخطوطة آية : (فلم تنظر إلى الناهبين ، وتصمت حين يبلغ الشرير من هو أبر منه؟) [حب ١:١٣] بأن أهل بيت أبشالوم صمتوا حين تألم معلم البر و لم يساعدوه ضد رجل الكذب ، الذي احتقر الشريعة وسط كل جماعاتهم.

والمعنى الذي يقصده هو أن أبشالوم بن داود خرج على داود وحاربه ، وكذلك النبي الآتي سيكون خارجًا عن جماعة اليهود .

ويقول المسيحيون : إن ذكر أبشالوم لغز لم يتوصل الدارسون إلى حله .

ثم تكلم كاتب المخطوطة عن دينونة الله العتيدة أن تدين جميع البشر في نهاية الأزمنة [١] ، وأن جميع الذين يمارسون الشريعة سينجيهم الله من هذه الدينونة ؛ بسبب صبرهم وثقتهم في معلم البر ، ؛ لأنهم خرجوا من وسط إسرائيل الكاذب ، وتبعوا الشريعة الإلهية بحسب ما كشفها لهم معلم البر – يقصد بهم : أعضاء الجماعة – ، أما الكاهن الشرير فَسَيَمْثُل أمام محكمة الله ، فيُحكم عليه بشكل علني ويُرْمَى في النار والكبريت ، أداة عقاب جهنم ، وهكذا سيكون أيضًا مصير أتباعه الأشرار .

---

[١] نهاية الأزمنة : تعبير يدل على نهاية عصر اليهود ، وبدء عصر المسلمين .

١٧- وفي مخطوطة تفسير المزمور ٣٧ : نعت المؤلف (معلم البر) بلقب (مفسر الحق) وبَيَّنَ أن المختارين سيرثون الأرض ، وأن عاملي الشر سيقطعونه .

١٨- وفي مخطوطة سفر أخنوخ يتحدث الكاتب في الأصحاح ٤٥-٥٧ عن (المختارين) أو (ابن الإنسان) ؛ وهو النبي الآتي إلى العالم ، وهو جالس لدينونة العالم .

وفي الأصحاحات ٨٥-٩٠ يتنبأ عن تايخ العالم إلى تأسيس المسيا لمملكته .

وفي الأصحاحات ١٠٦-١٠٨ يتحدث عن زيادرة الخطيئة من بعد الطوفان إلى حكم المسيا ، ومكافأة الأبرار وعقاب الأشرار .

١٩- وفي مخطوطة وصايا الآباء الاثني عشر يتكلم عن مجيء مسيحيين ، ولكن وثيقة دمشق تدمجها في مسيح واحد ، ويحتم على اليهود أن يختاروا النور بدل الظلمة .

اشتقاق لفظة (أسيني)

بعدما أوضحنا أن نُسَّاك قُمْران هم من الصابئين والنصارى ، وكانوا منعزلين عن اليهود ؛ للتبشير بمحمد ، نبين الآن كلام المسيحيين في هؤلاء النساك .

فهم يقولون : (إن نساك قُمْران جماعة من الأسينيين ، تكونت في القرنين الأخيرين قبل الميلاد ، وامتد تاريخهم حتى سنة ٧٠ ميلادية) .

وأصل كلمة (أسيني) حار العلماء في معرفة أصل اشتقاقها على أربعة آراء :

الرأى الأول : يقول : إن هذه الجماعة اتخذت لنفسها اسم (القصيَّة) أي : المعتزلة . وأما أنهم رهبان ، فمرده إلى أن المسيح لما دعا اليهود إلى التوبة ؛ لأن ملكوت السموات قد اقترب ، وقال للذين تبعوه : (يوجد خصيان وُلدوا هكذا من بطون أمهاتهم ، ويوجد خصيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خَصَوْا أنفسهم لأجل ملكوت السموات ، من استطاع أن يقبل فليقبل) [متى١٢:١٩] .

فالذين خصوا أنفسهم - أي : ترهبوا باختيارهم - هم الذين اعتزلوا اليهود وسكنوا في قُمْران من أجل ملكوت السموات ؛ وهو ملكوت النبي الأمي الآتي إلى العالم .

الرأى الثاني : يقول : إنه مأخوذ من التُّقَى .

الرأي الثالث : بمعنى الأول ؛ هو : الانكماش عن الدنيا وأهلها .

الرأي الرابع : يقول : قد يكون الاشتقاق من (آسو) السريانية ومعناها المداوي ؛ أي : الطبيب .

يوحنا المعمدان كان من نساك قمران

يحيى عليه السلام الذي هو يوحنا المعمدان ، ورد عنه في الإنجيل أنه كان في (البراري) [لوقا١:٨٠] ؛ وهي جمع : بَرِّيَّة ؛ منها : بَرِّيَّة فاران ، وبرية اليهودية ، وبرية قمران.

وورد عنه أنه كان يبشر بملكوت السموات قرب نهر الأُرْدُنّ [يوحنا١:٢٨] ، وهذا يدل على أنه إن لم يكن من رهبان قُمْران الذين حصروا أنفسهم عن النساء ؛ فإنه كان على دعوتهم ، ولكن المسيحيين ينفون عنه اتصاله برهبان قُمْران .

يقولون ما نصه :

(أما الأسباب التي تجعلنا لا نعتقد أن يوحنا المعمدان قد عاش مع نساك قُمْران فهي كثيرة ؛ منها : أن المعمدان كاهن ابن كاهن حسبما ورد في إنجيل لوقا ، فنحن نعرف أن يوحنا المعمدان هو ابن زكريا الكاهن (لو١:٥) ، أي ابن كاهن مُتعهد بخدمة الهيكل في أورشليم ليلاً ونهارًا ، أما نساك قُمْران جماعة لا يقدرون أن يتصوروا هذا الهيكل ولا كهنته الذين يخدمون فيه . فكيف يمكن قبول ابنه بينهم؟ لذا لا نعتقد أن يوحنا المعمدان قد عاش معهم ؛ وإلا لكان من الضروري أن يطردوه من بينهم) .

والرد عليهم ما يلي :

يقول جان دانيلو Jean Danielou – وهو من مؤيد العلاقة بين يوحنا المعمدان ونساك قُمْران :

(إن المنطقة التي يُعَمِّد فيها هي منطقة نهر الأُرْدُنّ قبل أن يصب مباشرة في البحر الميت ، في هذه المنطقة وعلى بُعد نحو ثلاثة كيلو مترات تُوجد ثكنات نساك قُمران ، هذه المنطقة يدعوها متى البشير (برية اليهودية) [متى ٣:١] . ولوقا البشير يقول : (كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البرية) [لوقا ٣:٢] .

لهذا يبدوا هنا أن كلمة (البرية) تشير إلى مكان معين ؛ لأنها الكلمة نفسها التي اعتاد نساك قُمران أن يستعملوها ؛ ليصفوا المنطقة التي كانوا يقطنونها . لهذا لم تكن كلمة (البرية) تعني أية برية أو منطقة نائية صحراوية ، إنما تعني موضعا محددا ، وهو الذي وصفه المؤرخ بليني الكبير ، بأنه مملوء بأشجار النخيل ، وبه ينابيع عدة) .

ويقول Danielou : (تم الاستشهاد بسفر إشعياء [إش ٣ : ٤٠] في مخطوطات قُمران ، كما استشهد يوحنا المعمدان أيضا بسفر إشعياء ونفس الآية : (صوت صارخ في البرية ، أعدوا طريق الرب ، قَوِّمُوا من القفر سبيلاً لإلهنا) [متى ٣:٣ ، مرقس ٣:١] .

وهم يقولون : إن هذه الطائفة رهبان قُمران تعتبر نفسها إسرائيل الحقيقي أي أن اليهود زاغوا وفسدوا ، وهم أهل الحق والعدل البقية الصالحة منهم ، وهذا يدل على انفصال كامل بين هذه الطائفة وبين اليهود ، فما هو سبب الإنفصال ؟

إنهم ينتظرون (المَسِيَّا) ، ولو كان هذا المسيا آتيا من بني إسرائيل كما يزعم اليهود ، فما هو الداعي إلى الانفصال الكامل ، والهجرة إلى البراري والقفارات ؟

وهم يستدلون على مجيء المسيا بنبوءات التوراة عنه ؛ وهي :

١- (يُقيم لك الرب إلهك نبيًّا من وسطك من إخوتك ، مثلي ، له تسمعون ، أقيم لهم نبيًّا من بين إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامي في فمه ؛ فيكلم بكل ما أوصيه به)[تثنية ١٨ : ١٥-٢٢] .

٢- ثم نطق بمثله وقال : وحي بَلْعام بن بَعُور ، وحي الرجل المفتوح العينين ، وحي الذي يسمع أقوال الله ، ويعرف معرفة العليّ ، الذي يرى رؤيا القدير ساقطًا، وهو مكشوف العينين : أراه ولكن ليس الآن ، أبصره ولكن ليس قريبا ، يبرز كوكب من يعقوب ، ويقوم قضيب من إسرائيل ؛ فيحطِّم طرفي موآب ، ويهلك كل بني الوغا ، ويكون أدوم ميراثا ، ويكون سعير أعداؤه ميراثا ، ويصنع إسرائيل ببأس ، ويتسلط الذي من يعقوب ، ويهلك الشارد من مدينة) [عدد ١٥١٩:٢٤] .

وهذه النبوءة تُظهِر من أوصافه أنه سيحارب أعداءه، و لم يحارب غير محمد ﷺ.

٣- وبركة موسى التي ختم بها هي : (وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته ، فقال : جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران ، وأتى من ربوات القدس ، وعن يمينه نار شريعة لهم، فأحب الشعب ، جميع قديسيه في يدك ، وهم جالسون عند قدمك ، يتقبلون من أقوالك)[٤٢] .

إلى أن قال : (وللاوي قال : تُميمك وأوريمك لرجلك الصديق ، الذي جربته في مسَّة ، وخاصمته عند ماء مريبة ، الذي قال عن أبيه وأمه : لم أرهما ، وبإخوته لم يعترف ، أولاده لم يعرف ، بل حفظوا كلامك ، وصانوا عهدك) [تثنية ٣٣:١] . يعنون بذلك : أنهم مثل اللاويين الأمناء ، وعوضًا عنهم . وكل هذه النبوءات تدل على محمد ﷺ .

٤- أما النبوءة التي في الكتاب المجهول ، فإنها نبوءة مفسِّرة لنبوءة في التوراة عن محمد ؛ وذلك لأن موسى لما قال الله له : سأقيم لبني إسرائيل نبيا مثلك من بعدك ، وسيكون له مجد وسلطان وملك على جميع أمم الأرض . قال لله تعالى : (أرني مجدك)[٤٣] . أي : ملكك على العالم الذي سيؤسسه هذا النبي نيابة عنك . فأراه الله هذا المجد ، وأراه محمدًا ﷺ في مرأى النبوءة ، وطلب موسى (أرني مجدك) موجود في التوراة في الأصحاح الثالث والعشرين من سفر الخروج .

وفي إنجيل برنابا : أن نيقوديموس قال للمسيح عيسى : (لقد رأيتُ كتيبا قديما مكتوبا بيد موسى ويشوع الذي أوقف الشمس كما قد فعلت خادمي ونبي الله ، وهو كتاب موسى الحقيقي ، ففيه مكتوب : أن إسماعيل هو أب لمسيًّا وإسحاق أب لرسول مسيا . وهكذا يقول

---

[١] في ترجمة الكتاب المقدس عربي/إنجليزي " كتاب الحياة " :

(وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته ، فقال : أقبل الرب من سيناء ، وأشرق عليهم من سعير ، وتألق في جبل فاران ، جاء محاطًا بعشرات الألوف من الملائكة ، وعن يمينه يُومض برق عليهم ، حقًا إنك أنت الذي أحببت الشعب ، وجميع القديسين في يدك ، ساجدون عند قدميك ، يتلقون منك أقوالك) .

وهذه من الترجمة اليونانية للتوراة .

[٢] ترجمتها في برنابا : (أظهر لي عبدك في سناء مجدك) . وفي الطباعة كتبت خطأ هكذا : (أظهر لعبدك) .

الكتاب : إن موسى قال : أيها الرب إله إسرائيل القدير الرحيم ، أظهر لي عبدك في سناء مجدك) .

فأراه الله من ثَمَّ رسوله على ذراعي إسماعيل ، وإسماعيل على ذراعي إبراهيم عليهم السلام ، ووقف على مقربة من إسماعيلَ إسحاقُ ، وكان على ذراعيه طفل يشير بإصبعيه لي رسول الله قائلاً : (هذا هو الذي لأجله خلق الله كل شيء) .

وكل هذا يدل على أن طائفة قُمْران هم أهل الإنجيل الأمناء ، وفي مكان سكناهم كتبوا نسخا من الإنجيل الحقيقي غير المحرف ، وأرسلوا بها رسلاً إلى جميع البلاد .

يقول المسيح عيسى عليه السلام لنيقوديموس :

(قل لي أيها الأخ ، أخطر في بالك لما أتيتُ لتسألني في الهيكل إن الله قد بعثني لأبيد الشريعة الأنبياء ؟

من المؤكد أن الله لا يفعل هذا ؛ لأنه غير متغير ، فإن ما فرضه الله طريقا لخلاص الإنسان هو ما أمر الأنبياء بالقول به لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته لو لم يفسد كتاب موسى مع كتاب أبينا داود بالتقاليد البشرية للفريسيين الكذبة والفقهاء لما أعطاني الله كلمته ، ولكن لماذا أتكلم عن كتاب موسى وكتاب داود ؟

فقد فسدت كل نبوءة حتى أنه لا يطلب اليوم شيء ؛ لأن الله أمر به بل ينظر إذا كان الفقهاء يقولون به والفريسيون يحفظونه كأن الله على ضلال والبشر لا يضلون ، فويل لهذا الجيل الكافر ؛ لأنهم سيحملون تبعة دم كل نبي وصدِّيق مع دم زكريا بَرَخِيَا الذي قتلوه بين الهيكل والمذبح) .

ثم جاء بعد ذلك :

(قل لي أيها الأخ وأنت الفقيه المتضلع من الشريعة بأي ضَرْب موعد مَسِيا لأبينا إبراهيم ؟ أبإسحاق أم بإسماعيل ؟

أجاب الكاتب : يا معلم أخشى أن أخبرك عن هذا بسبب عقاب الموت . حينئذ قال يسوع : إني آسف أيها الأخ أني أتيت لآكل خبزًا في بيتك ؛ لأنك تحب هذه الحياة الحاضرة أكثر من الله

خالقك ، ولهذا السبب تخشى أن تخسر حياتك ، ولكن لا تخشى أن تخسر الإيمان والحياة الأبدية التي تضيع متى تكلم اللسان عكس ما يعرف القلب من شريعة الله .

حينئذ بكى الكاتب الصالح وقال : يا معلم لو عرفتُ كيف أمر ، لكنت قد بشرت مرارًا كثيرة بما أعرضت عن ذكره ؛ لئلا يحصل شغب في الشعب .

أجاب يسوع : يجب عليك ألا تحترم الشعب ولا العالم كله ولا الأطهار كلهم ولا الملائكة كلهم إذا أغضبوا الله ، فخير أن يهلك العالم كله من تُغضِب الله خالقك ولا تحفظه في الخطيئة ؛ لأن الخطيئة تملك ولا تحفظ ، أما الله فقدير على خلق عوالم عند رمال البحر بل أكثر .

حينئذ قال الكاتب : عفوا يا معلم ؛ لأني قد أخطأتُ . قال يسوع : الله يغفر لك ؛ لأنك إليه قد أخطأت .

فقال من ثَمَّ الكاتب : لقد رأيتُ كتيبا قديما مكتوبًا بيد موسى ويشوع الذي أوقف الشمس كما قد فعلت خادمي ونبي الله ، وهو كتاب موسى الحقيقي ففيه مكتوب : أن إسماعيل هو أب لمسيا ، وإسحاق أب لرسول مسيا ، وهكذا يقول الكتاب : إن موسى قال : أيها الرب إله إسرائيل القدير الرحيم ، أظهر لي عبدك في سناء مجدك . فأراه الله من ثَمَّ رسوله على ذراعي إسماعيل ، وإسماعيل على ذراعي إبراهيم ، ووقف على مقربة من إسماعيلَ إسحاقُ ، وكان على ذراعيه طفل يشير بإصبعيه إلى رسول الله قائلاً : هذا هو الذي لأجله خلق الله كل شيء .

فصرخ من ثَمَّ موسى بفرح : يإسماعيل ، إن في ذراعيك العالم كله والجنة ، اذكرني أنا عبد الله ؛ لأجد نعمة في نظر الله بسبب ابنك الذي لأجله صنع الله كل شيء .

لا يوجد في ذلك الكتاب أن الله يأكل لحم المواشي أو الغنم ، لا يوجد في ذلك الكتاب أن الله قد حصر رحمته في إسرائيل فقط ، بل أن يرحم كل إنسان يطلب الله خالقه بالحق .

لم أتمكن من قراءة هذا الكتاب كله ؛ لأن رئيس الكهنة الذي كنت في مكتبته نهاني قائلا : إن إسماعيليًا قد كتب .

فقال حينئذ يسوع : انظر لا تعود أبدا فتحجز الحق ؛ لأنه بالإيمان بمسيا سيعطي الله الخلاص للبشر ، ولن يخلص أحد بدونه) [برنابا ١٨٩] .

د- يوم الرب : أعد قراءة نبوءة النبي الأمي ؛ وهي :

(أقيم لهم نبيا من بين إخوتهم ، مثلك ، وأجعل كلامي في فمه ؛ فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي ؛ أنا أطالبه) [تث ١٨ : ١٨-١٩] .

وفي ترجمة :

(فإن موسى قال للآباء : إن نبيا مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم ، له تسمعون في كل ما يكلمكم به ، ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبي ؛ تُباد من الشعب) [أعمال ٣ : ٢٢-٢٣] .

في هذه النبوءة أن النبي الأمي الآتي سيُهْلِك اليهود الكافرين به في مواقع حربية في الأيام الأولى لظهوره ، وأن الله سينصره على أعدائه . ولما كانت الحرب من أجل التمكين لدين الله ، سموا أيام وقوعها بـ : يوم الرب .

وفي تبشير المسيح بمحمد بيان بأنه سوف يأتي من بعده ، بأنه سيهلك اليهود الكافرين به والأمم التي ترفضه في يوم الرب ، وقد قال لأتباعه : (اسهروا إذن ؛ لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم) [متى٢٤:٤٢] . أي : سيدكم النبي الآتي . وحذرهم من الغفلة : (لئلا يأتي بغتة) [مرقس١٣:٣٦] .

وأوصاهم بعقد اجتماعات دائمة لتذكُر النبي ، وسماها بـ : اجتماعات يوم الرب .

ومن النصوص الدالة عليها :

(لأني أقول لكم : إني لا آكل منه بعد ، حتى يكمل في ملكوت الله . ثم تناول كأسًا وشكر وقال : خذوا هذه واقتسموها بينكم ؛ لأني أقول لكم : إني لا أشرب من نتاج الكرمة حتى يأتي ملكوت الله ، وأخذ خبزًا وشكر وكسَّر وأعطاهم قائلا : هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم ، اصنعوا هذا لذكري) [لوقا١٦١٩:٢٢] .

يقول المسيحيون : إن هذا الاجتماع من أجل تذكر يوم الرب ، وهو أيام تأسيس (ملكوت السموات) سر من الأسرار التي لا نعرف معناها .

وفي إنجيل الديداكي أنه على يد محمد ﷺ ، لأن محمدًا ﷺ قد جاء وأسس الملكوت ، أما يسوع المسيح عليه السلام فإنه إلى الآن لم يأتِ . وهو قد قال في الإنجيل : (ولست أنا بعدُ في العالم) [يو ١١:١٧] .

ولأن في إنجيل الدّيداكي أن الخبز والخمر من أجل تذكر يوم الرب . وقد أتى يوم الرب ؛ فإن المعارك في أرض (هرمجدون) قد درات بين اليهود وشركائهم من جهة وبين المسلمين من جهة أخرى ، وفتح المسلمون فلسطين في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه [(١)] .

والديداكي هو تعليم المسيح للأمم عن طريق تلاميذه ، وفيه النص عن الخبز والخمر ، وفي نهايته يقول : (عند اجتماعكم يوم الرب ؛ اكسروا الخبز واشكروا بعد أن تكونوا اعترفتم بخطاياكم ؛ لكي تكون ذبيحتكم طاهرة) .

ويقول المسيحيون : إن هذا الاجتماع سر من الأسرار التي لا نعرفها ، واسمه : الإفخارستيا .

يقول المسيح عيسى عليه السلام في إنجيل الديداكي - وقد شرحناه في دراستنا عنه -:

١- فيما يختص بالإفخارستيا اشكروا هكذا :

٢- أولاً بخصوص الكأس ، نشكرك يا آبانا لأجل كرمة داود فتاك المقدسة ، التي عرفتنا إياها بواسطة يسوع فتاك ، لك المجد إلى الآباد.

٣- أما بخصوص كسر الخبز : نشكرك يا آبانا من أجل الحياة والمعروفة التي أظهرتها لنا باسطة يسوع فتاك ، لك المجد إلى الآباد .

٤- كما كان هذا الخبز المكسور ، منشورًا فوق الجبال ، ثم جُمِع فصار واحدًا ، هكذا اجمع كيسك من أقصاء الأرض إلى ملكوتك ، ؛ لأن لك المجد والقدرة بيسوع المسيح إلى الآباد .

٥- لا يأكل أحد ولا يشرب من إفخار ستيتكم غير المعتمدين باسم الرب ، ؛ لأن الرب قد قال بخصوص هذا لا تعطوا القدس للكلاب .

١- بعد أن تمتلئوا ، اشكروا هكذا :

---

(١) ينظر : إنجيل الديداكي . دراسة : د/أحمد حجازي السقا . الناشر : دار الروج بالقاهرة ، وأيضًا : يوم الرب العظيم . تأليف : د/أحمد حجازي السقا . الناشر : دار الكتاب العربي بالقاهرة ودمشق .

٢- نشكرك أيها الأب القدوس ، من أجل اسمك القدوس الذي أسكنته في قلوبنا ، ومن أجل المعرفة والإيمان والخلود التي عرفتنا بها بواسطة يسوع فتاك لك المجد إلى الأبد .

٣- أيها السيد الكلي القدرة ، خلقت كل الأشياء لأجل اسمك ، ومنحت الناس طعاما وشرابا ليتمتعوا بهما لكي يشكروا ، أما نحن فمنحتنا طعاما وشرابا روحيين، وحياة أبدية بواسطة فتاك .

٤- نشكرك قبل كل شيء ؛ لأنك قادر ، لك المجد إلى الآباد .

٥- اذكر يا رب كنيستك لكي تنجيها من كل شر تكملها في محبتك ، اجمعها (تلك المقدسة) من الرياح الأربع إلى ملكوتك الذي أعددته لها ؛ لأن لك القدرة والمجد إلى الآباد .

٦- لتأت النعمة ، ولْيَمْضِ هذا العالم ، أوصنا لإله داود ، من كان طاهرا فليتقدم، ومن لم يكن كذلك فليتب ؛ مارانأثا ، آمين .

٧- أما الأنبياء فدعوهم يشكرون بقدر ما يريدون) [الديداكي ٩ و ١٠] .

وإذ قد عُلِمَ من المخطوطات المكتشفة في قُمْرَان أن جماعة قُمْرَان كانت تجتمع وتكسر الخبز وتشرب الخمر ؛ تذكارًا لمجيء ملكوت السموات ؛ يُعْلَم أنهم هم طائفة النصارى التي انفصلت عن اليهود بسبب محمد رسول الله ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف/١٤].

كسر الخبز وشرب الخمر في دائرة المعارف الكتابية المسيحية

جاء فيها ما نصه : (يصوِّر لنا (قانون الجماعة) المَسِيَّا مشتركًا في وليمة في العصر الجديد ، وكان الحاضرون يجلسون بحسب مقاماته ، وقام الكاهن الرئيسي ببركة الخبز والخمر ، ثم قام

المَسِيَّا الذي كان يشغل مركزًا ثانويًا ببركة الطعام أيضًا ، وواضح أن الوليمة رئوية ، ولو أنه قد أُجريت في نفس الوقت بعض الأسرار المقدسة .

وكان توقعهم للأحداث التي ستسفر عن الملكوت السماوي هي الموضوع الرئيسي للمواعظ ، وكانت الجماعة تعتقد أن الملكوت سيظهر بعد هزيمة (الكتيم) من الأقطار المختلفة) .

ملاحظة : الكلام عن (الكتيم) موجود في سفر دانيال ، ويقال : إن المقصود بهم هم الدولة الرومانية .

وفي دائرة المعارف الكتابية :

(إن جماعة قُمْران لم تعتبر مطلقًا أن مؤسسها هو يسوع (المَسِيَّا) وأن الأسرار المقدسة في الأناجيل تختلف عن أسس جماعة قُمْران ، والفكر المسيحي عن الخطية والكفارة يختلف تماما عن فكر جماعة قُمْران) .

والتعليق : إن هذا الاختلاف مردُّهُ إلى تحريف النصرانية .

وفي دائرة المعارف الكتابية :

(إن وجه الشبه الوحيد بين تعاليم جماعة قُمْران وتعاليم يسوع ينحصر في الأصحاح الخامس من إنجيل متى ، وتوجد عبارات في الأناجيل كان يستخدمها أهل قُمْران مثل: (أبناء النور) (الحياة الأبدية) ، (نور الحياة) ، (أعمال الله)، (ليكونوا واحدا) .

والتعليق على هذا :

أن الأصحاح الخامس من متى يتكلم عن مجيء ملكوت السموات ، وأنه سيكون للمتواضعين لا للمتكبرين الملاعين ، وأن المتواضعين سيرثون الأرض ؛ لأنهم هم أصحاب الملكوت .

وكل جملة من هذا الأصحاح تشير إلى نبوءة عن محمد في التوراة ؛ فقوله : (طوبى للمساكين بالروح ؛ لأن لهم ملكوت السموات) . إشارة إلى نبوءة [المزمور ٥١] وهو من مزامير المَسِيَّا ، وفيه : (القلب المنكسر والمنسحق يا ألله لا تحتقره) .

وقوله : (طوبى للحزانى ؛ لأنهم يتعزون) . من نبوءة في [إش ٢:٦١ ٣] وقوله (طوبى للودعاء) من نبوءة [المزمور ٣٧ :١١] .

وقوله عن الودعاء : (لأنهم يرثون الأرض) . من نبوءة [المزمور ٣٧] .

وقوله : (طوبى للجياع ... إلخ) من [إش ١:٥٥ و ١٣:٦٥] .

وقوله : (طوبى للرحماء ؛ لأنهم يرحمون) . من [المزمور ١:٤١] .

وقوله : (طوبى للأنقياء القلب ؛ لأنهم يعاينون الله) . من [المزمور ٢:١٥ و٤:٢٤] .

ونتيجة هذا : هو أن وجه الشبه يدل على أن جماعة قُمْران هم طائفة النصارى الأمناء ، الذين كانوا في الزمان الأول إلى فرض المسيحية فرضًا .

وفي دائرة المعارف الكتابية :

(إن تفسير علماء قُمْران للمزمور ٣٧ يذكرون إرسال السماء لـ (معلم البر)؛ ليقوم باحتلال (المدينة المقدسة) و(الهيكل) ، ويقول النص في هذا التفسير : إن الكاهن الشرير جاء ليقتل (المعلم البار) ويذبح المستقيمين) .

ويقول المسيحيون : إن ذلك كله إشارة إلى حروب وقعت قبل ظهور يسوع المسيح .

والرد عليهم :

هو أن المزمور يتكلم عن إرث المسِيَّا وأصحابه للأرض ، والنصوص المكتشفة تدل على أن هذه الطائفة كانت من بعد ظهور يسوع المسيح . والكاهن الشرير هو رمز لليهود ، والمستقيمون هو رمز لأتباع النبي الآتي .

ويقول المسيحيون : إنه إذا كان المقصود بـ (كِتّيم) هم الرومان ؛ لكان ما تصفه لفافة تفسير نبوءة حبقوق هو احتلال الرومان بقيادة بومبي لليهودية في ٦٣ ق.م. ، وليس من الميسور الجزم بهذا الأمر ، كما أننا لا نعلم على وجه اليقين من هو (المعلم البار) ، وبخاصة أن بعض الإشارات تدل على أنها وظيفة أكثر مما تدل على شخص معين .

والرد عليهم :

هو أن نبوءة حبقوق تبين أن النبي الآتي وهو المسِيَّا سيأتي من أرض الجنوب ، وهي أرض مكة المكرمة أرض فاران إلى أرض فلسطين ، وستصاحبه آلات الحرب والقتال . وهذا هو النص :

(يا رب قد سمعتُ خبرك فجزعت ، يا رب عملك في وسط السنين أحيه ، في وسط السنين عرّف ، في الغضب اذكر الرحمة .

الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبل فاران سلاه ، جلاله غطّى السموات ، والأرض امتلأت من تسبيحه ، وكان لمعان كالنور ، له من يده شُعاع ، وهناك استتار قدرته ، قدامه ذهب الوبأ ، وعند رجليه خرجت الحمّى .

وقف وقاس الأرض ونظر ، فرجف الأمم ، ودُكّت الجبال الدهرية ، وخسفت آكام القدم ، مسالك الأزل له .

رأيت خيام كُوشان تحت بلية ، رَجَفَت شقق أرض مديان . هل على الأنهار حمى يا رب ، هل على الأنهار غضبك ، أو على البحر سخطك ؟

حتى أنك ركبت خيلك . مركباتِكَ مركبات الخلاص ، عُرِّيتْ قوسك تعرية ، سباعيات سهام كلمتك ، سلاه .

شققتَ الأرض أنهارا أبصرتْك ففزعت الجبال ، سيلُ المياه طما ، أعطت اللجة صوتها . رفعت يديها إلى العلاء ، الشمس والقمر وقفا في بروجهما لنور سهامك الطائرة ، للمعان برق مجدك . بغضبٍ خطرتَ في الأرض ، بسخط دُستَ الأمم .

خرجتَ لخلاص شعبك لخلاص مسيحك ، سَحقتَ رأس بيت الشرّير ، معرّيا الأساس حتى العُنق ، سلاه .

ثقبت بسهامه رأس قبائله . عصفوا لتشتيتي . ابتهاجُهم كما لأكل المسكين في الخُفية . سلكت البحر بخيلك كُوَمَ المياه الكثيرة .

سمعت ؛ فارتعدت أحشائي من الصوم رجفت شفتاي ، دخل النَّخرُ في عظامي، وارتعدتُ في مكاني ؛ لأستريح في يوم الضيق ، عند صعود الشعب الذي يَزحَمُنا ، فمع أنه لا يُزهِر التين ، ولا يكون حمل في الكروم ؛ يكذبُ عملُ الزيتونة ، والحقول لا تصنعُ طعاما ، ينقطعُ الغنمُ من الحظيرة ، ولا بقر في المذاود ؛ فإني أبتهج بالرب ، وأفرح بإله خلاصي .

الرب السيد قوتي ، ويجعل قدمي كالأيائل ، ويُمشيني على مرتفعاتي) [حبقوق ٣] .

لاحظ :

الله جاء من تيمان ، في النص اليوناني : (الله جاء من الجنوب) ، وفي ترجمة كتاب الحياة عربي/إنجليزي : (من أدوم) . والمعنى واحد ؛ فإن جهة أدوم هي جهة الجنوب لفلسطين ؛ لأنها هي الأُرْدُنّ .

وتصف التوراة أرض مكة بأنها أرض الجنوب ، فإن إبراهيم عليه السلام (بنى هناك مذبحًا للرب ، ودعا باسم الرب ، ثم ارتحل إبرام ارتحالاً متواليًا نحو الجنوب) [تك ٨:١٢ ٩] ، وهاجر عليها السلام لما فار الماء (دعيت البئر بئر لَحَيْ رُئِي) [تك ١٤:١٦] . أي : بئر الحي الرائي . وليس في أرض الجنوب إلا بئر زمزم في مكة عند الكعبة .

ولما ذبح إبراهيم عليه السلام الكبش عوضا عن ابنه (دعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يَهْوَه يِرْأَه ، حتى إنه يقال اليوم : في جبل الرب يُرى) [تك ١٤:٢٢] . والمعنى : الله يرى ، وجبل الرب هو جبل الكعبة ؛ لأنه لا جبل غيره مقدس .

ولما تزوج إسحاق عليه السلام من رفقة ، وقدمها العبد إليه (كان إسحاق قد أتى من ورود بئر لَحَيْ رُئِي ؛ إذ كان ساكنا في أرض الجنوب) [تك ٦٢:٢٤] .

وهذا يدل على أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام كانوا يسكنون في مكة عند بئر الحي الرائي .

فإذا قال حبقُوق : إن الله جاء من تيمان . والمراد مجيء نبي الله ، فإنه يقصد بمجيئه مجيئه من مكة ؛ وهو محمد ﷺ ؛ لأن إسماعيل عليه السلام مبارك فيه ، وقد كان ساكنا في أرض فاران .

وحبقوق يقول : إن القدوس سيجيء من جبل فاران ؛ ففي التوراة : (ونادى ملاك الله هاجر من السماء ، وقال لها : ما لك يا هاجر ؟ لا تخافي ؛ لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو ، قومي احملي الغلام ، وشُدّي يدك به ؛ لأني سأجعله أمة عظيمة . وفتح الله عينيها؛ فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام .

وكان الله مع الغلام ؛ فكبر ، وسكن في البرية ، وكان ينمو رامي قوس ، وسكن في برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر) [تك ١٧:٢١ ٢١] .

ولما دعا إبراهيم عليه السلام ربه بأن يُبارك في إسماعيل عليه السلام ؛ استجاب الله ﷻ لدعائه ، وجعل له بركةً هي ملك ونبوة ، تبدأ من نبي يظهر منه؛ كما ابتدأت بركة إسحاق من موسى عليهما السلام . ذلك قوله : (وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه ، وأثمره وأكثره كثيرا جدا ؛ اثني عشر رئيسا يلد ، وأجعله أمة كبيرة) [تك ١٧:٢٠] .

وعيسى عليه السلام وهو يبشر بمحمد ﷺ قال : إنه سيأتي من أرض الجنوب ؛ ذلك قوله : (حينئذ يرحم الله العالم ، الذي خلق كل الأشياء لأجله ، الذي سيأتي من الجنوب بقوة ، وسيبيد الأصنام ، وعبدة الأصنام) [برنابا ٩٦] .

ونعود إلى كلام المسيحيين في دائرة المعارف الكتابية :

وهو أن علماء قُمْران يذكرون إرسال السماء لـ (معلم البر) ؛ ليقوم باحتلال (المدينة المقدسة) و(الهيكل) ، وأن المسيحيين يفسرون هذه الحرب بأنها وقعت قبل ظهور محمد .

ونقول :

إن إرسال السماء ؛ يعني : أن هذا الآتي ليعلم البر يكون آتيا من الله ، ولم يأتِ أحد وشن حربًا وأعطى شريعة من قبل ظهور يسوع المسيح عليه السلام ومن بعده إلا محمد رسول الله ﷺ ؛ ذلك أن معلم البر وهو النبي المنتظر يأتي ليزيل المملكة الرابعة وهي مملكة الرومان ، ويؤسس ملكوت الله بعد الانتصار عليها [دانيال ٢ و٧و٩]، ولم يزلها غير المسلمين .

ثم إن كِتّيم التي ذكرها دانيال إذا قرأت عنها في الأصحاح العاشر وما بعده من سفر دانيال تجده يقول : (وإنما جئت لأبين لك ما يحدث لشعبك في الأيام الآتية ؛ لأن الرؤيا هي لتلك الأيام) . وفي ترجمة : (وجئت لأفهمك ما يصيب شعبك في الأيام الأخيرة ؛ لأن الرؤيا إلى أيام بعد) [دا ١٠:١٤] . فهو يتكلم عن (الأيام الأخيرة) لملك بني إسرائيل وشريعتهم .

ثم تكلم دانيال عن حرب تقوم بين الجنوب والشمال بأسلوب رئوي أسطوري، وقال : (وفي الوقت المعين يعود ملك الشمال ويدخل الجنوب ، ولكن لا تكن الحال كما كانت عليه من قبل ؛ لأن سفنا من كِتّيم تأتي وتهاجمه ؛ فيجبن ويرجع ساخطا على شعب العهد المقدس ، ويفعل ما يشاء ، ثم يتعرض عند رجوعه إلى الذين تركوا العهد المقدس ... إلخ) [دا

١١:٢٩] . إلى أن قال : (فيسقط بعض العقلاء ، ويكون سقوطهم سببا لتمحيص الشعب وتنقيته وتطهيره ، إلى أن يحين الوقت الذي حدده الله) [دا ١١:٣٥] .

ومن يقول عن يقين إنه يقصد بـ " كتيم " مملكة الرومان ؟

وفي دائرة المعارف الكتابية المسيحية :

أن قطع الفخار التي استخرجت من الكهف الأول قد تعود إلى العصر الروماني في نحو القرن الثالث الميلادي ، أما قطع النسيج فإنها تمتد إلى مائتين وثلاثة وثلاثين بعد الميلاد .

وفي دائرة المعارف :

أن نحو مائتي قصاصة وجدت في الكهف الثاني ، والقسم الأكبر منها يحتوي على نصوص غير كتابية ، هي في مغظها رئوية أو مسيانية في طبيعتها . هذا هو قولهم .

ولما كانوا ينتظرون المسيا ، فإنه لمن المؤكد أن النصوص غير الكتابية التي يعنون بها أنها غير منقولة من الكتب المقدسة تكون نصوصا من الإنجيل الحقيقي ، ويؤكد ذلك حصول التشابه التام بين آرائهم وبين المذكور في إنجيل برنابا والديداكي .

وفي دائرة المعارف :

أنهم اكتشفوا لفافتين من النحاس فيهما قائمة بنحو ستين مخبأ حفظت فيها الكنوز ، مع ذكر مواقعها في مختلف أجزاء فلسطين . والكتابة تمت بعجلة ، بخط كان شائعا في القرن الأول الميلادي ، وهو الخط الذي كتبت به (المشنا) ، وهذه الكنوز تقدر بستة آلاف وزنة ؛ أي : نحو مائتي طنّ من الذهب والفضة . هذا هو قولهم .

ويحارون في تفسير هذه الكمية كيف كانت عندهم وهم كانوا زهادًا ؟

وقد غفل هؤلاء المتحيرون عن أن عائلات برمتها قد انضمت إليهم ، وسكنوا معهم في الكهوف والخيام .

ففي مراقبتهم للمريدين : (لا تُخلَط أموال المريد مع أموال الجماعة ، بادئ ذي بدء ، ثم تضم أمواله إلى أموال الجماعة بعد سنتين) .

وفي مخطوطة ملحق نظام الرعية أن : (عائلات كثيرة جاءت إليهم ، ورفضت السير في طريق ضلال شعب إسرائيل ، وإذا رغب الابن في الزواج ، فليتزوج وهو ابن عشرين سنة كاملة) [٩٥] .

ومما يدل على أنهم نصارى قول دائرة المعارف : .

(ولقد جاءت أغلب القصاصات التي وجدت في منطقة المربعات في ١٩٥٢م من الكهف الثاني (في المربعات) ، واشتملت على وثائق من القرن الثاني بعد الميلاد ، مكتوبة باليونانية والعبرية والآرامية) .

وقولهم : من القرن الثاني بعد الميلاد . يدل على أنهم نصارى ، فكيف يقولون إنهم هجروا الموقع في حرب الرومان لليهود في سنة ٧٠ بعد الميلاد ؟

وانظر أيضا إلى قولهم :

(كما وجدت بالكهف الثاني بمنطقة المربعات قصاصات من أسفار موسى الخمسة ، ومن سفر إشعياء ، وهي مطابقة تمامًا للنص الماسُوري ، ويرجع بها العلماء إلى القرن الثاني الميلادي) .

أخوة قمران

وتحت هذا العنوان جاء في دائرة المعارف الكتابية :

(كانت الطائفة تتكون من جماعة من الكهنة والعلمانيين ، يحيون حياة مشتركة في تكريس متزمت لله ، وقد كُشفت أسرار النبوة لمؤسس الطائفة وهو كاهن يُوصف بأنه (المعلم البار) ، وكان من أهم مظاهر حياة الجماعة ؛ تفسير الكتب المقدسة بما يتفق مع شهادة الطائفة ونهاية الدهر ، وقد أرسل الله (المعلم البار) ليعلن الدينونة التي ستحل بإسرائيل) .

ومعنى الكلام : أنهم جماعة من علماء بني إسرائيل ، يتقون الله حق تقاته ، وقد كشف الله أسرار النبوة ؛ وهي المعرفة الصحيحة للنبي الآتي نبي آخر الزمان ؛ وهو محمد ﷺ .

---

[٩٥] ينظر : نساك قُمْران ومخطوطاتهم .

وكان هؤلاء العلماء يفسرون نبوءات كتب التوراة عن النبي الآتي ؛ لتدله على حسن شهاداتهم له ، ولتدل على نهاية النبوءة والملك في بني إسرائيل ، ولتدل أيضا على الحرب المدمرة التي ستحل باليهود في يوم الرب من هذا النبي وأصحابه .

أليس هذا ما نادى به المسيح عيسى عليه السلام وعلَّم به ؟ ألم يقل للحواريين : (فلما إذا جاء الفارقليط الذي أرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من الآب ينبثق ؛ هو يشهد لأجلي ، وأنتم تشهدون ؛ لأنكم معي من الابتداء) ؟ ألم يفسر نبوءات التوراة عن النبي الآتي على محمد ؟

بلى ، فإنه قد فسر العهد القديم تفسيرًا حسنًا ، وفسر نبوءات من سفر الزبور ، وهذا يدل على أنه إن لم يكن هو المؤسس لهذه الطائفة في هذا المكان ؛ فإنه قد وكّل به غيره ، وقد وضحتُ هذا في التقديم لكتابي " يوم الرب العظيم " .

وهذا يكون قول المسيحيين عن هذه الطائفة قول للتضليل في شأنهم ؛ وهو : (لقد وضحت الخصائص العامة لجماعة قُمْران ، ولو أننا لم نصل إلى معرفة كل ما نريد منهم) .

انظر إلى قولهم : (وقد أرسل الله (المعلم البار) ؛ ليعلن الدينونة التي ستحل بإسرائيل) ، تجده منطبق على المسيح عيسى عليه السلام ؛ فإنه أعلن الدينونة في إنجيل بَرْنابا بما نصه :

(يأورشليم ، يإسرائيل ، إني أبكي عليك ؛ لأنك لا تعرفين يوم حسابك ؛ فإني أحببت أن أضمك إلى محبة الله خالقك ، كما تضم الدجاجة فراخها تحت جناحيها؛ فلم تريدي [(٦)] ، لذلك يقول الله لك هكذا :

أيتها المدينة القاسية القلب المرتكسة العقل ، لقد أرسلت إليك عبدي ؛ لكي يحولكِ إلى قلبك فتتوبين ، ولكنك يا مدينة البلبلة [(٧)] قد نسيت كلما أنزلت بمصر وبفرعون حبا فيك يإسرائيل ، ستبكين مرارا عديدة ؛ ليبرئ عبدي جسدك من المرض ، وأنت تطلبين أن تقتلي عبدي ؛ ؛

---

(٦) لوقا ١٣ : ٣٤ و ١٩ : ٤١-٤٤ .

(٧) إشعياء ٥٤ : ١٠ .

لأنه يطلب أن يشفي نفسك من الخطيئة. أتبقين إذن وحدك دون عقوبة مني ؟ أتعيشين إذن إلى الأبد ؟ أو تنقذك كبرياؤك من يدي ؟ لا البتة ؛ لأني سأحمل عليك بأمراء وجيش ؛ فيحيطون بك بقوة ، وسأسلمك إلى أيديهم على كيفية تهبط بها كبرياؤك إلى الجحيم [48] .

لا أصفح عن الشيوخ ولا الأرامل ، لا أصفح عن الأطفال ، بل أُسلمكم جميعًا للجوع والسيف والسخرية .

والهيكل الذي كنت أنظر إليه برحمة ؛ إياه أُدمّر مع المدينة ، حتى تصيروا رواية وسخرية ومَثَلاً بين الأمم ، وهكذا يحل غضبي عليك ، وحنقي لا يهجعُ) [برنابا ٢٠٣] .

البيان :

إن هذا النص ليس مذكورًا في بَرْنابا وحده ، وإنما هو مذكور أيضا في متى ولوقا وشواهده موجودة في التوراة . فمن يكون هو المعلم البار المتحدث باسم المعلم البار الآتي ؟

---

[1] لوقا ١٠ : ١٥ .

الفصل الرابع

المعتزلة خلفاء النصارى

الأمناء في قمران

الفصل الرابع

المعتزلة خلفاء النصارى الأمناء في قُمْران

سمي معتزلة بهذا الاسم ؛ لأنهم كانوا يعتزلون العالم ، ويحبون حياة التقشف والزهد . وهذا هو رأي (جولدزيهر) المستشرق :

وأصحح هاهنا قولاً للأستاذ (أحمد أمين) : وهو أن فرقة (الفروشيم Phqrisees) اليهودية التي ظهرت بعد العودة من السبي كانت تتكلم في القدر كالمعتزلة ، ويقولون : ليس كل الأفعال خالقها الله تعالى .

ولا يبعد – والحالة هذه – أن يكون بعض اليهود الذين أسلموا قد أطلقوا على المعتزلة هذا اللفظ ؛ لما رأوه بينهم وبين الفرشيم من شَبَهٍ في القول بالقدر [٤٩] .

والصحيح : أن الفَرِّيسيين Phariseas نشأوا من قبل السبي في زمان إلياس عليه السلام كانوا يؤمنون بالجَبْر ، ويصرحون به في زمن المسيح عليه السلام .

ولا يعرف أحد زمن نشأتهم غير المسيح عليه السلام ، وكانوا في زمنه هم الأعداء الألداء له وللنصارى ، حتى إنهم أطلقوا عليه لقب (ها نصرى) وهي كلمة عبرانية معناها (المحتقر) .

وقد تفاخر المسيح عليه السلام بإطلاقها عليه ؛ نكاية في اليهود ؛ فلذلك عرفوا عند اليهود بـ : الها نصريين أو الناصريين ، ثم حرفت إلى : نصارى .

ويقول بعض الكتاب : إن النصارى نسبة إلى قرية (الناصرة) .

وقولهم هذا باطل ؛ لأنه مولود في (بيت لحم) وهو من العبرانيين من جهة أمه، والناصرة من قرى اليهود السامرين ؛ ففي تفسير متى هنري لأنجيل متى : أن(ناصريا) قد يكون من كلمة عبرانية تترجم بـ : الغض أو النذير Nether ، أو هي كاسم للازدراء والتحضير والتعبير ؛ فإن تسميته بهذا الاسم (ناصري) كانت تعني (الرجل المتحضر) الرجل الذي لا يرجى منه أي شيء صالح ، والذي لا يليق بأن يقدم له أي إكرام .

---

[١] ينظر : فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ١/٣٤٤ ، ٣٤٥ .

وقد ألصق الشيطان هذا الاسم بالمسيح عليه السلام في بداية الأمر ؛ لتحقيره ولتنفير الشعب منه ، فلصق به وبأتباعه كعلامة على الازدراء)[٥٠] .

نشأة الفريسيين

في الأصحاح الرابع والأربعين وما بعده من إنجيل بَرْنابا :

(لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته إن الله يرسل أنبياءه وخدامه إلى العالم ليتوب الخطاة ، ولا يرسلهم لأجل الأبرار ؛ لأنه ليس لهم حاجة إلى التوبة ، كما أنه لا حاجة بمن كان نظيفًا إلى الحمّام .

ولكن الحق أقول لكم : لو كنتم فَرِّيسيين حقيقيين ، لسررتم بدخولي على الخطاة لخلاصهم .

قولوا لي : أتعرفون منشأكم ؟ ولماذا ابتدأ العالم بقبل الفريسيين ؟ إني لأقول لكم : إنكم لا تعرفونه . فأصيخوا لاستماع كلامي .

إن أخنوخ خليل الله صار مع الله بالحق غير مكترث بالعالم ، نُقل إلى الفردوس، وهو يقيم هناك إلى الدينونة ؛ لأنه متى اقتربت نهاية العالم يرجع إلى العالم مع إيليا وآخر .

فلما علم الناس بذلك شرعوا يطلبون الله خالقهم ؛ طمعًا في الفردوس ؛ لأن معنى الفردوس بالحرف في لغة الكنعانيين (يطلب الله) ؛ لأنه هناك ابتدأ هذا الاسم على سبيل الاستهزاء بالصالحين ؛ لأن الكنعانيين كانوا منغمسين في عبادة الأصنام التي هي عبادة أيدٍ بشرية .

وعليه كان الكنعانيون عندما يرون أحدًا ممن كان منفصلا من شعبنا عن العالم ليخدم الله قالوا سخرية فريسي . أي (يطلب الله) . كأنهم يقولون : أيها المجنون، ليس لك تماثيل من أصنام ؛ فإنك تعبد الريح ، فانظر إلى عقابك واعبد آلهتنا .

فقال يسوع : الحق أقول لكم : إن كل قديسي الله وأنبيائه كانوا فريسيين ، لا بالاسم مثلكم بل بالفعل نفسه ؛ لأنهم في كل أعمالهم طلبوا الله خالقهم ، وهجروا مدنهم ومقتنياتهم حبا في الله ، فباعوها وأعطوها للفقراء حبا في الله .

---

[١] ينظر : تفسير إنجيل متى . لمتى هنري ٥٣/١ .

لعمر الله لقد كان في زمن إيليا خليل الله ونبيه اثنا عشر جبلا يقطنها سبعة عشر ألف فريسي ، ولم يكن بين هذا العدد الغفير منبوذ واحد ، بل كانوا جميعا مختاري الله .

أما الآن وفي إسرائيل نيف ومئة ألف فريسي ؛ فعسى إن شاء الله أن يوجد بين كل ألف مختار واحد .

فأجاب الفريسيون بحنق : أنحن إذن جميعا منبوذون ، وتجعل ديانتنا منبوذة ؟

أجاب يسوع : إني لا أحسب ديانة الفريسيين الحقيقيين منبوذة ، بل ممدوحة ، وإني مستعد أن أموت لأجلها ، ولكن تعالوا ننظر هل أنتم فريسيون ؟

إن إيليا خليل الله كتب إجابة لتضرع تلميذه أليشع كتيبا أودَعَ فيه الحكمة البشرية مع شـريعة الله أبينا .

فتحيَّر الفريسيون لما سمعوا اسم كتاب إيليا ؛ لأنهم عرفوا بتقليداتهم أن لا أحد حفظ هذا التعليم ؛ لذلك أرادوا أن ينصرفوا بحجة أشغال يجب قضاؤها .

حينئذ قال يسوع : لو كنتم فريسيين لتركتم كل شغل ولاحظتم هذا ؛ لأن الفريسي إنما يطلب الله وحده .

لذلك تأخروا بارتباك ليصغوا إلى يسوع الذي عاد فقال : إيليا عبد الله ؛ لأنه هكـذا يبتـدئ الكتيب يكتب هذا لجميع الذين يبتغون أن يسيروا مع الله خالقهم . إن من يحب أن يتعلم كثيرا ، يخاف الله قليلا ؛ لأن من يخاف الله يقنع بأن يعرف ما يريده الله فقط . إن من يطلب كلاما مزوَّقا ، لا يطلب الله الذي لا يفعل إلا توبيخ خطايانا .

على من يشتهون أن يطلبوا الله أن يُحكموا إقفال أبواب بيتهم وشبابيكه ؛ لأن السيد لا يرضى أن يوجد خارج بيته حيث لا يُحب ، فاحرسوا مشاعركم ، واحرسوا قلبكم ؛ لأن الله لا يوجد خارجا عنا في هذا العالم الذي يكرهه .

على من يريدون أن يعلموا أعمالا صالحة أن يلاحظوا أنفسهم ؛ لأنه لا يُجدي المرء نفعًـا أن يربح كل العالم ويخسر نفسه .

على من يريدون تعليم الآخرين أن يعيشوا أفضل من الآخرين ؛ لأنه لا يستفاد شيء ممن يعرف أقل منا نحن . فكيف إذن يُصلح الخاطئ حياته وهو يسمع من هو شر منه يعلمه ؟

على من يطلبون الله أن يهربوا من محادثة البشر ؛ لأن موسى لما كان وحده على جبل سينا ، وجد الله وكلمه كما يكلم الخليل خليله .

على من يطلبون الله أن يخرجوا مرة كل ثلاثين يوما إلى حيث يكون أهل العالم؛ لأنه يمكن أن يعمل في يوم واحد أعمال سنتين من خصوص شغل الذي يطلب الله .

عليه متى تكلم ألا ينظر إلا إلى قدميه .

عليه متى تكلم ألا يقول إلا ما كان ضروريا .

عليهم متى أكلوا أن يقوموا عن المائدة وهم دون الشبع ، مفكرين كل يوم أنهم لا يبلغون اليوم التالي ، وصارفين وقتهم كما يتنفس المرء .

ليكن ثوب واحد من جلد الحيوانات كافيا .

على كتلة التراب أن تنام على الأدم ، ليكفِ كل ليلة ساعتان من النوم .

عليه ألا يبغض أحدا إلا نفسه .

عليهم أن يكونوا واقفين أثناء الصلاة بخوف ، كأنهم أمام الدينونة الآتية .

فافعلوا إذن هذا في خدمة الله مع الشريعة التي أعطاكم إياها الله على يد موسى؛ لأنه بهذه الطريقة تجدون الله . وإنكم ستشعرون في كل زمان ومكان في (إنكم الله وأن الله فيكم .

هذا كتيب إيليا أيها الفريسيون ، لذلك أعود فأقول لكم : لو كنتم فريسيين ؛ لسررتم بدخولي هنا ؛ لأن الله يرحم الخطأة .

فقال حينئذ زَكّا : يا سيد ، انظر فإني أعطي حبًا في الله أربعة أضعاف ما أخذت بالربا .

حينئذ قال يسوع : اليوم حصل خلاص لهذا البيت . حقا حقا إن كثيرين من العَشّارين والزواني والخطأة سيمضون إلى ملكوت الله ، وسيمضي الذين يحسبون أنفسهم أبرارا إلى اللهب الأبدية . فلما سمع الفريسيون هذا انصرفوا حانقين .

ثم قال يسوع للذين تحولوا إلى التوبة ولتلاميذه : كان لأب ابنان ، فقال أصغرهما : يا أبتِ ، أعطني نصيبي من المال . فأعطاه أبوه إياه .

فلما أخذ نصيبه ، انصرف وذهب إلى كُورَةٍ بعيدةٍ ، حيث بذّر كل ماله على الزانيات بإسراف . فحدث بعد ذلك جوع شديد في تلك الكُورَة ، حتى إن الرجل التعيس ذهب ليخدم أحد الأهالي ، فجعله راعيًا للخنازير في ملكه .

وكان وهو يرعاها يخفف جوعه بأكل ثمر البلوط مع الخنازير ، ولكنه لما رجع إلى نفسه قال : كم في بيت أبي من في سعة عيش وأنا أهلك هنا جوعا . لذلك فلأقم ولأذهب إلى أبي وأقول له : يا أبتِ ، أخطأتُ في السماء إليك ، فاجعلني كأحد خدمك .

فذهب المسكين ، وحَدَث أن أباه رآه قادما من بعيد ؛ فتحنن عليه ، فذهب لملاقاته .

ولما وصل إليه عانقه وقبله ؛ فانحنى الابن أمام أبيه قائلا : يا أبتِ ، لقد أخطأتُ في السماء إليك ، فاجعلني كأحد خدمك ؛ لأني لست مستحقا أن أدعى ابنك .

أجاب الأب : لا تقل يا بني هكذا ، فإنك ابني ، ولا أسمح أن تكون عبدا لي ثم دعا خدمه وقال : أخرجوا الحُلَل ، وألبسوا ابني إياها ، وأعطوه سراويل جديدة، واجعلوا الخاتم في أصبعه ، واذبحوا حالا العجل المسمَّن فنطرب ؛ لأن ابني هذا كان ميتا فعاش ، وكان ضالا فوُجد) [برنابا-١٤٦] .

ومن أسماء المعتزلة التي أطلقوها على أنفسهم (أهل العدل) .

وأطلق عليهم المسعودي وابن قيم الجوزية [١] اسم (أهل العدل) فقط ، ولا يقولان : أهل العدل والتوحيد . وذلك لأن الدعوة إلى توحيد الله موجودة في كل ملة من الملل ؛ موجودة في اليهود والنصارى والصابئين والمسلمين على اختلاف فرقهم ومللهم ونحلهم .

ومن أسمائهم أيضًا (أهل الحق) .

ومما يدل على أن المعتزلة هم تلاميذ نصارى قُمْران الأمناء : أن رهبان قُمران كانوا يُدعون (أهل العدل) و(أهل الحق) و(أهل الصدق) . وكان يطلق عليهم أيضًا (النساك) .

---

[١] ينظر : مروج الذهب ٢٣١/٧ ، والصواعق المرسلة ١٨٥/١ ، ١٨٦ .

ومن الأدلة القوية على أن المعتزلة هم تلاميذ نصارى قُمران :

أن نصارى قُمْران هم الذين اختاروا طريق الرهبنة باختيارهم ؛ للدعوة إلى (ملكوت السموات) ؛ وهو عصر ملك محمد ﷺ وشريعته ؛ وذلك لأن المسيح عيسى ﷺ كانوا يدعوا إلى مجيء هذا الملكوت من بعده ، ويقول ، : إنه سيتأسس عقب زوال مملكة الروم التي هي المملكة الرابعة في الأصحاح السابع من سفر دانيال ، وأن الذي سيؤسسه هو (ابن الإنسان) الذي هو محمد ﷺ .

وكان ﷺ يقول للذين يريدون أن يتبعوه : دعوا الدنيا واعتزلوا عن العالم . وقد تبعه كثيرون على هذا القول . حتى أن بطرس رئيس أتباعه قال له : (ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك ، فماذا يكون لنا ؟) . أي : ما هو الأجر الذي سنحصل عليه إذا زهدنا في متاع الحياة لدنيا وسرنا معك ؟ وأجاب بقوله : (الحق أقول لكم : إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده ... إلخ) .

والتجديد : هو تجديد نظام العالم على الشريعة الجديدة ، التي سيأتي بها صاحب ملكوت السموات عوضًا عن الشريعة القديمة وهي شريعة التوراة .

والنص التالي يوضح ذلك :

(وإذا واحد تقدم وقال له : أيها المعلم الصالح ، أي : صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية . فقال : لماذا تدعوني صالحا ؟ ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله ، ولكن إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا .

قال له : أية الوصايا ؟

فقال يسوع : لا تقتل ، لا تزنِ ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، أكرِمْ أباك وأمك ، وأحب قريبك كنفسك .

قال له الشاب : هذه كلها حفظتها منذ حداثتي ، فماذا يُعوِزُني بعدُ ؟

قال له يسوع : إن أردت أن تكون كاملا ، فاذهب وبع أملاكك ؛ وأعطِ الفقراء ؛ فيكون لك كنز في السماء ، وتعال اتبعني .

فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزينا ؛ لأنه كان ذا أموال كثيرة .

فقال يسوع لتلاميذه : الحق أقول لكم : إنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السموات .

وأقول لكم أيضا : إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله .

فلما سمع تلاميذه ، بهتوا جدا قائلين : إذن من يستطيع أن يخلص ؟

فنظر إليهم يسوع وقال لهم : هذا عند الناس غير مستطاع ، ولكن عند الله كل شيء مستطاع .

فأجاب بطرس حينئذ وقال له : ها نحن قد تركنا كلَّ شيء وتبعناك ، فماذا يكون لنا ؟

فقال لهم يسوع : الحق أقول لكم : إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أيضا على اثني عشر كرسيا تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر ، وكل من ترك بيوتا أو إخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو امرأة أو أولادا أو حقولا من أجل اسمي ؛ يأخذ مائة ضعف ، ويرث الحياة الأبدية ، ولكن كثيرون أولون يكونون آخرين وآخرون أولين) [متى ٩١] .

والرهبنة لم تكن فرضا من عيسى عليه السلام على أتباعه ، ولم تكن بعبادة الله في الأديرة ، وإنما كانت للدعوة إلى مجيء محمد ﷺ لا غير .

ذلك قوله عليه السلام :

(لأنه يُوجد خِصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ، ويوجد خصيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خَصَوْا أنفسهم ؛ لأجل ملكوت السموات . من استطاع أن يقبل ، فليقبل) [متى ٩١:٢١] .

وإذا قد جاء الملكوت ، فلماذا الرهبنة ؟

إنها الآن عن المسيحيين من أجل اللغو في نبوة محمد ﷺ ، وقد كانت في البدء من أجل الدعوة إليه .

ولما انفصل أتباع عيسى عليه السلام عن اليهود ، اتخذوا وادي قُمران سكنا لهم ومقرا رئيسيا لدعوتهم ، وعملوا لهم مِدْرَاسات لتعليم الدين مثل مدراسات اليهود .

وكان الفرق بينهم وبين اليهود هو في موضع النبي الآتي المماثل لموسى عليه السلام ؛ فاليهود يَدَّعُون – وهم كاذبون – أنه سيظهر من ذريته داود من يهوذا ، ولا يقبلون أبناء من غير اليهود في مِدْرَاساتهم . والنصارى يعلمون أنه سيظهر من ذرية إسماعيل عليه السلام ، ويقبلون أبناء من غير اليهود في مِدْرَاساتهم .

الفصل الخامس

نساك قمران

ونساك المعتزلة

الفصل الخامس

نساك قُمْران ونساك المعتزلة

بينا – فيما سبق – وجه الشبه بين آراء النصارى الأمناء وبين المعتزلة .

وفي هذا نبين من الكتب الإسلامية أن المعتزلة كانوا من النُّسَّاك ، وكان يطلق عليهم اسم (النُّسَّاك) ؛ وهو الاسم الذي كان يطلق على رهبان قُمْران .

فقد جاء في كتاب " المعتزلة " للأستاذ زهدي حسن جار الله ما يلي :

(لقد كانوا في ذلك مضرب المثل ومثار الإعجاب ، ولا سيما واصل بن عطاء الذي كان يقضي الليل يتعبد ويقرأ ، شهد له بذلك الشعراء فقال أحدهم :

وأشهد أن الله أعطاك واصلا	وأنك ميمون النقيبة والشيم

ومن المعتزلة من كان يصوم الدهر كأبي سعيد السمان ، ومن لم يفكر ولم يشتغل إلا في العبادة كأبي عثمان العسال الذي كان لا يخرج من بيته في خراسان إلا مرة في السنة .

وما أحسن ما قاله صفوان الأنصاري في وصف هذه الناحية من خلقهم :

تراهم كأن الطير فوق رءوسهم	على عمّة معروفة في المعاشر
وسيماهم معروفة في وجوههم	وفي المشي حجّاجا وفوق الأباعر
وفي ركعة تأتي على الليل كله	وظاهر قول في مثال الضمائر
وفي قص هدّاب وإحفاء شارب	وكور على شيب يضيء لناظر
وعَنْفَقَة حصلومة ولنعله	قبالان في ردن رحيب الخواطر
فتلك علامات تحيط بوصفهم	وليس جهول القوم في جرم خابر

وكان أكثر المعتزلة يميلون إلى التزهد في الحياة والعيش عيشة الفقر والتقشف ؛ لأن همهم كان منصرفا إلى العبارات وإلى خدمة العلم والدفاع عن مبدأ التوحيد لا إلى العمل وكسب القوت ، ساروا في ذلك على غرار شيخهم أبي حذيفة الغزال الذي كان لا يأبه للدنيا ولا تخدعه بمارجها .

وقد شاع ذلك عنهم ، حتى أُطلِق على المعتزلة البغداديين اسم (نساك بغداد). ومن أشهر نساكهم وزهادهم : عمرو بن عبيد ، ويليه ابن السماك ، وكان عظيم القدر في الزهد ، ومن كلامه : (من جرعته الدنيا حلاوتها لميله إليها ، جرعته الآخرة مرارتها لتجافيه عنها .

ويروون عن المزدار من الورع والعدل أنه حين حضرته الوفاة شك فيما لديه من المال ؛ فوزعه على الفقراء تحوبا وإشفاقا .

وكان المردار قد تزهد واعتزل العالم ، ففاز بين أهل بغداد بمنزلة رفيعة ، وصار يدعى (راهب المعتزلة) .

ولا يقل جعفر بن مبشر وجعفر بن حرب عن هؤلاء زهدا وورعا ، يقول الخياط : إنه لم يوجد في فرقة من الفرق نظير لهما ، حتى إن المثل في العلم والعمل ليضرب بالجعفرين كما يضرب في حسن السيرة بسيرة العمرين .

ومع أن جعفر بن حرب كان يتقلد الأعمال للسلطان ، تقارب نعمته نعمة الوزارة ، إلا أنه ترك كل ذلك وفرق أمواله على المساكين وانقطع للعلم والعبادة ، وتمادى في التزهد حتى نزع ثيابه مرة واستتر بماء دجلة .

أما محمد بن عبد الله الإسكافي فمن خيار المعتزلة جميعا ، قال المسعودي : إنه كان من أهل الزهد والديانة ، وكان عظيم القدر موفور الكرامة . قيل : إن محمد ابن الحسن رآه ماشيا ، فنزل عن فرسه احتراما له .

ومنهم ابن الإخشيد الذي كانت له ضيعة منها مادته ، فكان يصرف نصف ما يُحمل إليه من إيرادها على العلم ، وبلغ من شدة تعلقه بالعلم وحبه للعبادة أنه كان يقول لوكيله في الضيعة : لا تحدثني بشيء من أمر ضيعتي ، وتعمد ما يمسك رمقي ولا غنى لي عنه ، ودعني أتوفر على العلم وعلى أمر الآخرة .

وعبد الله بن إسحاق أحد أبدال دهره ، وكان الصاحب بن عباد يحترمه ويعظمه ولا يقوم في مجلسه لأحد سواه .

ويجب ألا يفوتنا ذكر أبي القاسم الأسدي ، الذي كان – على طول باعه في الكلام والنحو والفقه – عازفا عن الدنيا ، يسير في الأسواق مكشوف الرأس لا يقبل من أحد شيئا .

وخير برهان على صدق أهل الاعتزال في تزهدهم أنهم كانوا على شدة فقرهم واحتياجهم يسلكون سبيل المروة ، ويترفعون عن الوسائل الخسيسة في الكسب ، ويبتعدون عن مواطن الشبهات ، فلم يقبل أكثرهم أن يشتغل في القضاء خشية ألا يعدلوا في أحكامهم .

ولأن غايتهم كانت خدمة التوحيد لا جمع المال ، وقال أحدهم : (للفقه أقوام يقومون به طلبا لأسباب الدنيا ، وعلم الكلام لا عرض فيه سوى الله تعالى .

ولهذا السبب ذاته كانوا يأبون مخالطة الملوك والأمراء ؛ لأن الذي يتبعهم لا بد وأن يماثلهم ويقرهم على أفعالهم التي قد لا تخلو من الجور ، وكانوا يرفضون أعطياتهم وحباقم ؛ لأن أموالهم قد يخالطها الحرام ، فإن ابن المرتضى يرى في السير وراء الرؤساء تدنيسا للنفس .

وكان المعتزلة يقولون فيمن لابس السلطان : إنه فاسق ، لا مؤمن ولا كافر ، ما عدا المزدار ، فقد أفتى بكفره وأوجب ألا يرث ولا يورث . وهذا ولا ريب تطرف منه ، لعل الذي دفعه إليه شدة ورعه وبعده عن الناس .

وللمعتزلة في هذا الباب حوادث طريفة ؛ منها :

أن عمرو بن عبيد دخل يوما على الخليفة المنصور ، فأجلسه بجانبه وطلب إليه أن يعظه ، فوعظه بمواعظ ، ولما أراد عمرو النهوض قال له المنصور : أمرنا لك بعشرة آلاف . قال : لا حاجة لي فيها . قال أبو جعفر : والله لتأخذها . قال عمرو : والله لا آخذها . فقال أبو جعفر : هل لك من حاجة يا أبا عثمان ؟ قال : نعم . قال : وما هي ؟ قال : ألا تبعث إليَّ حتى آتيك . قال : إذن لا نلتقي . قال: هي حاجتي . ومضى ، وأتبعه المنصور بطرفه وأنشد :

كلكم يمشي رويد

كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد

وروي أحدهم قال : كنا جلوسا مع عمرو بن عبيد في المسجد ، فأتاه رجل بكتاب المنصور يدعوه إليه ، فقرأه ووضعه . فقال الرسول : الجواب . قال عمرو: ليس له جواب ، قل لصاحبك : دعنا نجلس في الظل ونشرب من هذا الماء البارد حتى تأتينا آجالنا في عافية .

وزار عمرو بن عبيد المنصور في يوم آخر فطرح عليه طيلسانه ، ثم سأله : حاجتك يا أبا عثمان ؟ قال عمرو : يُرْفَع هذا الطيلسان عني .

وكان يحيى بن رياد الديلي إمام العربية يشتغل في بغداد ، ثم يذهب في آخر السنة إلى البصرة فيقيم فيها أربعين يوما ، ويفرق في أهله ما جمعه . وكان شديد المعاش لا يأكل حتى يمسه الجوع ، مترفعا عن مخالطة الحكام .

ووجه أحمد بن أبي دؤاد إلى جعفر بن مبشر مبلغا من المال فرفضه ، ولما حمله إليه أحمد بنفسه رَدَّه جعفر ، واستل سيفه في وجهه .

وأرسل إليه أحد الحكام عشرة آلاف درهم فَرَدَّها أيضا ، وجاءه صديق بدرهمين فقبلهما .

كذلك كان داود بن علي ناسكا شديد الورع ، يعيش عيشة الفقر والحرمان ، وجه إليه أحد المكثرين ألف درهم فأبى أن يأخذها ، ثم ذهب إليه وقدم له ألفين ، فأصر على إبائه .

ويروى عن الصيمري أنه عاب على أبي علي الجبائي بمجرد تناوله العشاء على مائدة أحد عمال السلطان .

أما أبو عبد الله الحسين بن علي البصري فكان يجلس في بيته يصنف ولا طعام عنده ولا شراب وهو جائع ، ومع ذلك فإنه رفض سلة الطعام التي خصصها له يوميا عضد الدولة البويهي ، وقد كاد يموت جوعا لولا أن كان أبو الحسن الأزرق من أصحابه يمده بالنفقة .

وامتنع أبو مسلم النقاش أن ينقش فصا لأحد الأمراء لقاء مائة دينار ويطعم نساءه الجائعات ، وقبل أن ينقش فصا لأحد التجار بعشرة دراهم ، ولما اعترض نساؤه في ذلك قال لهن : (منذ أربعين سنة أجتهد ألا أطعمكم الحرام) .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن المعتزلة وإن كان أكثرهم كما رأينا من النساك المتزهدين إلا أن منهم من شَذَّ عن هذه القاعدة ، وعاش عيشة البذخ والترف ، ولابس الخلفاء والأمراء ، وقبل

أعطياتهم ، وانصرف عن العبادات إلى السياسة وأعمال القضاء ، كيحيى بن المبارك والعلاّف والنظّام وثمامة بن أشرس وأحمد بن أبي دؤاد والجاحظ والصاحب بن عباد والقاضي عبد الجبار أحمد بن عبد الجبار والعميد الكندري وغيرهم .

وأخيرا كان المعتزلة يتعشقون الكرم والجود ويحبون ، فعل الخير ، ولا يقيمون للمادة وزنا ، وذلك مظهر من مظاهر جرأتهم الأدبية ، ضرب لهم زئيسهم واصل مثلا في المعروف يحتذونه ؛ فقد اعتاد أن يجلس في سوق الغزالين ليتصدق على من يغشاه من النساء المتعففات .

ولا جدال في أن كرمهم انتهى إلى أحمد بن أبي دؤاد وبلغ فيه ذروته ، فكم خلص من القتل أو العذاب رجالا كان الخليفة غاضبا عليهم ، فتدخل أحمد في أمرهم وأقنع الخليفة بالعفو عنهم والإحسان إليهم .

وكان أحمد لا يدع فرصة تمر دون أن يستغلها في خدمة الناس ، وقد أطرى الكتاب جوده وسخاءه ، فقال الطرطوشي : (واسع النفس ، مبسوط اليدين ، يعطي الجزيل ، ويستقل الكثير ، ولا يرد سؤالا ، ويبتدىء بالنوال) . وقال الخطيب البغدادى : (أكرم من كان في دولة بني العباس البرامكة ثم أحمد بن أبي دؤاد ، ولولا ما وضع به نفسه من محبة المحنة لاجتمعت الألسن عليه و لم يضف إلى كرمه كرم أحد) .

ويقال : إن أحمد كان يكثر من العناية بأهل الأدب ، فقد ضم إليه جماعة من مختلف البلاد يعولهم ويمونهم ، وإنه كان يغمر إخوانه بفضله وإحسانه حتى لم يبق واحد منهم إلا وبنى له دارا على قدر كفايته ، ووقف على أولاده ما يغنيهم أبدا .

وكان الصاحب بن عباد في الجود غاية لا تدرك . قال الوزير أبو شجاع : إن الصاحب كان يقتدي في عمل الخير بأحمد بن أبي دؤاد . وذكره الحافظ الذهبي فقال : إنه كان من نبلاء الرجال .

وحكى العباسي أنه لم يدخل على الصاحب في شهر رمضان بعد العصر أحد فيخرج إلا بعد الإفطار ، فكانت داره لا تخلو في ليلة من ليالي هذا الشهر المبارك من ألف نفس مفطرة .

ولذلك تهافت الشعراء على مدحه ، ويقال : إنه مُدِح بما يزيد على مائة ألف قصيدة عربية وفارسية .

وقد لا يقل العميد الكندري كرما عن الصاحب بن عباد ؛ قال صاحب الوفيات : إنه من رجال الدهر وجودًا وسخاءً وشهامةً . ووصفه الحنبلي أيضا بالعلم والشهامة والكرم ؛ ولذلك كان مقصدا للشعراء ممدوحا ، مدحه جماعة من أكبر شعراء عصره .

ومن كانت هذه أحوالهم وتلك نعوتهم ، ليس عجيبا أن يحتلون في الأمة مكانا عاليا ، ويتبوأون مقاما رفيعا ، ويقابلون بالاحترام الوفير ، ويتمتعون بثقة أولياء الأمور .

فقد كان المنصور يتبرك بعمرو بن عبيد ، ويرى أن أمثاله في مملكته الواسعة قليلون . قيل له يوما : إن أبا عثمان خارج عليك . فأجاب : هو يرى أن يخرج عليَّ إذا وجد ثلاثمائة وبضعة عشر مثله ، وذلك لا يكون .

وسأل أحدهم الحسن البصري عن عمرو بن عبيد ، فأجاب : (لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته ، وكأن الأنبياء ربته ، إن قام لأمر قعد به ، وإن قعد لأمر قام به ، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له ، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن منه ، ولا باطنا أشبه بظاهر منه) .

وبلغ أحمد بن أبي دؤاد من القوة والحظوة لدى الخلفاء ما لم يبلغه أحد من المعتزلة قبله أو بعده . قال فيه المعتصم : (هذا والله الذي يتزين بمثله ، ويبتهج بقربه ، ويعدل ألوفا من جنسه) .

واعتلّ أحمد مرة ، فعاده المعتصم ، وكان لا يعود أحدًا حتى إخوته وأجلاّء أهله، فلما قيل له في ذلك ، أجاب : (وكيف لا أعود رجلاً ما وقعت عيني عليه قط إلا ساق إليَّ أجرا ، وأوجب لي شكرا ، أو أفادني فائدة تنفعني في ديني ودنياي، وما سألني حاجة لنفسه قط ؟!)

كذلك كانت للصاحب في بلده ولدى مليكه مكانة سامية تقرب من مكانة أحمد بن أبي دؤاد . ويروون أنه لم يذكر التاريخ عن وزير كان مليكه يجله ويحترمه ويطيع أوامره ويلزم الاحتشام أمامه ويحله مكان الوالد كما كان فخر الدولة مع وزيره الصاحب.

وقد أراد الصاحب أن يستقيل من الوزارة يوما ، فقال فخر الدولة : (لك في هذه الدولة من إرث الوزارة ما لنا من إرث الإمارة ، فسبيل كل منا أن يحتفظ بحقه) .

أما العميد الكندري فقد كانت له هو الآخر عند طُغْرُلْبك السَّلْجُوقي رتبة عالية ومنزلة جليلة ، فكان يشبه في عظم نفوذه ورفعة شأنه القاضي أحمد بن دؤاد والصاحب بن عباد .

هؤلاء هم المعتزلة ، وتلك خصائصهم ، وذاك مقامهم ، قوم كانوا من أساطين العلم في الإسلام ، ومن أعلام الفلسفة ، وقادة الفكر ، وحملة لواء الأدب ، يتصفون بالكرم والجود ، ويؤثرون التقشف والزهد ، يحتلون من الأمة الصدر ، الخلفاء يعرفونهم ، ويثقون بهم ، ويتقربون إليهم ، ويطلبون موعظتهم وإرشادهم ، ويذهب بعضهم مذهبهم ، يمدحون أحياءهم ، ويعودون مرضاهم ، ويرثون موتاهم ، ويتخذونهم مربين لأولادهم وفلذات أكبادهم ، ويسندون إلى من شاء منهم أرفع مناصب الدولة) ا. هـ. كلام الأستاذ زهدي .

****

****

****

****

**

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٢
القسم الأول : آراء المعتزلة	**٣**
الفصل الأول : التعريف بفرقة المعتزلة	**٤**
السمات العامة للفكر المعتزلي	٥
التأسيس وأبرز الشخصيات	٧
أهم مبادئ وأفكار المعتزلة	١١
الفصل الثاني : الأصول الخمسة للمعتزلة	**١٥**
١- نفي الرؤية	١٥
٢- خلق القرآن	٢٠
الخليفة المأمون وفتنة خلق القرآن	٢٣
٣- تكليف ما لا يطاق	٣١
٤- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٣١
الفصل الثالث : أهم فرق المعتزلة	**٣٤**
١- الواصلية	٣٤
٢- العمرية	٣٥
٣- الهذيلية	٣٦
٤- النظامية	٣٨
٥- الأسوارية	٣٩
٦- المعمرية	٣٩
٧- الجعفرية	٣٩
٨- الإسكافية	٤٠
٩- البشرية	٤٠
١٠- المردارية	٤٠

١١- المشامية ٤٠
١٢- الحابطية ٤١
١٣- الثمامية ٤١
١٤- الخياطية ٤٢
١٥- الجاحظية ٤٢
١٦- الجبائية ٤٣
الفصل الرابع : آراء المعتزلة في بعض المسائل الاعتقادية ٤٦
الحساب يوم القيامة ٤٦
صفات الله ٤٧
قضاء الله وقدره ٤٨
حكم مرتكب الكبيرة ٤٨
الصلاح والأصلح ٤٩
عذاب القبر ٥٠
غفران الذنوب ٥٢
حقيقة الإيمان ٥٢
التقليد في الإيمان ٥٣
العذاب من غير جناية ٥٣
حقيقة الميزان ٥٤
حقيقة الصراط ٥٥
حقيقة السحر ٥٦
علامات الساعة ٥٧
موجز بأهم المسائل التي خالف فيها المعتزلة أهل السنة ٥٨
الفصل الخامس : النص والعقل عند المعتزلة ٦١
إعمال العقل عند أهل السنة ٧١
الفصل السادس : أصول المعتزلة بين اليهودية والنصرانية ٧٥
الأصل الأول : الوعد الوعيد ٧٥
الأصل الثاني : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٧٦

مساوئ اليهود والمسيحيين في ديار المسلمين ٧٩
الأصل الثالث : الصلاح والأصلح ٨١
الفصل السابع : تأثر المعتزلة باليهودية والنصرانية ٨٩
الفصل الثامن : فقه المعتزلة ١٠٨
الفصل التاسع : بين المعتزلة والإمامية ١١١
١- رأي الإمامية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١١١
٢- التوحيد بين الإمامية والمعتزلة ١١٢
٣- المنزلة بين المنزلتين بين الإمامية والمعتزلة ١١٣
٤- رأي الإمامية في الجزء الذي لا يتجزأ ١١٣
٥- رأي الإمامية في الصرفة ١١٤
الفصل العاشر : الصلة بين المعتزلة والصابئة ١١٥
سبب تسميتهم بالصابئين ١١٥
وقفة : اليهود يعبدون الأصنام ويئدون أبناءهم ١٢٠
المشابهة بين يحيى وعيسى في الدعوة ١٢١
المسيح في القرآن الكريم ١٢٥
القسم الثاني : المعتزلة ومخطوطات البحر الميت ١٣٣
الفصل الأول : أثر اليهود والنصارى في فكر المعتزلة ١٣٤
١- القول بخير الله تعالى ١٣٩
٢- القول بالأصلح ١٤٠
٣- نفي الصفات والأسماء ١٤٠
٤- المجاز والتأويل ١٤٠
٥- حرية الإرادة ١٤١
الفصل الثاني : التعريف بمخطوطات البحر الميت ١٥٥
موقع قمران آثاريا ١٥٥
الجدل حول نشر المخطوطات ١٦٠
من هم أصحاب مخطوطات قمران ؟ ١٦٧
روحانية الفكر الأسيني ١٧٠

الفصل الثالث : المعتزلة ونصارى قمران **١٧٧**
اشتقاق لفظة (أسيني) ١٨٦
يوحنا المعمدان كان من نساك قمران ١٨٧
كسر الخبز وشرب الخمر في دائرة المعارف الكتابية المسيحية ١٩٤
أخوة قمران ٢٠١
الفصل الرابع : المعتزلة خلفاء النصارى الأمناء في قمران **٢٠٤**
نشأة الفريسيين ٢٠٥
الفصل الخامس : نساك قمران ونساك المعتزلة **٢١٣**